تسلية الاخوان

في

وقائع جلبلاس سفتيلان

معرّبة عن الافرنسوية بقلم جميل افندي سيخائيل مدوّر
عفى الله عنهُ

ارادة الطبع محفوظةٌ للمترجم

طبع في مطبعة المعارف ١٨٨٤

oneikandi.com

تسلية الاخوان
في وقائع جلبلاس دي سنتيلان
(من قلم جميل افندي ميخائل مدور)

مقدمة جلبلاس الى القارىء

اتلو عليك ايها القارىء قصةً لطيفة من قبل ان آخذ في سرد الحوادث التي وقعت لي فيها رمتهُ من اغراض هذا الكتاب

لتعلم اعزّك الله انهُ كان في بعض الازمنة فتيان يقطعان في البلاد سهولاً واوعارًا فمرا بجانب عين نضاخة في بعض الدروب فجلسا اليها يستريحان في ظل اشجارها من المشقة والتعب وبروبان ظمآهما من قليل الحرّ فنظرا الى صخرة على القرب منها قد رسمت عليها كتابة تكاد الاّ تقرأ من توافع حوافر البهائم عليها حين ترد الماء مضافًا الى ما فعلهُ بها كرور الايام وتعاقب الاعوام فاخذ قليلاً من الماء في سجال وغسلا بها تلك الصخرة فبانت لهما كتابة تشير الى ان هناك مقام رجل مشهود لهُ بالعبقرية والاجادة فضحك الصغير من الفتيان وقال ما اقل عقل هذا الرجل الذي نقش على الحجر كلامًا لا معنى لهُ كأنهُ يعبث بعباد الله هزوًا ثم قام ومضى الى حال سبيلهِ فبقي رفيقهُ في ذلك الموضع مفكرًا بهذا الامر ونفسهُ تحدثهُ بان من الكتابة لسرًّا فتناول موسى من جيبهِ وجعل يكشط التراب من حول الصخرة حتى توصل الى نزعها عن موضعها فراى حفرة فيها كيس صغير يحتوي على دراهم ودنانير والى جانبهِ رقعة كتب فيها اليك ايها الفطن اللبيب ميراثًا اكسبك اجتهادك ونعمك في الامر فهنأك الله بالمال الذي ترك اليك منالهُ فاخذ الرجل المال وانقلب الى بلدهِ مسرورًا من هذا الاتفاق

فانت ايها القارىء ابقاك الله سيكون مثلك مثل هذين المسافرين فاما ان تقرأ وقائعي غير مستفيد من عادات الامم وآدابها فلا تجتني من رياض كتابي ثمرًا واما ان تدرك ما قصدت اليهِ من بث روح الاداب وابقاد نار الذهن فتفوز بما ارجوهُ لك وقد اهملت في ان اجعل النافع مخالطة الفكاهة والجدّ يستترهُ الهزل الظاهر والله الموفق الاخذ باليد وهو حسبي ونعم الوكيل

الجزء الاول
فصل
في ولادة جلبلاس ونأْديهِ

كان ابي بلاس رحمهُ الله قد قضى سنين طويلة في جندية الدولة الاسبانيولية حتى اذا عاد الى قريتهِ (والعود احمد) تزوج فيها على فتاة ولدتني بعد عشرة شهور من دخولهِ عليها . فنشأْت صغيرًا وما كدت ابلغ سنين من العمر بين ايديهما ان أُلجئا الى مبارحة الاوطان سعيًا في طلب الرزق فصار ابي سائق عجلات وتولت امي منصب القهرمانات في بعض بيوت التجار واصبحا بما يصل اليهما من المال اليسير غير قادرين على النفقة عليّ في الكتّاب وبقيت في هذا الخسران وانا لا ارجو ان اسلم الى المؤدب حتى احتضنني خال في القرية قسيس وبدأ يعلمني الهجاء والقراءة

وكان جلبراز هذا الخال قد توسم فيّ من الذكاء والنجابة ما حملهُ على استمرارا لتحفظ بي ولا سيما انهُ كان يفيد نفسهُ بما يعلمني اكثر من استفادتي منهُ

حتى اذا لم يمضِ زمن طويل توصل الى معرفة القراءة في كتاب الصلوة وهو آمر كان غافلاً عنهُ من قبل ذلك وانما كان همهُ موجهًا الى لذاذة المآكل والمشرب بمثل ما يرى في جماعات القسيسين عادةً . ولما نبغت في هذه العلوم السهلة وحان الوقت الذي اتعلم فيهِ اللغة الرومية اذا الخال جاهل ببادئها اغرُّ فزادني جهلهُ طمأنجيًا من قصر عليهِ وسالت بعض الناس عن ذلك فوقع الحديث في افواههم وقالوا انهُ رسم قسيسًا اجابةً لتوسل راهباتٍ في الديركنَّ عرفنهُ واستخدمنهُ لبعض مصالحنَّ فاقتبلهُ اهل الكهنوت وانخرط في سلكهم دون بيان وامتحان

ولما كان بعد ذلك أسلمني الخال الى حكيم يقال لهُ غوديناس وهو يعد من آحذق العلماء في اوفيادو وأوسعهم علمًا وأعرفهم بلغات الامم الدائرة فتبحرت في الدراسة عندهُ نحوًا من ست سنين حتى توصلت الى فهم كلام شعراء الروم واستيعاب مقالات الحكماء من قوم يونان . واكثر ما بالغت فيهِ من العلوم أدب المنطق لما تحققت من سبرًا قوالي فيهِ بمعيار الحكمة وكنت الفى في الطريق رجالاً اجاورهم في الكلام وأجادلهم في طرائقهِ الى ان ينتهي حديثنا الى الخصام في احايين كثيرة فيتظاهر الشر من اعيننا وتلوح الحدَّة في وجوهنا كأنَّ بعضنا يريد ان يلتهم بعضًا

ثم لم يمضِ زمن على هذه الحال حتى طار صيتي وانتشر في الآفاق وحسبني اهل المدينة عالمًا مع ان بضاعتي من العلم مزجاة . فسر الخال من ذلك سرورًا كثيرًا لآمالٍ في نفسهِ من اني اكسب المال بعلمي حتى لا يضطر الى القيام بنفقتي اليسيرة فقال لي في بعض الايام إي جلبلاس ان ايام صباك قد مضت اليوم فاجتهد في ان تحصل رزقك في المدن الكبيرة مثل سلمنكه واشباهها واني اعطيك دراهم وأهبك دابةً تحملك اليها فتبيعها هناك باكثر من عشرة دنانير تنفقها على كسوتك ريثما يفتح السعد اليك بابهُ

فلما وعيت كلامهُ كدت الا أعقل من شدة الفرح لمكاني من الشوق الغالب الى التفرج على بلاد الناس والتجوُّل في انحائها وابقيت هذا الشوق مكتنفًا في نفسي حتى اذا آزف الاجل المضروب تظاهرت بالتوجع والكآبة وأعملت جهدي في اراقة الدموع من عيني على فراق خال ما زال يشملني باحسانهِ وكرمهِ . ولما ان آنس عظم بلمتي وانها تكاد تتلفني المنا وتوجعًا رقَّ قلبهُ عليَّ واكثر من حبائي المال واظنهُ لو عرف ما خبأت في ضميري لما وهبني بقدر ما أخذت بهذا الاحتيال منهُ

ثم جئت ابي وامي لاودعهما الوداع الاخير فاهطلا عليَّ من المواعظ غيثًا مدرارًا واوصياني بحسن السيرة في الدين والصلاة الى الله تعالى لطويل في عمر الخال الذي كانت نعمهُ عليَّ ظاهرة وتقدما اليَّ بان اسلك بين الناس سلوكًا صادقًا وان لا امس مالاً لا يحل لي اخذهُ ولا افعل بالناس ما لا اريد ان يفعلوهُ بي ثم باركاني البركة الابوية وهو الزاد الذي ما كنت اتوقع ان السوق غيرهُ منهما وركبت بغلتي وارتحلت بعون الله الى خارج المدينة

فصل
في طفيليٍّ مكار

ولما صرتُ في البرية وقد ملكت البغلة وعشرين دينارًا اعطاني الخال الموقر وبضع دراهم تناولتها سرًّا من جيبهِ سررت كثيرًا من الحياة وانبسطت الآمال في نفسي كاحسن ما يكون وجعلت اقلب هذه الدنانير في يدي ثم اجعلها في قلنسوتي دون ان امل من مرآها الحسن حتى اذا تجاوزت القرية بعيدًا اجتلت البغلة على هنف وضمت اذنيها برجف فنظرت واذا بقلنسوة في قارعة الطريق وصوت هاتف يتول ايها العابر في الطريق نشدتك الله الا تصدقت على رجل فقير

الحيلة واهي العزائم ونفحه ببعض دوانق من احسان يجازيك الله عنه في يوم الدين فحولت نظري لناحية الصوت ورايت بين العابق على بعد عشرين قدما رجلاً قبيح المنظر جدًا قد بسط رجليه على التراب وقعد متكئًا الى هراوتين غليظتين فنفرت منه متشائمًا بالسوء واخذت دوانق وهي تقود فحاس رمينها الى الارض افرادًا وازواجًا لاهدله عن الهجوم عليّ بما اريد من كثرة كرمي وخيري ثم نخزت الدابة لسرعة الابتعاد عنه فلم تكن لتتقدم باسرع مما عودها الحال من المسير البطيء فارتجمت من سوء الحال وجعلت اشكو الى الله ظلم من عرضني لهذه الاخطار دون مكاري يدفع عني بعض الشر حتى وفق الله وصولي الى مدينة في الطريق يقال لها بيافلور فنزلت بها في فندق صغير وقد عزمت على بيع الدابة واقسمت ان لا انفر الا مع القافلة

وكان الخاناتي الذي نزلت في فندقه مكثارًا يحب القال والقيل ويمقل الكلام العريض الطويل وما زال يخدعني بالمكر ويدسني بالمداهنة وهو يروغ مني روغان الثعلب حتى اطلعته على ما عزمت عليه من بيع البغلة حذرًا من خطر يحدق بي في الطريق فاغتنم فرصة ما رأني غمرًا لم اجرب الامور ان جاءني برجل توافق معه على الرباء والحيلة لشتراها مني واظهر لي حسن سيرته وطيب سريرته ليغم عليّ ريائه فاخرجت اليه الدابة فلما راها اخذ يعدد عيوبها ويذم خصالها وكان وصفه لها فيما رايته صادقًا او قريبًا من الصدق غير ان ذلك لا ينفي بان لو عرضت عليه بغلة البابا في شراء لأوجد فيها عيبًا مذمومًا . فلما فرغ من تعديده قال لي بدهاء بكم تبيع هذه البغلة الذميمة قلت بما تراه موفيًا بثمنها فقال سابريء ذمتي وادفع لك عشرين درهمًا فجمدت حياء عند ذلك وتعجبت من قحته وكيف يقوم ثمنها بهذا العدد اليسير من الدراهم وهو غير مجلان غير ان الضرورة حكمت بالامتثال فبعتها منه وقبضت المال كالرجل الذي ربحت صفقته وتقدمت الى الخاناتي بان ينبئني عن موضع قافلة تذهب في الغداة الى استرغة فذهب بي الى بغال ذكر لي حسن سيرته بمثل ما ذكر عن الرجل الذي سلبني واياه بغلتي فساومته على الاجرة ثم عدت الى الخان وقد اعترض الخاناتي في الطريق رجل اوقفه للحديث واراحني من كثرة كلامه

ولما وصلت الى الخان اقبلت عليّ امراة الخاناتي وساقت اليّ حديثًا طويلاً يدل على مكانها من الشوق الى مجالسة الرجال فنهيت من ذلك سبب ازدحام الوافدين على هذا الفندق الصغير . ثم طلبت الطعام وجلست الى المائدة واذا بالخاناتي قد دخل ومعه الرجل الذي اعترضه في الطريق وهو قد اقبل عليّ وقال أسعدت مساء ايها السيد الجليل وبلغت من المعالي اسنى درجة وانا اليوم لفي غبطة اذ حلّ ركب جلبلاس العالم في مدينتنا ثم انعطف عليّ وقبلني وهو يقول بالله اعذر ما صدر عني لانك هيجت عليّ ما كان ساكنًا مني مما لا طاقة لي على كتمانه مع كل ما شملني من السرور فلم استطع مجاوبته لتضييقه يده على عنقي حتى اذا ابتعد عني قلت له ايها السيد ما كنت لاظن ان اسمي يعرف في مدينتكم فبادر الى الجواب وقال أني نغفل عن ذلك وقد رحت تعد من معجزات الدنيا وكان افتخارنا بك مثل افتخار قوم يونان بحكمائهم وفلاسفتهم فلما سمعت مغالاته في المديح المفرط عرفت انه رجل طفيلي يغتنم فرصة ما يمرّ المسافر ببلدته ليجلس الى مائدته غير انه لم يبق لي مع ما سمعته من الثناء البليغ الاّ ان اكلفه الى مناولة الطعام فقال اني لاحمد الله على ما انعم من اجتماعي بك واني وان لم تكن لي شهية الطعام لاكل بعض الشيء حتى يتم سروري بمجالستك فقدمت له صحيفة البيض التي اكلت منها لقمة واحدة وباقي على ما فيها كأن له اياما لم يذق الاكل فامرت

الغلام بان يحضر صحيفة اخرى منه فاكله وهو لا ينفك في خلال ذلك عن مواصلة المديح ثم صب نبيذا في الكاس وشرب على ذكر والدي يبين لي فخرها على سائر الاباء وسقاني اقداحا كثيرة حتى لعبت الخمرة في راسي فطلبت من الخاناتي صحن سمك فامتنع لقوله ان السمك غالي الثمن فتحرقت غضبا وقلت له احضر ما طلبت اليك ولا تفكر بما وراء ذلك فقال له نديمي خسرا لك انستضيع شيئا في جلبلاس ابن الحسب والنسب ولكن هات كل ما كل لديك نفيس فاتاني عند ذلك انهما متواطئان على خداع المسافرين وكرهت هذه المجالسة السيئة ثم ما كان باسرع من لمح البصر ان احضر السمك باردا في صحن فانكب عليه الطفيلي بمثل ما كان من تهافته على صحاف البيض واكل منه حتى امتلا جوفه وشرب النبيذ اقداحا ثم اراد ان يختم فصل مكره فقال لتعلم ايها الفتى اني غدوت شاكرا لك على ما كلفتني من تناول الطعام وكنت خفيقا في مقابلة ذلك ان انصح لك نصيحة اراك في حاجة اليها وهي ان لا تصدق كلام المكارين ولا تثق برجل لم تثبت لك معرفة قديمة اعلا تقع في مخلب مكار مثلي فيغتنم فرصة ما يراك احمق ويهزأ بك بمثل ما رايت الان قال هذا وضحك مني بحضرتي وانصرف الى موضعه كاسبا

فتخيلت من لعبته علي حيلا عظيما وقعدت اعذل نفسي على انقيادي لمكار اكل خبزي وشرب نبيذي وراح يضحك مني ويستهزئ بي بين الناس حتى يصل حديثه الى ابي فيصيح بقول يا ليت وصيت بني بان الناس لا تاكل ماله عوض ان اوصيه بان لا ياكل مال الناس . وقطعت الليل على هذا سهران سهدان حتى اذا جاء البغال كنت ممددا في السرير غير نائم فجئت الخاناتي وطلبت منه علم النفقة فاذا عليه ثمن السمك دراهم كثيرة فنظرت اليه فاذا في وجهه قوة غالبة يمنع نفسه بها عن انفجار الضحك فدفعت له ثمن العشاء الذي ما هضمته في تلك الليلة وخرجت الى القافلة وانا اسب الخان والخاناتي والطفيلي الخادعة

فصل

في حادث اوجب رحيل جلبلاس

وكان معنا من الرفقاء في هذه القافلة ولدان صغيران من بنيا فلور ومغنٍّ زامر يطوف البلاد وفتى فلاح مع زوجة زُفَّ عليها من عهد قريب فتعرف كل رفيقة وتبادلنا الحديث عن اسباب سفرنا ومقصدنا منه . وكان البغّال قد على هاتو العروس السمينة وهزم عليها اليوم كله حتى اذا وصلنا الى قابلوس بعهد الاصيل انزلنا في خان يعرف صاحبه من قبل ذلك وتقدم اليه ان يحضر لنا الطعام ثم خرج لبعض اشغاله . فجلسنا في قاعة منفردة ومدت لنا فيها سفرة فاكلنا متحدثين لاهين واذا بالبغّال قد دخل علينا وعرق الغضب منتفض من بين عينيه وقال ايها القوم اني فقدت بينكم خريطة فيها مئة دينار فان توافقتم على ارجاعها الي بما هوت والا فالحكم بيني وبينكم ثم خرج وتركنا في اشد حيرة واذهال يفكر كل احد منا بان رفيقه غريم البغّال وما لبثنا ان طلبنا الفرار للتخلص من هول السجن وعذابه فذهب بعضهم الى الشارع وتخبأ بعضهم في البستان ونجا الفلاح بنفسه وقد ترك زوجته في القاعة غير مبال بها فجاء البغال ولم ير في الحجرة الا الفتاة فسر من نجاح حيلته وقص عليها ما دبره لابعاد القوم عنها وأبان لها وجه وهيامه وانه يبغي منها وصالا فبكت وصرخت باعلى صوتها واتفق ان الشرطة كانوا يعبرون من تحت الشباك وقد سمعوا اصراخ الاغاثة فدخلوا المنزل ورأوا الخاناتي في مطبخه يغني كان ليس له علم بشيء فامروه بان يقودهم الى الموضع الذي يرتفع منه الصراخ حتى اذا فتحوا الباب ألفوا الفتاة واهية العزائم اثر الحمامات عن وصول المكاري اليها

فقبضوا عليه وطلسوه في السجن وسلموا الجارية الى بعلها هذا ما كان من امر البغال

اما انا فاني تخوفت عاقبة التهمة اكثر من ارفاقي ونجوت الى خارج البلد وقد قطعت سهولاً وسابين كنت اتأنس فيها فوق الحفرات والسواقي التي اعترضتني في المفرّ حتى وصلت الى غابة كثيفة الشجر فعمدت الى الاختباء فيها من وجه الشرطة واذا بفارسين قد طلعا من اعماق الغابة وهتفا بي من القادم علينا الى هذا المكان فلم يأتني الكلام من شدة الخوف وظللت واجماً مبهوتاً فدنيا مني وصوبا بندقيتهما عليّ وقالا اما اعلمنا عن شأنك بصدق لا محاباة فيه والا ضربناك بالرصاص وقبضنا الساعة على روحك فانقضت نفسي على النطق بعد هذا الوعيد القاتل واخبرتهما بامر البغال وانه تهمني بسرقة مئة دينار فهربت من وجه الشرطة الى هذا الموضع فلما وعيا كلامي اخذتهما قهقهة من الضحك وقال لي احدهما طب نفساً ايها الفتى فانت بجمايتنا لا تخاف عاقبة سوء ثم رفعني وارد في وراءه على الفرس وسار بي مع رفيقه الى داخل الغاب وقد زال الضيق عن صدري لتحققي بدوام العمر لي وقلت في نفسي ان هذين الفارسين الا من اولاد الاشراف لانهما اذ انسا جزعي احبّا ان يذهبا بي الى منزلهما رحمةً وشفقة عليّ وانهما لو كانا لصّين لقتلاني وسلباني مالي لا محالة وبعد ان اجتزنا مهاوي ومتحدرات في هذا الحرش المظلم اقبلنا على اكمة مرتفعة وترجل الفارسان وقال لي احدهما ان مبيتهم انما هو في هذا الموضع فحوّلت بصري الى كل النواحي ولم اجد اثر عمارة ولا مغارة ولا كهفاً ولكن هناك اخشاباً ضخمة قد قامت كالمتراس في جانب الاكمة فترامى عليها صاحبي ورفعاها بعنف فبان من تحتها سرداب مظلم يهدر الى جوف الارض فاقبلت اليه الافراس لموالفتها له . ثم دخلت مع الفارسين وقد طبقت علينا الاخشاب واضبحت مأخوذاً في ظلمة السرداب كما يؤخذ المجرز في المصيدة

فصل
في سرداب اللصوص

ولما عرفت شأن هولاء اللصوص ايقنت بالهلاك لوجود المال في جيبي واستحوذ عليّ جزع رجفت منه وكدت اقع الى الارض لعلمي باني أُساق الى المجزر ولم يكن احمال اللصين في تهدئة جأشي بانني لا اخشى في مقرهما بأساً الا اضطراباً وفزعاً ميتاً . وبعد ان ولجنا في هذا السرب نحو مائتي خطوة اكثر ما فيها تعاريج ومهاوٍ افضينا الى ساحة كبيرة تربط فيها الخيول وفيها مؤنة التبن والشعير وفي سقفها سراجان معلقان يضيئان ضوءاً ضعيفاً وهناك عبد اسود يربط الفرسين اللذين تقدمانا الى هذا الخنير المظلم . ثم جاوزاني من هذا الاصطبل الى دهاليز واروقة سجيت في عينيّ حتى اقشعر بدني خوفاً من ظلامها ورأينا في نكبات بعضها زاداً وذخائر بمثل ما تشحن القلاع في ايام الحرب . ثم وصلنا الى مطبخ سودّهُ الظلام الا قليلاً وفيه عجوز نحيلة الجسم صفراء يكاد يدركها الفناء قد جلست تشوي على الجمر طعاماً للصوص فلما صرنا على مقربة منها قال لها احد الفارسين اسعدك ايتها الفهرمانة مساء وثم فهذا فتى جئنا به اليك خادماً . ثم التفت اليّ ورأى وجهي مصفراً وجسمي يعلوه ارتجاف ظاهر فقال لا يخوفنك شيء في هذا المقام ايها الفتى ففيه كل ما يوجب راحتك وانشراحك فكل واشرب واصطلِ بقرب النار واجهد بان لا تموت هائجاً مثل ما مات الغلام الذي تقدمك في خدمتنا ولك منا كل ما تحب ولكن الشمس لن ترها بعد هذا اليوم . ثم تناول شعلة وامرني بان اتبعه فاجتزنا موضعاً فيه قناني وخوابي ودنان ملات نبيذاً معتقاً وافضينا منه الى حجرات ومغائر فيها الذهب والفضة والاقمشة الحريرية وغير

ذلك من الفرش والآنية النفيسة ثم عطفنا الى بقعة اشعلت في سفحها ثريات من النحاس وعلى دائرها أبواب خلوات اللصوص فجلس على مصطبة كسيت بالفرش الفخم واخذ يسألني عن اسمي وولادتي والاسباب التي سهلتني على السفر فاخبرته بذلك كلهِ فقال ليكن سرورك عظيمًا ايها الفتى من حيث توفقت لك خدمة كنت تبذل الجهد للحصول على اخفض منها مرتبةً واوفر في التعب عناء واقل في الكسب دخلاً لانك تنقلب على جبال الفضة والذهب بغير امنٍ من طوارق الحدثان ورباس الشرطة الذين لا يهتدون الى موضعنا . ولتعلم ان هذا السرب لا يزال باقيًا منذ ايام العرب في الاندلس لان النصارى الذين لم يهجروا اوطانهم بعد استيلاء المسلمين على دولتهم احتفروا لنفوسهم سراديب تحت الارض وعاشوا فيها دهورًا حتى اذا اعاد الله لهم سلطانهم هجروا هذه المحتفرات وأصبحت نبيت فيها جماعات اللصوص من معاشرنا وانا أقيم في هذا السرداب منذ خمس عشرة سنة دون ان يدهمنا بأس من جهة الشرطة ولي ارفقاء كثيرون انرأس عليهم واسمي رولندو البطل المقدم والاسد الغضنفر

فصل

في احاديث اللصوص وسيرهم

ولما فرغ القائد من كلامهِ دخل القاعة لصوص يجرّون اكياسًا فيها السكر والزبيب واللوز والفلفل والتين الجاف وغير ذلك واعلموا رئيسهم بانهم انتهبوها من حلواني سلبوهُ من غير هذه الاكياس دابة ربطوها في الاصطبل فأمرهم بنقل الزاد الى الكلار واشار اليَّ بان أواني الخوان وأعمل بما تأمرني به فاجبت بالامتثال السريع لاني رأيت كل شيء اهون لديَّ من القتل وجئت بطاسات من الفضة وقماقم وقناني نبيذ ووضعتها على السفرة وحملت اليها طامات من المرق اجترعها اللصوص بشهية غريبة وهم يضحكون ويتمايلون وانا اسكب لهم النبيذ المعتق بمهارة اكسبتني منهم الثناء والمديح . ثم جئت اليهم بصحاف اللحم المشوي واخذ قائدهم يحدثهم بفصلي وهم يشربون الى الثمل حتى ارتفعت ضوضاؤهم وعلت ضجتهم فنهرهم رئيسهم وقال اسمعوا يا احبائي ما ارجو اليكم لقد فتق لي عقلي ان احدث بعضنا بوقائعنا ونشير الى الحوادث التي اوصلت كل واحد منا الى هذا الجمع ولقد كان وقع في نفسي منذ ازمان ان اسألكم عن هذا الامر ثم اجلته الى هذا الان فماذا تقولون في ذلك فبادر كل احد منهم الى الموافقة وبدأ القائد بسياق حديثهِ فقال

لتعلموا ايها الاخوان والاصدقاء اني ابن تاجر شيخ عظيم الشان ولدت في خلال مآدب وولائم اتخذها ابي سرورًا لمولدي . وكان يحبني حبًا شديدًا منعهُ من ارسالي الى الكتاب لزعمهِ ان الدرس لا يصح الاّ بعد كمال العقل فالذ بسيب باللاعب وكلفت بلعب القمار وكان جدي وهو ابو امي يطلعني على رسائل كتبت عن حروب شهدها بنفسهِ وما زال يعيد تلاوتها عليَّ مدة ثلاثة شهور حتى حفظتها حفظًا كان مجلبة لدموع الفرح الى اعين والديَّ وصرت بحيث اذا اتيت امرًا منكرًا صفحا عني دون لوم ولا تثريب . ولما بلغت من العمر اثني عشرة سنة اسلماني الى مؤدب وتقدما اليهِ ان لا يأخذني بالقساوة الا في اوقاتها فلم اكن ارى منهُ الا الرفق والحلم غير ان كرهي للدراسة كان يغضبهُ فيهِ وكنت اشكو جورهُ الى والدتي فتوبخهُ عليهِ وهو يقسم انهُ لم يستعمل الا الرفق في تاديبي ولما اعيتني الحيلة في التفلص من علمهِ وقع في نفسي ان امزق جدودي باظافري واهشم بالتخديش وجهي وتقدمت الى والدتي في هذه الحال المؤلمة من التوجع والبكاء فلما رأت حالتي كادت تغيب عن الصواب ودخلت على المؤدب وشتمتهُ من الحجرة

دون ان تسمع قسمة بانة لم يسعني بنو البنة ثم اقامت لي مودبًا غيرهُ كان يحب النساء ولعب القمار وشرب الخمور فوافق ذلك ما في نفسي وكنت اذهب معهُ الى مجالس النساء والقهاوي حتى تفتح عقلي وعرفت رذائل الدنيا بالمشاهدة والعمل ولما بلغت من العمر اشدهُ اتيت بي البيت بسوء ادب تنفرمنها الطباع وكنت امرأ بوالدي وهما يضحكان مني وكلما زدتهما اهانة بالغا في الضحك قهقهةً فاعمل ذلك على افساد ضميري فجالست الخنثين والنساق واتفقت عليهم اموالاً جزيلةً كنت اسرقها من خزائن ابي حتى اذا تجاوزت النفقة ما في يدي اخذت ورفقائي ندور بالليل في الازقة ونسلب العابر مالهُ ومتاعهُ وما والب هذا الكار دابنا حتى انتهى خبرنا الى الشرطة فهربنا الى القفار وقطعنا بها الطريق وقد ثبت في هذه المهنة لهذا اليوم والحمد لله على ذلك

ولما انتهى حديث الرئيس بدأ كبير القوم يقص سيرتهُ فقال . اعلموا ايها الاحباب والاسياد اني ابن جزّار من مدينة طليطلة سمي الطباع جدًّا وكان يقسو عليَّ كثيرًا ويجاريني بالشر على كل عمل آتيه واكثر ما كسبت منهُ ضرب السواط وكلما ازدت لهُ خضوعًا زادني ضربًا ولمًّا وسوء معاملة فكان بذلك ان طالبتني نفسي حين بلوغ الرشد بمبارحة الاوطان تباعدًا من ظلم ابويَّ ولما لم تكن لي معرفة بالصناعات اعملت على السؤال وطلب الصدقة والاحسان وتعلمت خداع هذا الفن من جماعة الذين بهم وكنا نظهر نفوسنا عميانًا وعرجانًا ونضع على ارجلنا قروحًا ودمامل من الورق محاكاةً للقروح الحقيقية لتأخذ الناس لنا شفقة فيجتمع عندنا بهذه الحيل مال نشتري بهِ في الليل نبيذًا . غير اني مللت بعد ايام من مرافقة هولاء الصعاليك وتقرّبت من جماعة النصابين المكارين وبقيت معهم زمنًا طويلاً حتى نمى خبرنا الى الشرطة فتفرق جمعنا في البلاد ولحقت انا بجماعة من اللصوص كانوا يترصدون الكمين للمسافرين في الطرق البعيدة واني لا ازال لهذا اليوم اشكر فضل والدي باستعمال القساوة في تأديبي بدلاً من الرفق الذي ما كان اوصلني الى هذا المقام المجيد فيما بينكم والحمد لله على ذلك

ولما ختم مقالهُ اخذ لص اخر في بيان سيرتهِ فقال اعلموا يا اخوان اني ولدت في جوار اشبيلية من ام صحيحة البدن كان قد وجّه اليها بعض التجار الموسرين طفلاً لهُ ترضعهُ كنت اشبه بهِ من الماء بالماء فلما ان رأت مالتي لهُ في الخلقة احبت ان ترسلني الى التاجر وتبقي ولدهُ عندها حتى اذا ورثت مالهُ اقتسمتهُ بيني وبينها فلم يعارضها ابي في ذلك ونشأت في بيت التاجر الى ان كبرت وقد اتاني بمودبين كثيرين لم استفد من علمهم شيئًا وانما كان ميلي متجهًا الى اللهو واللعب ومعاقرة الخمر . وكان في جملة السراري الخدمة جارية غضة البدن ثقيلة الردف ناعمة الاطراف فعشقت بحبها وكدت ان لا افارقها في ليل ولا نهار فعلم التاجر بسرنا وعذلني على ذلك وشجد الفتاة من بيتهِ فتالمت من فراقها ولحقت بها الى بعض القرى وقد سرقت اموالاً كثيرة من خزائن التاجر وشيئًا من حلى امرأتهِ . فلما كنت في بعض الايام نعى الناس الى وفاتهِ فاسرعت الى اشبيلية لوراثة مالهِ واذا هناك امرأة قد استحوذ على الاملاك والعقارات وهو يتقلب في المال الكثير فسالت الناس عن الخبر فقالوا ان زوجي حين جاءها الموت دعت بقسيس تعترف بين يديهِ واباحت اليهِ بما دبرت من الحيلة للاستيلاء على مال التاجر فما كان لمح البصر باسرع من اني لحقت بالبادية ونشاركت مع قطاع الطرق وكان ذلك عملي الى هذا اليوم والحمد لله على ذلك

ثم تكلم بعدهُ لص اخر وقال انهُ ابن تاجر من مدينة برغش وانهُ كان متبتلاً الى الله تعالى وبهِ من

الزهد في هذه الحياة الدنيا ما حملهُ على لبس ثياب الرهبان فدخل ديرًا في بعض الجبال واقام فيهِ ازمانًا ليست بطويلة حتى غلب عليهِ روح ابليس وهو يظهر لهُ بجبل منتدبة يغرهُ على عشق الملاح ويفتنهُ بمحاسنهن فانقلب امرهُ من العبادة الى الفساد وكان من كثرة تردده الى مجالس النساء في قرى هناك ان طردهُ صاحب الدير فسعى في طلب الرزق ولم ير اقرب من مهنة اللصوص تناولاً واخذ يعمل فيها بمهارة وخفة وحمد الله على ذلك . ثم تكلم بعدهُ لص ثم اخر حتى انوا على احاديثهم جميعًا ولم ار فيهم من حمدت سيرتهُ باطنًا ولا ظاهرًا ولذلك لم اعجب من تلاقيهم في هذا المجمع الشرير لان كلهم شرٌّ من بعض وكان انفصالهم عن الهيئة الاجتماعية سعادة للناس الذين تخلصوا من شرورهم والحمد لله على ذلك

فصل

في احتيال جلبلاس للنجاة من السرداب

ولما مضى هدءٌ من الليل احرق اللصوص شموعًا يستضيئون بها بحجراتهم ودخلت حجرة القائد أوثر فراشهُ وانزع عنهُ ثيابهُ فقال لي لقد رايت ايها الفتى ان لياليَنا تنقضي بمسرات تكون شريكنا بها فيما بعد ولا تأب فان الناس كلهم لصوص مثلنا لا يقوم الفرق بيننا وبينهم الا بالاسماء والنعوت فمنهم التجار الذين يحتالون على بعضهم ومنهم الملوك الذين يتجاوزون موضعهم ويعسفون بالناس ويسلبون الرعية مالها ومنهم الشرفاء الذين يستقرضون المال ولا يقومون بالوفاء ومنهم القضاة الذين يصفحون بالرشوة عن سفك دماء مثل ما نقتل نحن ابرارًا في وقت الحاجة الى مالهم

ولما ان اتم كلامهُ دخل فراشهُ وخرجت الى قاعة الجلوس ورفعت الصحاف عن المائدة ثم تقدمت الى المطبخ حيث كان ينتظرني العبد والعجوز فجلست الى مائدتهما دون شهية للطعام وسمعت منهما مواعظ يهياني فيها عن الغم وانا لا ازداد فيهِ الا تماديًا حتى اكلا وشربا فتوجه العبد الى اصطبلهِ وتناولت العجوز شعلةً وذهبت بي الى قبو يدفن اللصوص فيهِ موتاهم واشارت الى موضع اشبه بالقبر وقالت وهي تمر بدها على ذقني يا بني هذا سرير كان يرقد فيهِ من تقدمك في خدمتنا وقتلهُ الحزن والخوف فاياك ان تقتني أثره بذلك وافرح وعش سالمًا في هذا السرداب

فارتميت كالقتيل على هذا الفراش وفعدت انوح على نفسي اوقوعي في قبضة لصوص اخذ منهم النهار بطولهِ واذا جن الليل نمت على القبر وسامرت الاموات وذلك دون ان ارى السماء ولا الشمس ولا الحيوة النامية فصرت اسب الخال لما اعمل من فصلي عن الاوطان وعذلت نفسي على عدم بقائي في قابلوس لانتظار الحكام الذين اذا وقفوا على براءتي من التهمة فرّجوا عني ولم يعاقبوني . ولما رايت ان الندم يزيد في حسرتي وكآبتي على خيبتي لا يغني شيئًا بعد مزلة القدم فكرت في ما اعمل للنجاة من هذا السرداب وقد تراءى لي ان ابحث عن موضع الباب لعل الياس ياتيني بقوة شديدة اتوصل بها الى فتحهِ . فانتظرت حتى رقد كل من في السرداب وتناولت السراج وتقدمت الى خارج القبر مستعينًا بالله سبحانهُ وتعالى حتى وصلت بعد عناء طويل الى موضع الاصطبل فتقدمت منهُ الى دهليز اسفى منهُ الى الباب واذا بحاجز من الحديد قد اعترضني في بعض الممرات فكدت ان اقع الى الارض ندمًا وحسرة لوجودهِ مانعًا لنجاتي (لانهُ كان ساعة دخلنا مفتوحًا فلم افطن لهُ) وكانت قضبان هذا الحاجز قائمة بعضها الى جانب بعض بحيث ان اليد لا تدخل في فرجة ما بين القضيب والاخر فجعلت اعالج القفل واجسهُ واذا بالعبد قد ضربني بالسوط ضربة مؤلمة على حين لم انتبه لقدومهِ فجزعت جزعًا عظيمًا وارتفع

صراخي حتى ارتج منهُ السرداب وفاق منهُ اللصوص فقام اثنان منهم في ايديهما بندقيتان وسيفان يهرولان في قميص النوم ظنًّا بان الشرطة قد جاءهم باسها على غفلة وهم لا يعلمون ثم تبعها لص فلص اخر فلصوص حتى اجتمع ثمانية منهم في الدهليز وسالوا عن سبب هذا الصراخ فاعلمهم العبد بقصدي من الفرار لظني بانهُ يكون سهلاً مستطاعًا فضحكوا من ذلك وقال لي اللص الذي كان في الدير راهبًا كيف ملت المقام في هذا السرداب ولم تنقض ست ساعات فما قيلست لو انخرطت في سلك الرهبان الذين ياكلون فتاة الخبز الجاف ولا يرون من الشمس اشعتها وضيائها . ولكن قد نالك الان من سوط العبد ما فيهِ مجازاتك على هذا الاجتسار الذي اذا انت عدت اليهِ فسخنا جلدك حيًّا . قال هذا ولحق باللصوص الى مخادعهم وعدت الى المقبرة ابكي وانتهد الى الصباح

فصل

في بناء جلبلاس مع اللصوص وخروجه معهم الى الغزو

ولما رايت ان حيلتي لم تنجع اعملت في الايام التالية على اظهار سروري من مقامي بين اللصوص والمواظبة لعاداتهم حتى خدعتهم بهذا النظاهر وجعلت انقص لهم سيرًا وحكايات على المائدة بينما كنت ادير عليهم كؤوس الراح وهم يسرون من ذلك ويشكرون حسن معرفتي لاداب الساقي حتى اذا مضت ايام ذكرت لهم ان الله قد خصني بالميل الغالب الى العمل بمهنتهم ورجوتهم ان يخرجوني معهم الى الغزو لمشاركتهم بالاخطار التي تحيق بهم وقد املت في نفسي ان ذلك يمكنني من الانهزام من وجوههم يومًا من الايام فوعدوني بذلك على ان يتاكدوا صدق كلامي اليهم ثم مضت بنا ستة شهور على تلك الحال وانا انتظر الفرج من عند الله ليأسي من مغافلة العبد حتى قال القائد يومًا لاصحابهِ ايها القوم لنتم اليوم فرحنا ونجز جلبلاس هذا الفتى الحاذق ما وعدناهُ ولنخرجهُ معنا في غد لنعلمهُ كارنا ونرى تدبيرهُ في قطع الطريق فوافق اللصوص على راي قائدهم واجلسوني بجانبهم الى المائدة وامروا العجوز بان تصب لهم الخمر في آنيتهم وازالوا الثياب الرثة وخلعوا عليَّ كسوة فاخرة كانوا قد سلبوها حديثًا من رجل مسافر وبقيت على هذا موعودًا الان ارافقهم الى الغزو (وكان ذلك في شهر الصيف)

وفي اخر الليل خرجت مع اللصوص متقلدًا سيفًا ومتخصرًا فردًا بطلق واحد ومتابطًا رمحًا قصيرة وقد امروني بان اركب فرس هذا الرجل الذي سلبوهُ ثيابهُ . ولما كنت قد مكثت زمنًا طويلاً في هذا السرداب ما بين ظلمات داجية اشعرت لاول طلوع الفجر كأن غشاوة وقعت على عيني وكاد يذهب بصري عند انبثاق اشعة الشمس لشدة وقوع ضيائها عليهِ غير اني بدات احتمل نورها واتعود عليهِ شيئًا بعد شيء . وبعد مسير بعيد في الوعر تخبأنا في موضع من الاحراش نرى منهُ ولا نرى فيهِ حتى اذا لم يطل جلوسنا بهِ وقد راهب على بغلة هزيلة يجهدها فضحك القائد وقال لاصحابهِ والله ان هذا موضوع لطيف لان نرى تدبير جلبلاس كيف يكون في قطع الطريق فوافقوا على رايهِ واخذوا يحثوني على البروز اليهِ فقلت لهم الان تظهر لكم مهارتي وآتيكم بمال هذا الرهبان واسوق اليكم بغلتهُ فقال لي رولندو لا تفعل كل هذا وانما ائتنا بكيس دراهمهِ لا غير فاجبتهُ بالامتثال ووعدتهُ بانهُ يكون مسرورًا من عملي ثم سقت الفرس متجهًا الى صوب الراهب بعد ان توسلت الى الله ان يتوب عليَّ وقد تقلبت بي عزائم الهرب لم انتفع منها بشيء خوفًا من ان يلحق بي اللصوص او يرموني بالرصاص حتى اذا دنوت منهُ اشرت اليهِ بالفرد اوان يسلمني كيس دراهمهِ فنظر اليَّ مليًّا كأن لم يخف مني

وقال ما بالك ايها الفتى تمارس هذه المهنة السيئة منذ حداثتك فقلت له بذا قضت الايام ايها الوقور وهو جهل ولكني رضيت به فاخذ ينصح لي ويسرد الي مواعظ وانا لا انفك من طالب المال اليوسعى اعتذر في اخر الامر بان ليس معه درهم البتة لعدم حاجته اليه في الاسفار بمعنى ان القوم من الاسبانيوليين يوجبون على انفسهم ان ينزلوا الرهبان في بيوتهم ضيافة واجبة فلم اعتبر كلامه بشيء وذكرت له ان لي اصحاب في هذا الحرش وانه اذا لم يعجل بتسليمي المال اطلقت عليه الرصاص لا محالة فلما سمع هذا التهدد ابلس فزعاً وقال اذا كان الامر كذلك فاني آتي طلبك ثم بادر الى جيبه واخرج منها كيساً من أدم ورمى به الى الارض وبقي ينتظر افادتي اليه فامرته بان يكمل مسيره فسار كاسرع ما يكون فتناولت الكيس وتقدمت الى موضع اللصوص فهنأ وفي بهذه الغزوة التي لم اضطر فيها الى اطلاق النار واخذ والي يقبلوني واحد بعد واحد وشكرني القائد واثنى على حسن اقدامي على الراهب بما يرجو منه ان اصل الى الغاية التي يرومها لي . وكان اللصوص في خلال ذلك يتباحثون عن مبلغ الدنانير التي يحوي الكيس الضخم فتحناه واذا به صلبان كثيرة وايقونات من النحاس بعضها صغير وبعضها كبير فاخذت الجماعة فيها من الضحك وهزاوا بهذه الايقونات ولا سيما اللص الذي كان في الدير راهباً . ثم قال الي القائد اني انصح لك ياجلبلاس بان لا تقرب من الرهبان بشر والا فهم اشد منك دهاء واسرع الى وجود الحيلة وقد اردت ان تهزأ به فغلبك بالحيلة وكان مثلك في ذلك مثل الرجل الذي سفر مغوّاة فوقع فيها

ثم ان بقينا في هذا الغاب حيناً لا نرى احداً من عباد الله فعمدنا الى الرجوع وسرنا متحدثين بقصة هذا الراهب واذا باشباح قد لاحت لنا في صدر البرية فتوافق اللصوص على القتال وانقسموا الى يمنة ويسرة وبقيت الى جانب القائد وهو قد حذرني من الفرار حين انس جزعي وتوعدني بالقتل ان فعلت فرجعت من ذلك وعمدت الى الامتثال حتى اذا وضح القوم وقد كان اثنان منهم في عربة يجرها ثلاثة فوارس اطلق عليهم اللصوص النار فرفعت الفرد الذي بيدي وحولت بصري الى الوراء مغمضاً واطلقت النار بلا علم ولا علام

اما تفصيل الواقعة فاني اجهله كاني لم اكن حاضرها لان الخوف الشديد كان قد اغاب عقلي عن الصواب الذي لم يرجع الي الا بعد ان سمعت اللصوص ينادون بالغلبة ففتحت عيني واذا بالاعداء الفوارس صرعى على الارض الى جانبهم رجل كان في العربة مع امرأته ولم نفقد من جماعتنا الا اللص الذي كان راهباً في الدير كأن الله قد جزاه عاجلاً على اثامه ولصاً جريح في فخذه واخر انسلخ ذراعه بمرور الرصاص عليه . ولما انتهى القتال اسرع القائد الى العربة واخرج منها فتاة تخجل البدر في ليل تمامه وهي قد وقعت في غماء فاركبها على بعض الخيول واخذنا السلاح والغنائم وتقدمنا الى موضع السرداب غير مبالين بشيء

فصل

في نجاة جلبلاس والجارية من السرداب

ولما وصلنا السرداب سقنا الدواب الى الياخور وقيدناها نحن بايدينا لان العبد كان قد نالته مرض يبس اعضاءه ولم يسلم منه الا اللسان الذي ملأ الكهف تجديفاً والعياذ بالله ثم سرنا الى المطبخ وجعلنا نهتم بامر هاته الجارية الحسناء لتزيل عنها غمها فلم نتوصل الى غاية محمودة لان الرجفة ما زالت غالبة عليها واليأس ظاهر منها لذي عينين . فامرنا القائد بان نبتعد عنها لعلها تفيق من غشوتها وعين لها فراش

العجوز مهادًا في تلك الليلة

ثم جلسنا في القاعة الكبيرة وفتحنا الصناديق فوجدنا فيها كسوة من الديباج واكياسًا حوت من الدنانير الذهب شيئًا كثيرًا . ثم امر القائد بعد سفرة الطعام فاكلنا ونحن نتحدث عن هذه البازلة وقد فهمت من كلامهم انهم لحظوا ان النزع كاد يقتلني فيها . وبعد كلام طويل وقع اتفاقهم على ان يسيروا في اخر الليل الى قرية على القرب منهم ويبيعوا الخيول من اهلها قبل ان ينتشر خبر الواقعة . ثم عادوا الى المطبخ ليروا حال الفتاة فاذا بها على حالها الاول من الغباء فامرهم القائد بان لا يقربها احد في تلك الليلة ففعلوا ذلك على بغض في قلوبهم ولولا شدة وقرتهم له ووجوب امتثالهم لامره لما كان الموت نفسه صان شرف هذه الجارية من تواقعهم عليها لص بعد اخر

ولما دخلت مخدعي للرقاد جعلت افتكر بصاحبة هاته المراة الشريفة وما يكون من افتعال اللصوص بها فعاقدت نفسي على نجاتها من هذا السرب المظلم وانقاذ نفسي معها بعد خروج اللصوص في الغداة . ولما لم تكن لي حيلة للبقاء معها الا باظهار المرض والالم تظاهرت بالمغص واخذت اشكو واءن حتى اجتمع اللصوص حولي وسالوني عن سبب ذلك فاجبتهم ان جوفي يتمزق من الالم وجعلت انقلب على الفراش واعض راحتي وساعدي فاخذتهم لي شفقة وسقوني عرقًا وزيت لوز فاتر وفرشوا على بطني لصقًا حامية فتالمت من ذلك وندمت على اظهار هذه الحيلة التي شربت لها من الزيوتات ما حرق جوفي وقلت لهم ان دائي قد زال باذن الله وشكرتهم على حسن اعتنائهم بي وتفقدهم حالي حتى اذا كاد الفجر يبشق تجهزوا للمسير فنهضت من الفراش متثاقلاً كان قوتي قد انحطت مما قاسيته في الليل وطلبت اليهم ان يخرجوني معهم فامتنعوا عن ذلك فاظهرت لهم اسفي وعملت كل ما من شأنه ان يبين لهم صدق حيلتي وان بقائي في السرداب ليس بامر مقصود

ولما خلا لي المكان ورايت ان هذه الفرصة لا يتوفق لي مثلها على حين يكون العبد مريضًا سللت السيف صلتًا وقصدت موضع العجوز لآخذ منها مفتاح الحاجز الحديد وتقدمت اليها بالوعيد في ذلك ان توقفت فامتثلت على الفور وسلمته الي مرتجفة فتناولت اميراما شديدة وقيدتها بها الى وتد ضرب في الارض وامرتها بان لا ترفع صوتها والا فان الرصاص يتكفل منها بالسكوت الذي لا نطق بعده . ثم سرت الى موضع الجارية وبشرتها بان الله قد اذن بنجاتها على يدي وان تفرح وتذهب عنها اليأس . فلما سمعت كلامي وقعت على الارض بين رجلي وقالت بالله ياسيدي خلص عرضي وشرفي فاخذتها بيدي الى بيت المال وملأت جيوبي وجيوبها ذهبًا ثم عطفت الى الاصطبل وفككت رباط حصاني دون ان يفطن العبد لذلك لاشتداد الحمى عليه وذلك احسبه من حسن حظي لانه لو عارضني بشيء لقتلته لا محالة . ثم عطفت الى موضع الحاجز ففتحته وتقدمت منه الى الباب وبقيت برهة اتجاذب اخشابه مع الجارية حتى توصلنا الى فتحه

ولما برزنا من هذا الحفير المظلم كان النهار لاول طلوعه فركبت الفرس بعون الله واردفت الجارية ورائي واخذت اجد في قطع الغابة حتى انتهيت الى موضع تتشعب منه طرق ودروب كثيرة فسرت على اوضحها اثرًا واطرقها ارجلاً وقد سال من بدني عرق بارد لطيف حتى اذن الله بوصولنا الى مدينة يقال لها استرغة وظل اهلها ينظرون الينا كأن لم يروا من قبلنا رجلاً وامراة على فرس . ثم انا نزلنا في فندق امرنا غلامه بان يطبخ لنا شيئًا من لحوم الطير واخذت الجارية تشكر جزيل عنايتي بما كان من انقاذها من

سرداب اللصوص وانا اتبادل معها الحديث حتى قصت عليّ سيرتها التي اسردها في الفصل اللاحق

فصل

في سيرة المرأة التي اسرها اللصوص

قالت المرأة الشريفة . لتعلم يا صاحب الاحسان والمعروف اني من مدينة وليد وانني ابنة قائد من قواد الجيش توفاهُ الله في بعض الحروب دون ان يخلف مالاً كثيرًا . غير ان الشبان لم تكن حقارة صداقي لتصدهم عن الاقبال عليّ يخطبونني من اهلي وفيهم اولاد الشرف والنعيم . فرايت فيهم شابًا جميل الصورة كيسًا ذا باس وفروسية وخلاعة حسنة فمال اليهِ قلبي وتزوجت بهِ على رضاء الاهل والاقارب . فلما كان بعد ذلك اعترضهُ للمبارزة في بعض الدروب شاب لم ارضهُ لي بعلاً فتضاربا بالسيوف وتجادلا ساعات حتى انجلى الصداع عن انتصار زوجي وقتل هذا الشاب الذي كان يعقد لهُ الكمين في الطرق . ثم ان سوء الحظ ونكد الطالع اعمل على ان يكون رئيس الشرطة عمّ هذا القتيل فاخفى زوجي من وجههِ اياماً ينتظرهُ الهلاك في كل ساعة حتى اشار اليهِ اصدقاؤهُ بالسفر الى ما وراء الاندلس فبكيت لفراقهِ وكدت ان اذوب اسى ولهفًا عليهِ

ودعتهُ وبودي ان يودعني

صفوُ الحياة اني لا اودّعهُ

ثم عظمت لديّ المصيبة وثقلت عليّ البلية بان الرئيس جاء منزلهُ واستولى على جميع اموالهِ الا شيئًا قليلاً تركهُ لنفقتي اليسيرة فوقعت في ضنك وقعدت انوح على فراق زوجي نحوًا من سبع سنين حتى جاءني نبا بانهُ قتل بالحرب في مدينة فاس فتالمت المآ كاد يفقدني الحيوة وبكيت عليهِ واقسمت ان لا اتزوج بعدهُ باحد من الناس

واتفق بعد ذلك ان نميَ خبري الى بعض الشرفاء ممن طعن في العمر ولكن خلاعتهُ وكياستهُ تجعل النساء لا يفطنّ لذلك فطلب من احدى قريباتي ان تجمعهُ واياي في مجلس فانتدبتني اليها وعرّفتهُ بذلك فلما رآني اعجب بي ووقع احتفاظي على مودتي لزوجي من نفسهِ موقعًا حملهُ على طلبي من اهلي عرسًا لهُ فاخذوا يشتغلون في ذلك وينصحوني مرارًا بان لا اضيع جمالي وصباي يذهبان عبثًا وانا لا اجيب طلبهم ولا احقق مسئولهم مع ما كنت فيهِ من اعواز المال لان حبي لزوجي كان يكرهني بكل رجل غيرهِ ثم مضت الايام وتغيرت الاحوال واشتدت عليّ مواعظ الاهل وفيها الوعيد الكثير حتى غلب عليّ رايهم ووافقتهم عليهِ فاخذني هذا الرجل الشريف الى قصر لهُ في بعض البلدان يبدي اليّ في كل يوم حنوًا وانعطافًا وانا لا آبه في غرامهُ الا بالشكر والامتنان لمكان قلبي من الهيام والوجد بذلك الزوج القديم

وكان لهذا القصر بستان يجري فيهِ الماء وتقيم فيهِ الطيور المغرّدة وكنت اقف احيانًا الى بعض الشبابيك انتشق النسيم الرطب منهُ . فاني لكذلك في بعض الايام اذ لمحت رجلاً بزيّ الفلاحين ينظر اليّ بدقة وامعان فظننت انهُ بستاني القصر ولم افطن لهُ . فلما كان من الغد وقفت الى الشباك رأيتهُ في الموضع الذي كان فيهِ بالامس وهو قد احدق بي بصرهُ فتاملتهُ وتفرستهُ فاذا هو اشبه الناس بزوجي فاضطربت وصرخت صوتًا سمعتهُ خادمتي فاقبلت الي تسالني عن الخبر فاخبرتها بما رأيت فاستغربت الامر كثيرًا وقالت ان اليوم ليس بيوم حشر يبعث فيهِ الناس احياء فامرتها بان تنزل الى البستان لتحقق الخبر بنفسها فلما عادت اقبلت مبتهجة تقول والله ياسيدتي ما كان ظنك الا يقينًا وان هذا الرجل الا زوجك الاول بروم ان يجمعهُ واياك مجلس واحد فلما سمعت كلامها خفق قلبي خفقانًا شديدًا وتقدمت اليها ان

تقوده الساعة التي من السلم السري فرصة ما يبقى زوجي الاخر غائبا . فلما دخل الي اخذتني هزة الشوق ووقعت الى الارض مغمى علي فبادر الي بقنائي انشقني منها رواح قوية حتى افقت فقال لي بالله لا تضطربي من مجيء اليك فما انا عاذلك على ما اكرهك اليه اهلك من الزواج بهذا السيد الشريف وانما جئت لاطلب الصفح اليك عما اوجبت لك من الضيق الشديد وما تكبدت من الآلام لفراقي عنك طول هذه السنين . فبكيت عند ذلك وقلت له ياسيدي ان موقفي بين يديك الان موقف وجل وخجل فاطل في لومي حتى استوفى بعض ما استحقه على خسراني فاجاب بصوت رقيق بكاك لتعلمي ياسيدة الملاح اني اسر من وجودك بهذا النعيم ولقد طالما توجعت في ايام النكبة المحنة سيرًا على ما كان من اختيارك اياي ما بين الشبان الذين خطبوك من اهلك فاصبح اقول باليتها زفت على رجل ناعم البال يكون مجلبة لسرورها وهنائها ولا يفترق عنها طول الايام من ان تزف على رجل باءس يقضي لياليه بالاحزان والاوجاع . ولما ان يسر الله رجوعي الى الوطن وقد هيجني اليك الشوق سالت عن موضعك فاعلمت بكل ما جرى لك وطلبت الى خولي هذا القصر ان يجعلني موضع البستاني فتكرم علي بذلك مما يسر لي ان امتع عيني ببرآك البهي . وانا عازم بعد الان على ان ارتحل الى بعض القرى واقضي فيها ليالي بترداد الذكرى لايام الهناء التي مضت بي بحضرتك . فلما سمعت شكواه ترامیت على صدره وابحت اليه بوجدي به ورجوته ان يعمل على اخراجي من القصر لاذهب معه الى حيث يشاء فلم يصدق كلامي في اول الامر لظنه باني لا اترك النعيم الذي كنت فيه واتبعه بعد ان فقد ماله حتى اذا رأى الحاحي بذلك اعلمني بانه قد استاجر عربة يصحبها ثلاثة فوارس يحرسونا في الطريق من داهيات العدو ونذهب بها الى بعض البلدان فركبت معه بعد اذ اخذت ثيابي و بعض حلي وقلبي مملوء خوفًا من ان الرجل الشريف يسرّح خيالته في طلبنا . وانا لفي بعض الطريق اذ لقينا جماعة اللصوص فقتلوا زوجي والفرسان الثلاثة وحملوني الى السرداب المظلم الذي انتذتني منه بمنك وكرمك

فصل

في وقوع جلبلاس في قبضة الشرطة

قال جلبلاس وما كادت تتم هذه المراة الشريفة حديثها ان دخل علينا صاحب الشرطة ومعه شرطيان من اتباعه وفتى تاملني في وجهي ونظر الى ثيابي التي اكساني اللصوص وقال لصاحب الشرطة ان هذه الثياب ثيابي وذاك على باب الفندق جصاني ولا اظن الفتى الا من جماعة الشطار الذين سلبوني مالي . فجمدت عند ذلك ارتباكًا ورعبًا لعلمي بان الثياب هي له ولكن الشرطي تخيل ان اضطرابي نشأ عن كوني سارقًا فاخذني والمراة الى السجن ودخل مع اتباعه بعد قليل يفتش ثيابي وهو يسر ابتهاجًا كلما اخرج قبضة من الدنانير التي حملتها من سرداب اللصوص حتى سلبني ما لدي غير غافل عن دنانير الحال وانتهى به الظلم والغدر الى ان ينزع ثيابي ليرى ما اكون قد خبأت ما بين القميص والبدن حتى تخوفت من ان يشق بطني ايضًا ليرى ما اكون خبأته فيه من الدراهم والدنانير . ولما ان نال نصيبه من الفريسة اخذ يسالني عن سيرتي ووقائعي فسردتها اليه وجاء ببعض كتاب المجلس يسطرها بحضرته على الورق ثم خرج وتركني على الفش اليابس ابكي على نفسي واسب الدهر الخؤون الذي ابتلى عمري بافات متلاحقة . وتذكرت الشاعر الذي يقول

وليلٍ كموج البحر ارخى سدوله
علي بانواع الهموم ليبتلي

فاذا انا احق بانشادها لنفسي منهُ لاني ما كنت اتخلص من شر الاَّ لاقع في ما هو اشر منهُ وزاد في عظم بليتي ان الدنانير التي تستعمل لرشوة الحراس كانت قد اخذت مني فاصبحت من دونها كعصفور منصوص الجناحين لا سبيل لهُ الى الفرار

وما لبثت في السجن طويلاً ان اتاني حارسهُ بكوز ماء وكسرات خبز يابس فاكلتها بدلاً من لحوم الطير التي امرت الخاناتي بتحضيرها لي قبل ذلك بساعة . وقصدت في بادىء الامر ان اسوق معهُ حديثًا يفرج عني بعض ما انا به فلم يرد عليَّ جوابًا وبقي كذلك يدخل عليَّ ويضع الرغيف وكوز الماء على المائدة دون ان يلتفت اليَّ مدة اسبوعين كاملين حتى جاء صاحب الشرطة وقال لي ابشر ايها الفتى فان الافراج عنك قريب بما كان من موافقة اقرارك لاقرار المراة الشريفة . واني ارسلت جاويشًا يحضر البغال الذي ركبت في قافلتهِ الى قابلوس (وهو اليوم في بلدنا) فان اقر بمثل ما سردت الينا عنونا الساعة عنك

فسررت من بشارتهِ سرورًا لامزيد عليهِ وشكرت لطفهُ واحسانهُ بعبارات ما كدت اتمّ لفظها ان دخل البغال وراءه الشرطة جالسين هناك فاخذتهُ رهبة منهم وفكر بانهُ اذا اقرَّ باني ركبت في قافلتهِ أجبروه الى ارجاع ثيابي وحوائجي فسالهُ صاحب الشرطة عني فانكر انهُ يعرفني فجاءت الى عيني دموع الغيظ واخذت اذكرهُ بنفسي وهو لا يزداد والعياذ بالله الا انكارًا فبقيت في هذا الحبس ارسف في السلاسل وقد لمت نفسي على مبارحة السرداب الذي كنت آكل فيهِ اكلاً فاخرًا واشرب نبيذًا معتقًا واعلل نفسي بالامال والفرج القريب على حين امسيت الان في خطر القتل ظلمًا او ارسالي الى اللبان وهو حبس الظالمات

ولما انتشر خبري بين الورى وعلموا بما كتب لصاحب الشرطة من اني مكثت ستة شهور في سرداب اللصوص تشوقوا الى رؤيتي وكانوا ياتون مثنى وثلاث ورباع ويتاملوني قليلاً وكثيرًا من شباك صغير ثم ينثون الى مواضعهم دون ان اعلم ما يظنون بي أفي شر او في خير . فاتفق في بعض الايام اني رايت بين المتفرجين ذلك المغني الذي ركب معنا في قافلة البغال فسلم عليَّ بوجهٍ طلق واظهر سروره للقياي والشفقة عليَّ لما نالني من عقاب الشرطة على غير اثم ولا جرم ووعدني بانهُ يكلم صاحب الشرطة بشاني . فما كان بعد ذلك الا ان دخل عليَّ امير السجن يبشرني بان براءتي قد ظهرت ويلتمس مني عن امر الشرطة ان اعلهُ عن مكان اللصوص فاجبتهُ باني لا اعرف لهُ اثرًا ولما كان من دخولي اليهِ وهربي منهُ في الليل الداجي . فامرني بالانصراف وخلع عليَّ كسوةً حقيرة استحييت منها بان ازور الذين اشتغلوا بامر الافراج عني واكتفيت باني باركتهم جميعًا في قلبي ولم ارَ منهم الا المغني الذي اضافني عنده اياماً ريثما جمع لي بعض دراهم انفقتها على الطريق الذي يوصلني الى قصر المراة الشريفة الذي انقذتها من السرداب فشكرتهُ على فضلهِ كانهُ اعطاني ذهب الارض كلهِ وسرت من بلدٍ الى بلد انزل في الفنادق الصغيرة واكل الخبز والجبن خوفًا على ذهاب المال مني حتى صرت على مقربة من قصر الرجل الشريف الذي تزوّج المراة الشريفة بعد هرب زوجها فأُعلمت من رجل مكتار يحب الكلام الطويل على مثال خاناتي بيناقلور انهُ توفي منذ ايام وان امراتهُ دخلت ديرًا دلني على موضعهِ وكان على بعد ميل من مكاني في ذلك اليوم

فصل

في ان جلبلاس صار غنيًا

ولما وصلت الى الدير أقمت الى قاعة الجلوس وأُعلمت المراة الشريفة بمجيئي اليها فاقبلت عليَّ

وجلست وراء قضبان من الخشب قد قامت كالحاجز بيني وبينها وترحبت بي باهلاً وسهلاً واعلمتني بانها كتبت منذ ايام الى صديق لها يعلمني عن مكانها حتى اتي اليها لتتمكن مرة ثانية من بث شكرها اليّ وتعطيني من خبرانها شيئاً أسد بوحاجتي فشكرتها لذلك وسالتها عن امرها وما جرى لها بعد ان قبض عليها الشرطة فقالت ان لما نبي الى الوالي خبرها وجهها مع جنود تحرسها الى منزل زوجها الثاني وان لما وصلت اليه كان المرض مشتد ابو (وقد كان سببه فراقها عنه) ولم يلبث ان راح الى دار الاخرة شهيد غرامه بها وقد ترك لها خيرات كثيرة لم ترَ ان تنعم بها بعد ان قتلته حباً ووجداً فدخلت الدير وزهدت في هذه الحيوة الدنيا.

ثمّ اخرجت من جيبها خريطة فيها مايتا درهم واوعزت اليّ ان اشتري بها كسوة نظيفة ثم اعود اليها من الغد لتعطيني مالاً استاهله بفضلي عليها فشكرت احسانها ونزلت الى المدينة واقبلت على خان تقدمت الى صاحبه ان ينزلني في غرفة كبيرة لذكري له باني اقوم بدفع ما علي وان كان ظاهر كسوتي حقيراً فضحك كان لم يصدق كلامي فاخرجت الخريطة وعددت الدراهم امامه على الطاولة وهو ينظر اليّ ينأ مانبي كاني كبرت في عينه. ثم طلبت اليه بعد ذلك ان يأتيني بخياط يعمل لي كسوة فاجابني بان الاوفق ان اشتري ثيابا حاضرة لئلا احتاج لى الانتظار الطويل فوافق قوله ما في نفسي ووجه خادمه في طلب السباع وانا افكر بالزي الذي يكون اكثر لي موافقة حتى اذا عاد بوكيت قد اعتمدت على لباس الشرفاء رغبة في تقلد السيف فطلبت اليه ان يعرض عليّ بضاعته من ذلك الزي فقال احمد الله يابني على ما كان من مجيي يباع اليك بكسب بدرهمٍ ديناراً ثم آخذ نفسه وقال لا بل اقول درهما بدينارٍ فظننت ان قوله الاول يكون اقرب الى التصديق من الثاني ثم فتح بقجة وبسط بضاعته وارائي كسوةً كثيرة من الصوف والكتّان لم استحسن منها شيئاً وانما رغبت في طاقم من الحرير القطيفة مزركشة اكمامه بالذهب وعليه تخاريم حسنة ولونه ازرق قاني فهتف بي السباع لله درك ما اصح ذوقك ايها الرجل وان هو الا طاقم فتى من سلالة الشرفاء لم يلبسه الا اياماً قليلة وهو من جودة القماش ورقة النسيج بمكان عظيم فساومته على الثمن ودفعت له مئة درهم وقد رايت غصصاً في نفسه من حيث لم يطلب بثمنه اكثر من ذلك وقد راني سمحاً بالمال. ثم نزلت الى السوق واشتريت قلنسوةً وقمصاناً وحذاء واجربة وسيفاً طويلاً وقد سررت من حسن كسوتي كما يسر الطاوس من لمعان ريشه فتقدمت من الغد الى الدير ولقيت من أُنس المراة الشريفة ما تعودته منها وقد دفعت الي خاتماً من الماس يساوي ثلاثين ديناراً وشكرتني مرةً اخرى على معروفي اليها واثنت دون ان تنعم علي بالمال الذي وعدتني به امس

فتحيرت من هذا الامر ورجعت الى الفندق خائب الامل واذا برجلٍ زاينه يتبعني في الطريق قد دخل عليّ يحمل كيساً تحت ابطه وفيه نحو من الفي درهم وقال لي ان السيدة الشريفة وجهت اليّ بهذا المال راجية في ان اقتبله هدية منها ففتحت اعيناً كباراً وخلت هذا الكلام هابطاً من السماء بقدر ما سررت به ودفعت الى الخادم ما تيسر اجرةً لتعبه وصعدت الى مخدعي وقد تبعني اليه الخاناتي ليجلس الي وهو يبين سروره من حصولي على هذا المال ويظهر انه يحب صلاحي حتى اتخدعت برياه وطلبت اليه ان يرشدني الى طريق الخير ويوضح لي منهاجه فاشار علي بان اقصد مدريد عاصمة الدولة لاخدم فيها الملوك والوزراء بما توسم في من الاهلية لذلك. واوصاني بان اكون

ميالاً الى مجالسة نساء الشرفاء على ان امراة منهن تتزيى
هباتها عليّ فترتفع حالي وقال ان ذلك امر حقيقة
بالعيان من ان عشق الاغنياء يفقرهم كما ان عشق الفقراء
يغنيهم . ثم اشار عليّ بان آخذ معي خادماً اخدع الناس
به واريهم اني سيد كريم ودلني على موضعهِ واثنى على
حسن سيرتهِ ورواق طباعهِ وعظم نقودهُ ودعى لي
بخطبةٍ طويلة شكرتهُ عليها وامرتهُ بان يحضر الغلام
الذي يرافقني الى مدريد وذهبت الى السوق
واشتريت بغلتين وسرت مع الخادم نقصد عاصمة
البلاد ومقر الملوك والاشراف وقد خبات مالي ضمن
صندوق لا يتوصل احد الى خلعهِ

فصل

يبين على خيبة آمال الرجل

وبعد مسير يومين وصلت الى (مدينة وليد)
قبيل الاصيل ونزلت بها في فندق فسيح الفناء متسع
الارجاء واوصيت خادمي بملاحظة الدواب ودخلت
غرفة حملت اليها صندوق المال ونمت على السرير
دون ان اتمكن من نزع ثيابي وخفي لغلب الناس علي
اثر مشقة الركوب . فلم افق الا في العشاء فناديت
خادمي فلم اجدهُ في المنزل فلما عاد سالتهُ عن سبب
غيابهِ فقال انهُ كان في الكنيسة يقيم لله صلوةً يحمد بها
على ما انعم من وصولنا بالسلامة الى مدينة وليد
فسررت من حسن ديانتهِ وامرتهُ بان ياتيني بدجاجة
مشوية وما كاد يفارقني ان دخل الخاناتي يحمل سراجاً
موقوداً وتبعهُ امراة هيفاء كاعب حسناء ترفل في
الحرير والى جانبها خادم صغير تلقي يدها على كتفهِ
بمثل عادات الاميرات حتى اذا دنت مني احنت
راسها للسلام وسالتني هل كنت انا جلبلاس السيد
البطل فاجبتها اني هو وقد ذهلت من دخول امراة
عليّ في بلد غريب ثم ما كان الا انها انعطفت عليّ
وقبلتني وحمدت الله على اجتماعها بي بعد ان بحثت
عن موضعي طويلاً ففكرت اذ ذاك بان تكون نصابة
مكارة على مثال الطغيلي الذي اكل طعامي وراح يهزأ
بي في بنيافلور غير انها قالت لتعلم ايها السيد اني بنت عم
المراة التي انتزعتها من ايدي اللصوص وقد وصلني
منها في هذا الصباح تحرير تطلب بهِ اليّ ان اضيفك
في منزلي واقوم ببعض مكافاتك على جزيل معروفك
فتغير ظني بها وقمت اجلالاً لها وقد شكرتها على جزيل
لطفها من دون ان اجيب طلبها الى المضيف عندها
غير ان شدة الحاحها مع رقة كلامها وحسن خلاعتها
جعلاني امتثل امرها فركبت العربة التي جاءت تحملني
بها وركبت هي الى جانبي وقد وضعت يدها على
الصندوق لقولها ان مدينتها كل ما فيها لص وسارق
(وهو كلام ليس اصدق منهُ فيما قالت لي) وما زلنا
نخترق الشوارع والازقة حتى انتهينا الى دار فسيحة
اُحرقت فيها الشموع واقيم فيها شيء من الزينة فسالت
المراةُ من هناك من الخدمة عن اخيها فاجابوها انهُ لم
يرجع فقالت لي ان اخي روفائيل قد ذهب الى
قصر لنا خارج البلد وسيعود الان الينا فيشاركني
بمسرتي للقياك وما كادت تستتم كلامها ان دخل
علينا فتى ممتلىء الجسم نظيف اللباس فقالت لهُ اني
ليسرني رجوعك عاجلاً لتقوم معي بحق ضيافة هذا
السيد الذي انقذ ابنت عمنا من الفضيحة وهذا كتاب
ورد عليّ منها في هذا الصباح فاقرأهُ فاخذهُ وقراهُ
بصوت عالٍ ليسمعني اياه واذا فيهِ

يا ابنة عمي كاميلية ان جلبلاس السيد البطال الذي
صان شرفي وخلص حياتي من الهلاك قد سافر الى
العاصمة آخذاً عن مدينة وليد فاحلفك بحق قرابتنا
ومودتنا ان تضيفيهِ في منزلك اياماً وتحضي ابن عمي
على حسن الاحتفاء بهِ معك لابقى بذلك ممنونة لك
الى اخر الدهر والله اسال ان يفرغ عليك نعمهُ ظاهرة
وباطنة

فلما فرغ من تلاوته جلس اليّ يشكر حسن صفاتي ويظهر ابتهاجه من الاجتماع بي ويقص عليّ احسن القصص حتى كان وقت العشاء فدخلنا غرفة مليحة وجلسنا الى مائدة صفت عليها الوان كثيرة من الطعام ما انفكت كاميلية تكلفني الى الاكل من كل شكل منها حتى امتلأت شبعاً ثم شرب روفائيل على ذكر ابنة عمه فاتبعت مثالهُ ورايت اختهُ تغافلهُ في كل برهة قصيرة وتنظر اليّ بعيون عاشقة على حين لا ينتبه لها فسررت من ذلك لعلمي بان محبتي قد علقت فؤادها . وكان اخوها في خلال ذلك يذكر لي ان لهُ في خارج البلد قصراً فيهِ متنزهات البحيرات وصيد الاسماك وقنص المهى والغزلان وانهُ يجب ان ياخذني اليهِ من الغد فوافقتهُ على ذلك حتى اذا قمنا عن المائدة استاذنني بالانصراف ليحضر حاجات السفر وخرج تاركاً لديّ اختهُ التي ما لبثت ان ساقت اليّ حديثاً اظهرت فيهِ غرامها بي ودنت مني واخذت يدي وقالت وهي تنظر الى خاتمي ان فص هذا الخاتم ظريف ولكنهُ صغير جداً فقل لي هل انت خبير بالجواهر فقلت لا فقالت يغمني كلامك لاني كنت احب ان تحقق قيمة الخاتم الذي تراه في اصبعي قالت هذا ونزعتهُ من يدها وسلمتهُ اليّ وقالت لي بين كنت اقسمهُ واقلبهُ لتعلم ان كان لي خال بعث اليّ بهذا الفص من بعض جزائر الهند ويقوم الصاغة ثمنهُ بثلاثمئة دينار فقلت لا عجب في ذلك لاني اراه في غاية الحسن فقالت من حيث انك اعجبت بهِ فاني اعطيكهُ ذكرى دائمة واخذ خاتمك الصغير بدلاً منهُ فسررت من لطفها وانسها ووافقتها على ما احبت وبقيت الى جانبها برهة نتبادل فيها الحب حتى نلت المراد فانثنت الى غرفتها ودخلت انا الفراش افكر بها واعد نفسي بافراح كثيرة معها في قصر اخيها ولا سيما اني حصلت على خاتم يساوي ثلاثمئة دينار من غير الا اني درهم مما خبأت في الصندوق وهو امر حقق لديّ نية الخاناتي من ان النساء يعشقنني ويصلنني بهباتهنّ السنية فكنت اراوح بين هذه الافكار العذبة والامال اللطيفة ان غرقت في النوم الذي يخفق لاهل النعيم والهناء

وفي غد اليوم افقت من النوم بعد ارتفاع الشمس معاً تقدمت فيهِ الى خادمي من ان ينبهني باكراً فتعجبت من عادتهِ وظننت انهُ يكون في الكنيسة ثم قمت اتمشى في الغرفة فرايت المائدة لا صندوق عليها فرجعت من ذلك وجعلت اصرخ الى الخادم مرات ولم يجبني الا شيخ من الطابق الاسفل وهو يقول من الصارخ علينا فقلت لهُ اين خادمي فقال سيدي ان جماعتك قد ذهبوا في اخر الليل فقلت اليس هنا منزلهم فقال لا والله وانما هذا فندق اكثرت صاحبتك البارحة غرفتين منهُ وقالت انهُ بيت فيهما امير متنكر فترجعت عند ذلك على مصيبتي وعلمت ان خادمي باعني الى المكارين كما علمهُ الخاناتي الذي ارسلهُ معي وامرهُ ان يتفق مع كاميلية على سلب مالي وكدت ان اتمزق من اليأس لذلك

فصل

في ما عمل جليلاس بعد فقدان مالهِ

ولما رايت ان التاسف لا يغني الفتى شيئاً اخذت على تقوية نفسي بالامال واذهاب ذكر هذا الخداع من خاطري حتى كان من صبري عليهِ ان شكرت النصّابين على بعض ما تركوا في جيوبي من الدنانير القليلة وما كان من اغفالهم عن سرقة الحذاء التي بعتهُ من صاحب الفندق بثلث ثمنهِ لادفع اجرة مبيتي عندهُ في تلك الليلة الخبيثة . ثم خرجت من عندهِ دون ان اضطر الى النزول الى الاصطبل لاني علمت منهُ ان خادمي باع بغلتيّ من بعض الناس في تلك الغيبة التي زعم انهُ كان يقيم فيها صلوةً لله . ولا ان اضطر ايضاً الى حمّال يحمل ثيابي بمثل سفراتي الاولى لانهُ لم يبقَ لديّ من الثياب الا ما كنت مرتدياً بهِ . فنزلت اسير في

الاسواق حيران لا يفر لي قرار وقد آتاني ان اذهب الى الدير لاطلب من المراة الشريفة ما لا اسديه حاجتي . غير ان حيائي ابى ذلك لئلا تظن اني رجل احمق وعزمت على بيع الخاتم الياقوت الذي اعطتني كاميلية المكارة لعلي اعوض بثمنه شيئًا مما خسرت فاذا به لا يساوي الا دون العشرة دراهم فطار عقلي من هذا الخداع وظللت واقفًا مبهوتًا على باب حانوت الصائغ حتى مرّ بي فتىً اطال اليّ النظر وقال بورك فيك يا جابلاس اتفطن لي ايام كنت التقي بك في حلقة غرديناس الحكيم . ففطنت له واذا هو فبريس ابن حلاّق من اهل الوطن فعانقته واشعرت بتعزية قد ملات نفسي بعد القهر الطويل وقعدت اشكو اليه ظلم المكارين وما كان من خداعهم لي . فضحك من حديثي وعرف ان حالي من الضيق شديدة وان كانت كسوتي لا تنطق بذلك ولا تدل عليه ثم اخبرته بان نفسي تطالبني بالخروج الى بعض المدن الكبيرة لادرّس فيها الفقه والمنطق فلم يوافق على ذلك وحضّني على ان اخدم الاسياد من اهل النعيم لاكسب المال بمثل ما يكسبه منهم فقبلت بذلك على ان يتيسر لي خدمة بعض الشرفاء فقال ان ذلك ليس بسهل منه وان ليس علينا الا ان نقصد الشيخ الموكل بالخدمة وهو يدلنا على ذلك فذهبنا اليه وسلمنا عليه بكل ادب فلم يقم لنا وانا لم آخذه على ذلك لان من عادته انه لا يزوره الا الخدمة . فلما راني ظل ينظر اليّ متعجبًا من مسعاي للحصول على الخدمة على حين كنت مرتديًا بثياب الشرفاء فقال له فبريس ايها السيد لا تكن ليأخذ العجب منك وان صديقي هذا الا من اهل البيوتات ولكن الدهر انزل به خوْنه فاضطر الى ان يخدم الاسياد وقد جئناك لذلك ونعدك بهدية سنية فقال له الشيخ انتم معاشر الخدمة تعدون بالهدايا والاموال ما عهد لا تنجزونها بعد حصولكم على وظيفة تبقون فيها راجحين فقلت له ليس من العدل سرعة العذل وهذا دينار اعطيك مكافاة لمعروفك حتى اذا سررت من المنصب الذي تطوقني امرهُ تجاوزته في العطاء الى دينارين فثلاثة فخمسة ان شئت فشكر الشيخ كرمي وتناول سجلاً ضخمًا واخذ يقرا اسماء الاسياد الذين يطلبون لهم خدمةً وغلمانًا حتى وصل الى ذكر قسيس مقدم بين الرهبان كان قد شخذ بالامس خادمه فقال فبريس حسبك ايها الشيخ من البيان لاني لا اظن وظيفة تكون احسن لجابلاس من هذه فهو يتفق مع خادمة القسيس وباني واياها كل ما يشاء ان . ثم التفت اليّ وقال لا تفوت يا صاح هذه الفرصة لان القس مريض والهلاك منه قريب فاذا كتب وصيته فلا بد من ان يترك لك من ميراثه شيئًا وهلمّ بنا نتوكّل اليه وانا اوصيه بك لاني اعرفه . فوافقته على ذلك وودعت الشيخ وقد اوعدني بان اذا لم يتيسر لي هذه الوظيفة يبذل الجهد في ان يدبر لي غيرها حتى لا يذهب الدينار بلا طائل

الجزء الثاني

فصل

في ان جابلاس خدم قسيس البلد

ولما وصلنا الى منزل القسيس فتحت لنا الباب ابنة صغيرة اظنها بنت الخادمة وهي لا تقول ذلك مخافة ان الناس يسيئون في مراتع عرضها الستهم ثم جاءت بعدها امها في زي المتعففات وفي زنارها مسبحة طويلة معانقة فاخذ فبريس يمدح تدينها ويشكر لطفها وانسها ويقول انه احب ان يجعاني في منزل القسيس خادمًا لا بقي مشمولاً بانظارها فسرّت من كلامه واعجبت بي لحسن ثيابي ونظافتها ودخلت على القسيس تعلمه بحضورنا فاذن لنا فدخلنا عليه ورايناه جالسًا في كرسي كبيرة كانها العرش وقد غاص فيها ووراءه مخدة يسند اليها ظهره وامامه صوفة كبير

يدفىء فيه رجليه فسلمنا عليه بالتجلة والاكرام ودعونا له بالعز وطول العمر وذكر له فبريس ما كان من رغبتي في ان اخدمه واني عالم فهامة قد حزت عند غوديناس حكيم اوفيادو قصب السبق كان من الضرورة ان يكون الخادم فيلسوفًا فاجابهُ القس انهُ يتخذني خادمًا في بيته تباعًا لما يشهد له بحسن سيرتي وودعنا فبريس وخرج بعد ان وعدني بان ياتي اليّ ويدلني على المواضع التي نجتمع بها فيما بعد

ثم ان الراهب اخذ يسالني عن اسمي وعن الاسباب التي الجاتني الى مبارحة الاوطان وعن غير ذلك حتى اعلمتهُ بكل توقع لي . فاطربهُ الحديث ولا سيما ما كان من مكر كاميلية التي سلبتني مالي والخاتم الماس واخذه ضحك جاءهُ بسعال كاد ان يقتله لوجود داء النقطة فيه لولا ان الخادمة تداركت الامر بان سقتهُ ماء الورد وانشقتهُ الروائح القوية ودقت على ظهرهِ بمثل ما يعتنى بالاطفال الذين يغصون بشراب او طعام حتى اذا هدأ جاشهُ سرت الى المطبخ ولبست ثياب الخدمة وودعت ثوبي في الخزانة جديدًا الايام الاعياد والمواسم واشتغلت مع الخادمة في تجهيز الطعام لما كان من ممارستي لذلك في سرداب اللصوص وحملت مائدة الى غرفة القس ووضعتها امام كرسيهِ وصففت عليها الصحاف وزجاجة الخمر وجئت بمرقٍ حقيق بان يقدم للملوك فاجترعهُ ثم قدمت اليهِ لحوم طير ثم دجاجة في صحن فاكل من ذلك كما ياكل الذئب فريسته بالنهام ولكن نصف ما ياخذهُ في الملعقة كان يقع على الارض للتجهِ وارتجاف يدهِ . ثم انهُ شرب نبيذًا كثيرًا في اناء من الفضة كانت تسقيهُ فيهِ خادمته في خلال الاكل كما يسقى الطفل الصغير حتى امتلأ جوفهُ فرفعت المائدة من امامه واسند الى كرسيهِ يغوص فيها لايجاد الراحة لجسمهِ وخرجت مع الخادمة الى المطبخ واكلنا من اكلهِ النفيس وشربنا من نبيذه المعتق

كذلك كانت حال القس في الاكل صباحهُ ومساءهُ وكنت مسرورًا من البقاء عندهُ ولا سيما من جهة الاكل الفاخر وكسب المال الكثير ولم يثقل عليّ من خدمتهِ الا السهر في الليل عليهِ لوجود داء حصر البول فيهِ فكنت اناولهُ مستعملة الليل في كل ساعة مما كان يقلقني ضجرًا ويقتلني تعبًا وانما عمل على اخفاء ما لي عنهُ من ذلك ما كان من وعدهِ اياي بالمال الكثير والاجرة العاجلة وما كنت اوملهُ في نفسي من انهُ يورثني شيئًا من خيراتهِ فكنت اجهد في ان اسره من حسن سيرتي ولا سيما بالرضوخ الى امر الخادمة التي كان يحبها كثيرًا ويفضلها على جماعة من اقاربهِ كان قد شحذهم من منزلهِ من اجل انهم تقدموا اليها في اهانة وكلام سمج

فصل
في مرض النسيس وما كتب لجلبلاس
في وصيته

قال جلبلاس وبعد مضي ثلاثة شهور نالت النسيس حمّى خبيثة طرحتهُ في فراش الموت فامرني باستدعاء طبيب يسمّى سنكرادو ويحسبهُ اهل مدينة وليد ابقراط العام وكانت تلك اول واخر ما استدعى سيدي طبيب اليهِ فجئته بهِ ورايت الخادمة حزينة النفس ضيقة الصدر لما كان من توقف النسيس عن تحرير وصيته ظنًا بان عمرهُ يطول بعد هذا المرض . ثم جلس الطبيب على كرسي بقرب النسيس واخذ يساله عن حالهِ وهما ياكل من الالوان ويشرب من النبيذ فاجابهُ العليل على ذلك كلهِ وهو يعذلهُ عن اكل لحوم الطير وشرب النبيذ لقولهِ ان الدم مادة لا طعم لها وكذلك لا ينفعها من المآكل والمشرب الا ما لا طعم لهُ واوصاهُ بان يكثر من شرب الماء ولو على كره من نفسهِ لزعمهِ انهُ يغسل الجوف ويتقيهِ من المواد الخبيثة ولا سيما ما كان فاترًا منهُ . ثم امرني باستدعاء حجام

فجئت به من دكان قريب وسأل لسيدي على محضر من الطبيب ست كاسات دم حتى اذا فرغ من عمله قال له سنكرادو انك تاتي في المساء وتفصدهُ فصادةً ملاحظة ثم تاتي في غدٍ وتفعل مثل ذلك ولا تزال مجتهدًا في اخراج الدم من بدنهِ حتى ياتيهِ الشفاء باذن الله ولا تظن ان الدم ضروري للحيوة بمثل ما يزعم جهلة الناس لان العليل لا يمارس الرياضة حتى يفتقر الى كثرة الدم وانما هو في راحةٍ وسكون ويكفيهِ شيء منهُ للبقاء في قيد الحيوة قال هذا وخرج من المنزل بعد ان اكد لي وللخادمة ان شفاء سيدنا القس قريب باذن الله

ولكني اقول واستغفر الله ان الخادمة لما عرفت ان اخر هذا العلاج موت سريع اخذت تواظب على استعمالهِ باجتهاد ووضعت على الموقد قدرًا تسخن فيها ماء حارقًا تسقي القس منهُ وامرت الحجام بمبالغة الفصادة وكثرت شيل الدم حتى اوصلتهُ الى حال من الضعف حققت بها املها من وراثة مالهِ ولحاقها بخلّ صديق لها يخدم ايضًا بعض الرهبان وينتظر وفاتهُ مثل ما تنتظر هي وفاة سيدي. وبعد ايام بينا كنت اجرعهُ الماء الفاتر اذ قال لي بصوت ضعيف ان قد اتاهُ امر الله الذي لا مردّ لهُ وامرني بان استدعي لهُ كاتبًا من رجال العدالة وهم الرجال القائمين بامر القضاة لكتابة العهود والوصيات لكي يحرّر وصيتهُ فبكيت على مشهدٍ منهُ كمثل ما يبكي الورثاء على فراش الميت الذي يترك اليهم مالاً وعقارًا وفي نفسهم سرور لانقضاء اجلهِ ثم سرت في الشوارع سيرًا دراكًا امتثل بهِ امر الخادمة التي تخوفت من ان تندفق روح سيدي قبل وصول الكاتب فيحول دون الفريض الجريد فتوفقت الى لقاء شيخ من هولاء الكتاب واعلمتهُ بخبر القس فسالني عن الطبيب الذي يداويهِ فاخبرتهُ انهُ سنكرادو مهبط الشفاء وموضع وحي الطب فتناول عصاه ولم يدعني استتم كلامي حتى صار في وسط الشارع وهو يقول وانا اركض وراءهُ ان هذا الطبيب يعجل بارسال مرضاه الى الحيوة الاخرة حتى لا يدع لهم فرصةً لاستدعاء الكتاب فرجوتهُ بان يذكّر سيدي بخدمتي وسهري في الليل الطويل فوعدني بذلك ودخل عليهِ وهو في اخر ساعة من هذه الدنيا على حين كانت الخادمة واقفة على مقربة منهُ تبكي بدموع مغتصبة بعد ان دبرت معهُ ما ارادت من الوصية. فاخلى بهِ الكاتب ساعةً ثم خرج يضحك مني ويقول ان ذكري لم يبرح من بال ذلك الليل فسررت من ذلك وحمدت النفس ووعدت نفسي بان اصلي عليهِ بعد موتهِ ولم يلبث الا قليلاً ان اندفقت روحهُ والحجام بين يديهِ يقبض عروقهُ نعوذ بالله من هذا الطب الخبيث حتى اذا اخذ عدتهُ وقبض ما يستحق لهُ من الاجرة صادفهُ الطبيب في غرفة كنت فيها والخادمة جلوسًا فسالهُ عن حالهِ فقال ان الله توفاه الى رحمتهِ فاجابهُ الطبيب كنت اتوقع حدوث هذا الامر لاني قطعت الامل من حياتهِ لاول ما رايتهُ (وكان الطبيب صادقًا في ذلك وهو لا يخطىء كلما قطع من مريض املهُ من نجاتهِ) فصرخت انا والخادمة وملانا الحي ندبًا وعويلاً وعلم اهل القس بموتهِ فاقبلوا احاد ومثنى ليرثوا مالهُ فاذا بهم قد خاب املهم وتليت عليهم وصية فقيدهم يخصص الخادمة وابنة اختها بمالهِ ويذكرني بعدهم بهذا النص «من حيث ان جابلاس فتى يحب الحكمة ويتشوق الى الاطلاع على كتب العلماء فقد وهبتهُ اوراقي وكل ما حوت خزائن كتبي ليتثقفه بها ويبلغ من الفصاحة الموضع الذي احب ان يصل اليهِ» فتعجبت من ذلك لاني ما كنت قد رايت عندهُ خزانة كتب ولا مجمعًا فسالت الوصي عن ذلك فسلم الى خمسة كتب كنت اراها على مائدة صغيرة بقرب سرير القس يبحث احدها عن المآكل وطبخها والاخر عن سوء الهضم وعلاجهِ والثلاثة الاخر كتب صلوة

قد قرضها العث وخرا اوراقها . فتركتها في المنزل لان هو احق بها من اهل الفقيد وانصرفت الى رئيس الخدمة استدل على موضع حسن اخدم فيه الاشراف وانا لا املك الا المرتب الذي عينه الناس لي مع ان الخادمة اخذت ما ملكه فضلاً عما كانت تنقله بالسر من متاع بيته ايام مرضه وتوجهه الى حبيبها ذلك الخادم الاخر

فصل

في ان جلبلاس صار طبيباً ماهراً

ولما كنت في بعض الطريق اقصد منزل شيخ الخدمة اذا بسنكرادو الطبيب قد سلم عليّ واعلمني باسمه بانه يجب ان يجعلني له معاوناً واكون لديه تلميذاً لا خادماً فوافقته على ذلك دون ان اساومه على مبلغ الاجرة لامال في نفسي من اني اصير طبيباً ماهراً تحت يده وكان اول علمي عنده ان اقيد اسماء المرضى الذين يستدعونه اليهم في سجل يحق ان يسمى سجل الاموات بمعنى ان كل من قيدت فيه اسمه قتله هذا الطبيب لا محالة وبقيت على ذلك زمناً لم اشكو فيه الا من الطعام الذي لم يتغير على مائدته من الفول والحمص والبطاطا والجبن الطري ولم يكن ذلك عن ضيق ذات يده وانما زعم بانها كثيرة الغذاء سهلة الهضم سريعة الهضم . حتى اذا لم يمض عليّ اسبوع كامل وهت قواي من قلة اكل اللحم والاكثار من شرب الماء الذي كان يامرني بشربه لقوله انه يسهل دوران الدم ويعدل نمو الجسم وحركته . فشكوت اليه ضعفي وما كان من انحطاط قواي فنسب ذلك الى اقلالي من شرب الماء وتقدم اليّ ان امزجه بقليل من ماء الورد او ماء الخشخاش اذا لم يطلبه نفسي دون مزيج ففعلت ذلك ولم اكن الا لازداد في ضعف القوى انحطاطاً . فتخوفت من ان يأتي مرض اثر هذا الضعف ونويت على ان اترك الطب واستاذه . واذا به قد اخلى لي في بعض الايام وقال لتعلم يا جلبلاس ان مودتك قد وقعت في قلبي واني اريد ان اكافئك على صداقة خدمتك بتعليمك فن الاطباء على اقصر اسلوب واصحه دون حاجة الى تبيان مذاهبه الكثيرة ودراسة علم الحيوان والكيمياء والجراحة والصيدلة مما يرتبك به عقلك . وانما اطلعك على تجربتي وخلاصة مرائي وممارستي (ولقد قيل سل مجرباً ولا تسل حكيماً) فما الطب خلاصة الا ما امارسه الان من فصادة المرضى وسقايتهم الماء وهو اصح علاج وانفعه للجسم ولكن الاطباء لا يمارسونه لان الله لم يخصهم من العقل الكثير ما منح نجيك سنكرادو فعجبت من كلامه على حين رايت الطب منحصراً في هذا العلاج ثم لم يلبث ان قال لي لقد اصبحت الان تلميذاً الي فانت تزور بيوت العامة وانا اهود بيوتات الامراء والله يهب الناس صحتهم على يدك . فشكرت فضله على هذا العلم الذي علمني ببضع دقائق واخذت اعمل فيه وقد عدت عليلين امرت الحجام بفصدهما بلا رحمة والاهل بسقايتهما الماء وقبضت لذلك بضعة دراهم انفقت شيئاً منها في الخمارة مع فريس (وقد سرّ من علمي وعملي ولاسيما لما كان من عياذتي القوم الصعاليك الذين لا ينتبه لهم احد من الناس اذا قتلتهم جهلاً) ودفعت ما بقي الى صاحبي فقاسمني عليه بان اخذ الثلثين ودفع اليّ الثلث واعلمني بان قسمتنا تكون كذلك في القابل ودعا الى الله ان يكثر المرض ليملىء جيبه من المال والعياذ بالله من الاطباء الذين يتجرون بالارواح مثل ما يتجر الناس بالبضاعات

ولما كان من الغد سرت الى بيوت المرضى الذين قيدت في السجل اسمائهم واخذت اداويهم بالفصادة وشرب الماء على اختلاف ادوائهم وتباعد اشكالها حتى دخلت منزل مريض قد أصيب بداء الاستسقاء فالفيت عنده طبيباً ما زال ينظر اليّ بعين مدققة الى ان سألني عن اسمي فاجبته اني جئت حديثاً

الى مدينة وليد لادرس الطب على سنكرادو الطبيب الماهر فهنأني بذلك واثنى على مبدإ استاذي . (ولا اعلم اذا كان يقصد الهزل ام الجدّ في كلامهِ) وكان ابو المريضِ واقفًا فقال من اليقين ان كلاكما طبيب ماهر فداويا بنيّ ومرا له بالعلاج فاخذ الطبيب يجسُّ نبض المريض ويشرح لي عن شدة مرضهِ ويفسر اشياء واسماء لم اسمع بها ولم افهمها الى ان سالني عن العلاج الضروري فقلت همّ نقصدهُ ونسقيهِ الماء دفعات متلاحقة فضحك استهزاء وقال اتظن ان هذا العلاج يقي من الموت من قد استسقى فقلت نعم وعندي ان المريض لا يشفى الا بهِ وكذلك سنكرادو ابقراطنا على هذا القول فقال لا اعتبر قولك ولا قول صاحبك بشيء وقد قالت الاطباء الأول ان يبقى المستسقى جوعان عطشان فقلت ربّ طبيب قديم اخطا رائهُ واليوم يوم ليس كالايام فقال يذهلني على حداثة سنك ان اراك متبعًا مذهب شيخ خرفان فقلت ليس كذلك وحقِ الطب واخالك قد قتلت اناسًا كثيرين اذ لم تقصدهم ولم تعطهم الماء يستقون فشمخ بانفهِ كبرًا وقال رايتك ايها الفتى تظن بي منكرًا ولكن لتعلم اني لا اخافك ولا اخاف صاحبك فتاثرت من كلامهِ لما يلحقني ويلحق سيدي من الاهانة واجبتهُ جوابًا قاسيًا فاجابني جوابًا اقسى منهُ فقمت اليهِ وضربتهُ على وجههِ بكفي ففعل مثل ذلك فتقاتلنا وتماسكنا بشعورنا وكدنا نفع فوق المريض لولا ان اهلهُ تداركونا بان ابعدوا كل احدنا عن الاخر ودفعوا لي اجرتي وقد تبينوا في خصمي علما حقيقيًا في الطب فابقوهُ لديهم يداوي مريضهم

ثم اني سرت الى منزل مخنٍ قيدت في السجل اسمهُ وكانت بهِ حمى متقلبة فامرت اهلهُ بان يسقوهُ ماء فاترًا . فلما سمع ذلك انتفض من فراشهِ كالمجنون وزئر كالاسد المفترس وهجم عليّ ليرميني من الشباك فهربت من وجههِ وحلفت بان لا اعود مريضًا في ذلك اليوم المخوس وتقدمت الى بعض النباذين ان يسقيني اقداحًا من النبيذ فتملت عندهُ وعدت الى المنزل يقلب عليّ السكر واخبرت سيدي بما كان من امر الطبيب الذي هزأ بعلاجنا فضحك من صغر عقلهِ وسرد كلامًا طويلاً في فضل الماء ومنافعهِ وانا اشرب منهُ على المائدة شربًا كثيرًا كان يظن في نفسهِ اني اشربهُ تباعًا لمشوراتهِ ونصائحهِ وليس كذلك وانما كان جوفي يحترق من تأثير الخمرة فكانت تانيبي تهيّجات للضحك وانا امنع نفسي منها خوف الفضيحة

فصل
في قصة الخاتم المسروق

وفي غد اليوم بينا كنت منصرفًا من منزل شاعر قد عالجتهُ بالفصادة وشرب الماء بلا رحمة ولا شفقة اذا بعجوز تطلبني الى عيادة ابنة في منزل تقصدهُ الشبان وهي تزعم انها ابنة اختها فدخلت عليها وخطر في بالي كاني اعرفها من قبل فتاملتها واذا هي المراة التي سلبتني مالي والخاتم فاضطربت عند ذلك اضطرابًا لم تفطن المكارة لهُ لاحد سببين اما من كوني مرتديًا بلباس الاطباء واما لاشتداد المرض الذي لم يدعها تفطن لشيء فلما اخذت يدها لجس النبض وجدت خاتمي في بعض اصابعها فحدثتني نفسي بان انزعهُ منهُ ثم عدلت عن ذلك مخافة ان تلمّ الحي صياحًا فياتي اليّ انصارها ويوجعوني ضربًا . فوقع اختياري على مشاورة فيريس فيما اعمل لاسترجاع خاتمي وتقدمت الى العجوز ان تاتي بحجام يفصد العليلة وتجرعها ماء سخنًا يعرّقها ويخلف عنها الالم وانصرفت قاصدًا موضع فيريس حتى اذا كدت ان اصل اليهِ وجدتهُ خارجًا منهُ في رسالة من ادن سيدهِ فاعلمتهُ بالخبر واطلعتهُ على ما عزمت عليهِ من الشكاية الى الشرطة فحذرني من ذلك مخافة ان لا يصل الي بدي شيء مما يسترجعونهُ من كاميلية

واشار الي بان انتظره في بعض الخمارات حتى اذا جن الليل وقد مللت الانتظار وافاني بار بعة من الخدم الذين يعرفهم وقد البسهم لباس الشرطة ووضع لهم ذقونًا مصنوعة ليغمى على العجوز وابنة اختها امرنا في هذه الليلة . فشربنا اقداحًا في تلك الخمارة ثم سرنا الى موضع كاميلية ودخلت اليها في مقدمة ارفاقي وفي يدي شمعدان من الفضة تناولته من يد العجوز واريتها وجهي على ضوءه وقلت انظريني ايتها المكارة واعلمي باني جئت بالشرطة ايرجعوا الي ما اخذتيه مني في الفندق لاول وصولي الى هذه المدينة فلما سمعت كلامي اخذتها رجفة من الخوف وانطرحت بين اقدام فبريس تطلب اليه العفو وقد سلمت اليه خاتمي دون الالفي درهم لزعمها ان روفائيل الذي واطئها في تلك الليلة على النفاق والغش هرب دون ان يعطيها درهمًا واحدًا منها . فلم يحلم بها فبريس واعلمها بانه جاء يحملها الى السجن مع العجوز ليستكشف على بعض امور وصلت اليه تهمتهن فيها فبكتا وارتمتا على الارض تطلبان العفو مني فرق لهما قلبي ورجوت فبريس في ان يفرج عنهما فاجابني بصوت ضخم اني وان كنت قد استوفيت حقي او بعضه ولكن الشريعة لم تستوف شيئًا منه فدنوت من كاميلية ونصحت لها بان تعطي رئيس الشرطة وهو فبريس هدية ليترفق بها فهتفت به على الفور ان عندي عندًا ثمينًا من اللؤلؤ وحلق اذان منه ايضًا اهديكها لترحمني وتسترعني عيوبي فقال لها فبريس والله ان كان هذا اللؤلؤ قد ارسلهُ لك خالك من الهند كما كان من ارساله اليك الخاتم الذي اعطيتهُ لجلبلاس فاني ارفض قبوله فحلفت واقسمت انهُ لؤلؤ سني منزه عن الغش وسلمتهُ اليه راجيةً منهُ العفو فاخذهُ ووضعهُ في جيبهِ بعد ان فحصهُ وطلب اليها ان تعطيهِ الشمعدان الفضة ايضًا ففعلت ذلك على غصص في قلبها وانصرف ونحن معهُ بعد ان جاءنا بان القاضي يعفو عنهما ولا يوجه اليهما من يقبض عليهما لخلقيا في السجن

وبعد ان اتممنا حيلتنا على هذا الشكل الذي حقق املنا بالنجاح عطفنا الى خمارة نقضي الليل فيها بشرب وانشراح صدر وحتى اذا ما طلع النهار بعنا هذه الحلى من بعض الصاغة واقتسمنا الثمن فيما بيننا فجلسنا الى مائدة مدت عليها الوان من الطعام واكلنا اكلاً مليحًا وشربنا خمرًا كثيرًا ونحن لاهين فرحين ومتحدثين بنوادر وفكاهات واذا برجل عظيم الجثة قد دخل علينا يتبعهُ ثلاثة من الشرطة ثم ثلاثة ثم ثلاثة اُخر حتى اجتمع اثني عشر رجل منهم وراءهُ ولم يلبث ان اعلمنا بانهُ هو رئيس الشرطة الحقيقي وان العجوز التي سلبناها وكاميليا مالها خامرها ريب في امرها فتتبعت اثرنا وسمعت ما كان من حديثنا في الخمارة فذهبت اليهِ حتى يلقي القبض علينا فرجتنا من كلامهِ وشكونا اليهِ ظلم المراة المكارة وانها سلبتنا خاتمًا والفي درهم واننا ذهبنا اليها بتلك الحيلة لنرجع مالنا لنا فاحمرت عيناهُ من الغضب وخوفنا سوء المصير ونوعدنا بالضرب الكثير لما كان من اخلافنا احكام الشريعة فترامينا على رجليهِ وسلمنا اليهِ الحلي والشمعدان والخاتم وطلبنا اليهِ الصفح عنا دون ان يرق قلبهُ علينا فحملنا الى السجن وفتش ثيابنا وسلبني خاتم الياقوت المغشوش الذي اخذتهُ من كاميلية وبضعة دراهم كسبتها من صناعة الطب وارقيت مع اصحابي على العشب اليابس يئسين من السلامة وخائفين من ان نرسل الى حبس الظلمات

فصل

في انقطاع جلبلاس عن عيادة المرضى وانزاحهِ عن مدينة وليد

واتفق بعد ايام ان علم سيد فبريس بما كان من امرنا فرجا الوالي بان يفرج عنا وقد كانت لهُ مكانة عندهُ عظيمة فنجح مسعاه واطلق سبيلنا على حجة فبريس

لانهُ لم يكن من العدل ان يطلق سبيل الواحد دون الآخر وكلنا مشترك في تلك الحيلة التي ساءت مصيرًا . فلما دخلت على استاذي سرَّ لرجوعي كثيرًا واعلمني بانهُ كان مزمعًا على مواجهة رئيس الشرطة ليشفع فيَّ لديهِ وامرني بان اعود الى بصناعة الطب فامتثلت امرهُ لمكاني من الحاجة الى المال وكان يوفقني الحظ الى ان اعود عشرة مرضى في اليوم الواحد لكثرة سريان الجدري والحمى بمثل ما تنبأ استاذي وكان هو يزور قدر ذلك من المرضى من اهل البيوتات غير ان علاجنا المعهود من الفصادة وشرب الماء لم يكن يشفي عليلاً واحدًا ولست اعلم اكانت امراضهم لا تقبل الشفاء او كان علاجنا يعمل على قتلهم . وانما الذي رايتهُ أنا إنا ما كنا نضطر الى عيادة مريض عيادة ثالثة اذ كنا نوافيهِ في العيادة الثانية منازعًا او نسمع من اهلهِ انهُ مات ووارو التراب فشكوت ذلك الى سيدي لجزع خامر نفسي من مشاهدة القتل الذريع فوجم قليلاً ثم شكا اليَّ ما شكوت اليهِ من ان المرضى يموتون من علاجهِ فاشرت اليهِ بان يغير هذا العلاج لعل الله يجعل فيهِ صلاح الامة فاجاب ان ذلك يجلب لهُ العار بعد اذ كتب في فضل الماء والفصادة رسائل انتشرت بين العلماء بان فضلها على سائر العلاجات فقلت لهُ ياسيدي لذهاب الشعب كلهُ فداء علمك احب اليَّ من ذهاب اعتبارك بين الناس في تغيير هذا العلاج فتفكر في ذلك ودمنا على تلك الحالة من المداواة بالفصادة وشرب الماء مدة شهر وايام بضعة حتى كثرة الارامل والايتام بمثل ما كان في مصر لايام فرعون بعد ان غرقهُ الله وقومهُ في البحر القلزم وظهر كانَّ في مدينة وليد وباء يجترف الناس بقدر ما كانت الجنازات والنعوش كثيرة في كل شيء من الطرق . وكان يهجم علينا بعض اباء قتلنا اولادهم ويتطاولون علينا بالشتيمة والاهانة وهو الصنف الواحد الذي كنا نتخوف منهُ لان الاولاد الذين قتلنا اباءهم او الرجال الذين قتلنا نساءهم لم نرَ منهم الا اللطيف والامتنان كانا خدمناهم خدمةً ارضيناهم بها جميعًا . وبقي الطب عملي حتى كنت اداوي امرأة غنية في بعض الايام ولم يقدم الله شفاءها على يدي فطلبني خطيبها الى القتال وكان من ابطال الجيش فانهزمت من وجههِ وانفصلت عن مدينة وليد دون ان اودع بها احدًا من الاصحاب مخافة ان التقي بهِ في بعض الطرق فيمزق صدري بخنجرهِ لتعطل امالهِ من الزيجة بتلك المرأة المؤسرة . وكان انفصالي عن مدينة وليد مانعًا لممارسة الطب فشكرت الله على ذلك وطلبت اليهِ العفو عن مراني لهُ . وكان في جيبي بعض دراهم كسبتها من عيادتي للمرضى فشبهت نفسي وانا حاصل عليها بالمراة الفاجرة او المغنية المخنثة التي تتوب عن الفحشاء ثم تتنعم بالمال الذي كسبتهُ بالعار والاثم من قبل توبتها وانابتها الى الله تعالى

ولما صرت في بعض الطريق وقد وقفت الى غدير لاستريح من التعب اذا بفتى يقبل من جهة المدينة وهو يغني وفي يدهِ عود فتفرستهُ واذا هو من بعض الغلمان الذين البسهم قبريس لباس الشرطة وطلس بهم واياي في السجن . فلما عرفني سرَّ كثيرًا من لقياي وجلس اليَّ واخرج من جرابهِ بعض ارغفة وقطع جبن ونبيذًا حملهُ في زجاجة فاكلنا وتحادثنا معًا وقد عزم عليَّ ان اعلمهُ بما توقع لي فاجبت مسئولهُ ورجوتهُ بان يسرد اليَّ حديثهُ فلباني بذلك بعد تمنعهِ عنهُ لقولهِ ان كل ما توقع لهُ لا يستحق الذكر . وكان من حديثهِ اليَّ ما انقلهُ في الفصل الآتي

فصل في قصة الغلام الحلاق

حدثني هذا الغلام ان جدهُ كان مزينًا في بعض القرى وان اباهُ بدأ يعلمهُ هذه المهنة منذ نعومة اظفارهِ حتى بلغ خمس عشرة سنة فاسلم اليهِ جرابًا فيهِ موسى

وصابونة ونفحه ببعض دراهم وامره بان يضرب الافاق ويذهب متجولاً في الاندلس قال فخرجت من الاوطان اسير من بلد الى بلد وانزل في خانات حقيرة يمد لي فيها اسرة ضيقة قذرة من خواصها ان تزيل النعاس لا ان تاتي به الى الراقد فيها حتى وفق الله ان وصلت الى مدريد واستعملني حلاق هناك في خدمته فاتفق في بعض الايام ان جاء اثنان من اللاعبين وتحاوروا عن الشعراء وذكرا في جملتهم عمّاً لي في المدينة واجمعا على الثناء عليه واطنبا في وصف محامده وعظم ثروته من هدايا الامراء اليه فعزمت على المسير اليه واعلمت سيدي الحلاق بذلك فاذن لي فسرت في الشوارع والازقة حتى اهتديت الى دار يسكنها بعض الامراء معاً فاستاذنت حاجبه فلم ياذن لي بحجة ان سيده يشغله نظم الشعر فكررت الطلب اليه بقولي ان لديّ انباء افيده عن اقاربه فلم يلبّ طلبي وقال اني لو كنت رسول البابا نفسه لما اذن لي بالدخول عليه في تلك الساعة فغبت قليلاً ثم عدت على حين جلس مجلسه العام فدخلت عليه واندهشت عند رؤيته لما كان من مماثلته عمي الاخر في الخلقة واخذت اقص عليه سيرتي وهو غائص في بحر الافكار وعلى وجهه سمات ذل ناله من مرآي ممارساً لمهنة الحلاقين حتى اذا كنت في بعض كلامي وقد اخذت في ذكر اسماء الاقارب وما ولدوا وهو لا يظهر اهتماماً بذلك كانه فقد حب الآل والعياذ بالله جعل ينضج لي ان افارق مدريد واذهب الى مدينة غيرها لاتفسد فيها الضمائر ثم وثب عليّ ودفعني من كتفي وقفل الباب دوني فتالمت لخيبة املي من حسن اقباله عليّ وبقيت يومين افكر بهذا الامر حتى فتق لي عقلي ان اذهب اليه مرة ثانية لعل الله يرقق قلبه عليّ فيتقدم الى بعض الامراء من اصحابه ان يتخذني له خادماً . فلما رآني في داره احمرت عيناه ونهرني بصوت نافض وتناول عصاه وهمّ عليها بها فهربت من وجهه حزيناً اسفاً وقد عاهدت نفسي بان لا ازور عمّاً لا اكسب منه الا الاهانة والعار واخذت امارس الحلاقة بجد واجتهاد حتى بلغت الغاية من المهارة بها

قال واتفق بعد ذلك ان كان يتردد الى حانوتنا شيخ خادم عند طبيب معمر وله صناعة حسنة في الغناء فاعلمني في بعض الايام انه يروم ان يعلمني ضرب العود فلم امتنع من ذلك وصرت اذهب الى منزل سيده في كل عشية واجلس واياه على مصطبة الباب ونغني اصواتاً رقيقة ونضرب على العود ضرباً محكماً كان يسرّ اهل الحيرة من سماعها ولا سيما امراة الطبيب التي كان يخدم معلمي زوجها فكانت تنزل الى دهليز الباب وتسمع مغنانا ونقترح علينا في اكثر الاوقات ان نغنيها اصواتاً تلذ بسماعها ويرتاح اليها قلبها دون ان يمانعها زوجها الطبيب بذلك كان الله لم يركب فيه الغيرة التي فطر عليها اهل الاندلس جميعاً . فلما كان بعض العشيات وقد جئت المصطبة كالعادة اذا بمعلمي المغني قد اخذني الى طريق غير مطروقة وساق اليّ حديثاً طويلاً يعلمني به عن سوء ما صار اليه امر ضربنا على العود في كل ليلة ويقول فيه انه لما خدم الطبيب في العام البارح راى في امراته من التيه والدلال ما كان يحملها على لوم كل فنّ كان يتغنى بحامدها وما زالت هذه الغزالة الناعبة كبرّا تتجافى عن الناس وانا انصح لها بان تبدل طباعها وترفقها دون الحصول على مرام حتى بدأت ان اعلمك ضرب العود فلان قلبها وصارت تعتبر الناس وتساعرهم وتحب ان تسمع منهم مديحاً لها كغولهم انت زينة النساء او انت ارق من النسيم محاسن او انت قد افرغت في قالب الجمال الى غير ذلك من الاوصاف التي كانت تتأنى لي قديماً سماعها وليس هذا كل العجب وانما الغريب انك انت الذي كنت سبباً لهذا التغيير وقد ظهر

لي انها مغرمة بك كلفة بحبك وهذه هي الحال المخطوفة التي رمت ان اعلمك بها. فتعجبت من كلامهِ عجبًا يخالطهُ السرور من غرام سيدته بي وطلبت اليهِ ان يعلمني عن الخطر الذي يحيق بنا من جرى ذلك فقال ان سيدتهُ قد بلغ وجدها بي مبلغًا لاسبيل لها الى كتمانهِ في صدرها وانهُ اذا علم زوجها بذلك فينهال علينا غضبهُ فقلت اذًا ما السبيل الى التخلص من سوء العقبى فقال ارى ان لاتغني بعد على مصطبة الباب وانما انا اذهب اليك واعلمك الغناء في منزل سيدك الحلاق فوافقت على رايهِ وانا متعجب من هذه القصة كاني بي قد خلقت فتنةً للعابدين

واما امراة الطبيب فلما لم ترني قد جئت ازداد وجدها وغرامها وطلبت الى خادمها ان يعلمها عن موضعي فاجابها ان لدي شغلاً يعيقني عن المجيء اليهِ وقد قصد بهذه المحاولة ان يلهيها عن التفطن بي فلما كان بعد ايام وقد ضاق صبرها عن الانتظار الطويل وقلبها يحدثها ان من بعادي عنها الاَّ مرّ امفتعلاً امرت خادمها بان يزيح ستار الخفاء عن امري فقال لها محاولاً لتعلمي ياسيدتي ان لما كان يبقى صاحبي في حضرتنا الى جزء من الليل ثم يذهب الى منزل سيدهِ ولا يرى طعامًا باقيًا لهُ اضناهُ الجوع وكفَّ عن المجيء اليَّ فقالت خسرًا لك يا رجل لمَ لم تعلمني قديمًا بذلك حتى كنت اطعمهُ واسقيهِ ولكن اذهب الان اليهِ واقرئهُ السلام وقل لهُ ان عندي طعامًا اطعمهُ في كل ليلةٍ فتعجب الخادم من تغيير طباعها وقال سبحان الله منذ متى بدأت تتعطفين على الانام ياسيدتي فقالت ما زالت نصيحتك لي في تبديل مجافاتي من الرقة والحنو مترددةً في خاطري حتى جلست الى هذا الفتى فاعجبت بهِ ووقع عشقهُ في قلبي وانا ارَ اني ازداد بهِ وجدًا كلما نأى عني فاظهر الخادم انهُ غافل عن ذلك وقال لم اتعجب ياسيدتي الا من كونك عشقتِ فتىً ليس بجميل الصورة ولا هو من اولاد الشرف والنعيم فقالت كذلك النساء تختلف امیالهن ومذاهبهنَّ وما العشق الا انقياد يعمي القلب و يسوقهُ الى التعلق بامر لايقوى على الدفاع عن شره فقف بالله عن ملامك على عشقي هذا الفتى وكفى بحبهِ اني اجد فيهِ الف محمدة ماثورة وقد قيل

وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلة
كما ان عين السخط تبدي المساويا

ولما راى الخادم ان سيدتهُ لاتنفك عن الوجد والصبابة بي على مكاني من الفاقة واعواز المال وعرف منها ان ليس في الحب من تفاوت في المقام راى من السداد ان يمتثل امرها ويخضع لها مثل ما يخضع الربان للنوء ويكف عن مقاومتهِ ساعة براهُ غالبًا عليهِ فجاء اليَّ واطلعني على الذي وقع بينهُ وبينها فسررت من ذلك ووعدتهُ باني امضي اليها في العشاء واخذت لوقتي في تسريح شعري وتزيين صورتي واحكام ثيابي عليَّ وتمسكت وتطيبت من حانوت سيدي الحلاق حتى خيم الظلام فنزلت الى الشارع وسلكت ازقة ضيقة لاضياءَ بها بقصد ان اصل الى منزل معشوقتي باقرب وقت واذا بشباك قد فتح ورمى صاحبهُ باوساخ واقذار مبتلة كطين الوحل تنبعث منها روائح كريهة وقد تواقعت على راسي وكتفيَّ واصابتني اصابة ليس في الامكان احكم منها بحيث انها لم يتناثر منها شيءٌ على الارض فتكدرت من ذلك ووقعت في حيرة شديدة بين امرين فاما ان انكص على الاعقاب واما ان اكمل طريقي الى محبوبتي فاما الاول منهما فلم تطاوعني نفسي اليهِ مخافة ان يهزأ بي خدمة الحلاق واما اقدامي على معشوقتي فكانت تهزني اليهِ اشواق مبرّحة على علمٍ بانها ترحم لي دون شفقة واستهزاء فسرت اليها والفيت خادمها معلمي على الباب وقد ظنني ان سيدهُ قد نام فسررت لذلك وبدأت اعلمهُ بما توقع لي في الطريق واذا بنا قد صرنا بحضرة سيدته فلما راتني بتلك الحال

اخذت نسب من تجاسر على هذا الفعل المكروه وهي تحتد وتخرّق فقال لها خادمها لاتبتئسي باسيدتي فانما وقع ذلك على غير عمد لان الليلة حالكة الجلباب ولا سبيل للاعين ان ترى عابر الطريق فصاحت به كيف لا انكدر مما صنعوا بهذه النجعة الوديعة . ولكن ياليتني كنت رجلاً حتى اخذ الان بثاره ثم وثبت عليّ وسارت بي الى مقصورة لطيفة وخلعت عليّ كسوةً نظيفة وبخرت ثيابي واحضرت لي سفرة طعام ومدام حتى اذا اكلت وامتلأت تناولت عودًا احضرته لي وضربت عليه انغامًا رقيقة محكمة الايقاع متوازنة النغمات يزيدني تغنّيًا بها وجود المحبوب لديّ وانا في خلال ذلك انظر اليها من طرف عيني الاخر كاني عاشق ولهان فلما انست ذلك مني لم تفطن لذهاب الوقت وبقيت الى جانبي حتى انقضى هدء طويل من الليل فانتبه زوجها من نومه مذعورًا لتتابع اصوات الاستغاثة من امرأته وقام يوسوس في عقله شيطان الغيرة الذي لم يتراءَ له قبل ذلك وصاح بخادمه يوبخه على ما كان من جلوسي اليه لآخر الليل فما كاد ينطق بهذا الكلام ان بادرتُ الى الباب عاجلاً مخافةً ان تنزل عليّ ضرباته وقد تحول صفو امالي من وصال معشوقتي الى ليل شديد السواد وظننت انها لاتعود الى طلبي بعد ذلك . فلما كان بعد ايام وقد اقصرت عن المجيء الى المصطبة بمثل عادتي الاولى بلغ الغرام بها مبلغًا شديدًا وتواقعت على خادمها بالرجاء بان يعمل على اجتماعها بي سرًا فلم يحقق مسئولها في بادئ الامر وقد ابدى اليها انه لايخون سيدهُ ولا يعرّض عرضها للسفاهة ولا يسفه نفسه بهذا العمل المنكر ولكن انفصاله عن الخدمة احب اليه من الاتيان بمثل ذلك فبكت بكاء شديدًا وصاحت به افلا تستحيي من ابتعادك عن خدمتي وقد لينت قلبي على حين كان قاسيًا فاما ارجعت الى جفائي القديم واما اعملت على تعزيتي وسلواني فاني قتيلة عشق هذا الفتى وانشدت وهي تبكي

يامن راى قبلي قتيلاً بكى
من شدة الوجد على القاتل

ثم اشتد بكاها حتى كادت تختنق وجدًا واسى فرق قلب الخادم عليها وفرّج عنها روعها ووعدها بان يدبر حيلة تمكنهُ من اجتماعها بي في مجلس واحد ثم جاء اليّ واعلمني بما كان من حديثه معها وقال لي انهُ يدبر الحيلة في منتصف النهار ثم يعلمني بها في العشاء حتى امضي الى سيدته فشكرت لطفهُ لذلك وقعدت اعلل نفسي بالامال الى بعد الزوال واذا بخادم صيدلي قد جاء يحلق لحيتهُ في حانوتنا وقال لي بينما كنت اغسل بالصابون راسهُ أَلك عند خادم الطبيب مال فقلت لم تسالني عن ذلك فقال لان سيدهُ طردهُ الان من خدمته فقلت ومن اين لك ذلك فقال من الطبيب نفسه فقلت وكيف ذلك قال لانهُ جاء في هذا الصباح الى حانوت سيدي الصيدلاني ورجاه بان يدبر لهُ خادمة لامرأته عوض خادمه الشيخ لخيانة بينها فيه فقلت انتصد الجد الكامل بهذا الكلام قال اي والله وقد وعدهُ سيدي بان يوجه اليه بقهرمانة امينة خدمت امرأته من قبل موتها وحفظتها صونها في قولهِ من كل سوء وفضيحة قال هذا وخرج من حانوتنا الى موضعه فما كان بعد قليل الا ان جاء معلمي الشيخ وافصح لي عن سروره من انفصاله عن خدمة الطبيب لخلاصه من شر المسئولية واخذ يسليني على فقد نعيمي وهنائي ويصغر في عينيّ قدرهُ حتى هوّن عليّ امرهُ وبت قاطع الامل من مراى معشوقتي والاجتماع بها لوجود تلك القهرمانة الامينة في منزلها

فلما كان بعد ذلك وقد خرجت من حانوت الحلاق عشية اذا بعجوز قد اعترضتني في الطريق وسلمت عليّ بوقارٍ واعلمتني انها رسول من لدن

قهرمانة الطبيب وجهتها في طلبي وامرتها بان تتفق معي على صوت من الاصوات اصونهُ على مقربة من منزلها فتفتح لي الباب فسررت من هذا الاتفاق العجيب وقلت في نفسي طيب الله اخرهذه القهرمانة اذا كانت حفظت عهود الصيدلاني كما تحفظ اليوم عهود الطبيب ثم اشرت الى العجوز اني اذهب من تحت الليل وانقلد نواء الهر على مقربة من الباب فوافقتني على ذلك وابتعدت عني وهي تقول بالينتني كنت فتاةً صغيرة لكنت جئت اطلبك لنفسي لا لغيري. فلما قرب الوقت الذي ظننت ان الطبيب يكون راقدًا فيهِ ومضيت الى الميعاد واخذت انوّي مثل النطّ فجاءت معشوقتي وفتحت الباب وسارت بي الى تلك المقصورة التي جلست فيها اليها لآخر ملتقى وساقت اليَّ حديثًا عن غرامها وعما قاسته في الايام التي كنت بعيدًا عنها واخبرتني عن القهرمانة التي دبرت هذه الحيلة لاجتماعي بها وقالت انها كانت تفعل مثل ذلك مع امراة الصيدلاني فتاتي باحبابها اليها دون ان يدري احد من الناس بذلك وتوجه العجوز التي وجهتها اليَّ برسائل من لدن سيدتها فهي بلاغة لها قوادة كما قال الشاعر

كانت اذا هجر المحب حبيبهُ
دبت لهُ في السرّ والاعلانِ
حتى يلين لما تريد قيادهُ
ويصير سيّئهُ الى الاحسانِ

ثم اني لاعبت معشوقتي زمنًا وانا لا ارى هذه القهرمانة فسالتها عنها فقالت انها راقدة في سرير زوجها موضعها فانكمشت فزعًا لذلك وقصدت ان اغتنم الفرصة لانعم بوصالها الهني واذا بطارق يدق الباب وهناك ضجة وضوضاء فاشارت اليَّ محبوبتي بان اختبئ تحت مائدة واطفأت سراج المقصورة وسارت الى مقصورة زوجها ووقفت وراء الباب كما كان اتفاقها مع القهرمانة ثم ان الضجة اخذت ترتفع من طرق الباب حتى افاق الطبيب وصاح بالقهرمانة ان ترى الخبر وهو يظن انها في المقصورة الاخرى فوثبت القهرمانة من سريره وقد ماتعها في بادىء الامر عن ذلك لظنهِ انها امراتهُ حتى اذا وصلت الى الباب صاحت بها سيدتها من ورائهِ بان تفتح الباب لمن قرعهُ ثم اقبلت على زوجها ورقدت بجانبهِ في السرير وقد اقبل يعاتبها لقيامها الى خارج المقصورة في هذا البرد الشديد لظنهِ بانها هي التي كانت راقدة بجانبهِ في اول الليل. ثم رجعت القهرمانة واعلمت الطبيب ان جاره الورّاق قد اصيب بداء السكتة فلبس ثيابهُ على عجل وسار اليهِ وطلعت اليَّ سيدتي وقهرمانتها وقد اعلمتاني بالحيلة التي دبرتاها من تحت الليل ليخفيا امرهما على الطبيب واخذت معشوقتي بان تجدد معي حديث الغرام فعدلتها قهرمانتها عن ذلك بقولها لها ان ليس فيَّ عزم بعد الهول الذي اراعني وان زوجها ربما وجد الوراق ميتًا فيعود الينا سريعًا ولكن الرأي لديها ان اعود في غد اليوم الى جلوسي اليها فوافقتْ على ذلك وانصرفت من حضرتها ودخلت فراشي مفكرًا بهذا الامر الليل كلهُ ومسرورًا من تخلصي من خطر البوار والفضيحة حتى طلع النهار وقد اراني ابليس صورة معشوقتي بجمال فتان وعظم في عيني النعيم الذي اهنأ بهِ من وصالها حتى عمدت على الذهاب اليها من تحت الليل فلما صرت على مقربة من الباب وقد كان الظلام مسودًا حالكًا اخذتها ان انوّي مثل النطّ مرات كثيرة دون ان تفطن المرأتان لذلك واذا بعابر طريق يمرّ من هناك وقد ازعجهُ صوت النواء لظنهِ ان قطططًا قد اجتمعت في طرف الطريق فتناول حجرًا ورماني بهِ عن ساعد قوي فاصاب راسي واسال دمي على خدي فوقعت على الارض مدوخًا من شدة الالم ولعنتُ الخلاعة والتخنيث الف لعنة ورايت نفسي قد ضاع عشقها بضياع دمي. ثم حملت نفسي جرًّا على

الارض الى منزل سيدي الحلاق فداواني عشرين يومًا حتى ابرأ علتي وانا لا اسمع عن معشوقتي خبرًا غير اني ظننت ان قهرمانتها كانت تاتيها باحباب غيري مثل ما كانت تاتي بهم الى امراة الصيدلاني وبقيت في مدريد اياما بعد ذلك ثم انفصلت عنها واكملت تجولي في البلاد الى عشر سنين

فصل

في نزول جلبلاس ضيفًا على الغلام الحلاق

قال جلبلاس ثم ان الغلام الحلاق ذكر لي حوادث غير هذه اتفقت له بعدها مما لا ارى حاجةً الى سردها في هذا الكتاب حتى وصلنا في بعض الطريق الى موضع له في اشجار فوقفنا اليه والتقينا برجل من اللاعبين في المراسح يبال كسرات خبز في عين الماء فتعرفناهُ واخذ يحدثنا عن نكت اللاعبين ونوادرهم مدى الطريق الى ميادس واقمنا معهُ قطعة من النهار وسرنا بعد ذلك حتى صرنا على مطلٍّ من بلد المادق فاهتش رفيقي لرؤيتهِ طربًا وهو يقول انهُ مسقط راسهِ ومنبت شعيرته فقلت لهُ ولكنك اخبرتني ياصاح ان موطنك قرية حقيرة وانا ارى هذا البلد ضخمًا كثير العمران فقال صدقت فيما نطقت ولكني بعد ان تجولت في مدريد وطليطلة وسرقسطة واشبيلية فاني ارى كل بلد دونها في الخامة ضيعةً حقيرة . ثم سرنا قليلاً واذا بخيام ثلاث قد نصبت في ارباض البلد ومدت فيها سفر طعام ومدام وتفوح منها رائحة الالوان النفيسة وعلى مقربة منها ملعب اقيم من الخشب ليشخص اللاعبون عليهِ ادوارهم وفي صدره رتك قد اتخذت عليهِ كتابة باللغة الرومية الدائرة فلما راى رفيقي ذلك قال لا أخال راسم هذه الكتابة الا احد اعاجمي ممن اعرفهُ يحسن علم اللغات القديمة و يسرد منها امثالاً وشواهد في خلال حديثهِ دون ان يفهمها السامعون . ثم امتزجنا مع الناس قرابنا بينهم عم هذا الغلام الحلاق الذي حدثني اذ ذاك عنهُ فسلم عليهِ فلم يفطن لهُ عمهُ لما اعمل غياب عشر سنين من تغيير صورتهِ عليهِ فعرَّف نفسهُ اليهِ فانكب عليهِ يقبلهُ وبهشهُ بالسلامة و يظهر لهُ ارتياحهُ الى مرآهُ وهو يقول ان الاحتفال والزينة التي اتخذها في ذلك اليوم كانت من شأن زفاف اخت رفيقي وانهُ في الامس كان ابوهُ قد اتخذ مثل تلك المأدبة واحرق النيران واتى بمجوف المغنين وندب اليهِ عشرة غلمان البسهم لباس الرعاة وعشرة بنات ابكار البسهنَّ السراويل من الحرير وجعل زنانيرهنَّ من القصب البرَّاق واخذوا يرقصون و يغنون الى اخر الليل فلما سمع رفيقي ذلك سرَّ كثيرًا من زفاف اختهِ وظن ان المال المنفوق يكون من مال العريس فقال لهُ عمهُ ليس ما تظن بحقيق وانما عمك الذي زرتهُ في مدريد قد توفاه الله في العام البارح وخلف لنا ثلاثين الف درهم وعشرة الاف دينار مما كان بصلهُ بهِ الشرفاء والامراء فسجان من اوقع مالهُ بيدنا بعد ان فطر على بغضنا واحتقارنا امرنا قال ولقد سرَّني مجيئك اليوم الينا حتى تشاهد ما اعددت لهذا الزفاف وما يكون من تشخيص الرواية التي الفتها اجابة لطلب الاخوان والاخدان وانا لا اعاجلك الان ببيان ما حوت عليهِ مخافة ان اسلبك لذة استيعابها في الملعب ولكني اكتفي بالقول ان الحزن فيها ظاهر اذ اني احسب الاهوال وعظائم الامور على مثال ارسطوطاليس مهبط الحكمة ولو كنت اصنع روايات غيرها واقول قصائد مثل ما حدثتَ عن عمك لما كنت اذكر الا قصص الملوك الظالمة السافكين الدماء لايبين للعامة جورهم وعدوانهم واحذرهم اشياء تدهمهم من السلاطين بغتةً وهم لا يعلمون

ولما كاد ان يقطع حديثهُ رابنا من الناس عددًا كثيرًا وجمًا غفيرًا يقدمون الى جهتنا من ابواب المدينة وفي مقدمتهم عشرون رجلاً يضربون على

الاعواد ويوقعون على القضبان وينقرون بالدفوف ويزمرون بالناي ووراءهم رجال يرقصون ويغنون فاعلمنا العم ان ذلك موكب العروسين فهرعنا جميعًا لملاقاتهم وعلت ضجة السرور للتقى الاب بابنهِ والعروس باخيها وكثرت القبلات وطالت تهنئتهم بعضهم بالسلامة ثم تقدمت الناس وجلس كل احد منهم الى موضع من المائدة وبقيت بجانب رفيقي لا افترق عنهُ وتلقانا اختهُ وعريسها فاكلت الاكل النفيس وشربت النبيذ المعتق حتى ارتفعت اصوات الناس من المتفرجين بطلب التشخيص فدخل العم المذكور ملعبهُ وجلس في موضع يسمع منهُ اللاعبين صوتهُ ليذكرهم بما يذهب عن بالهم من كلامهِ وفتح الستار بين من تحتهِ مناظر هائلة بمثل ما اشار الى ابن اخيهِ فان في الفصل الاول يامر سلطان من سلاطين مراكش بقتل مئة من مماليكهِ بضرب النبال وفي الفصل الثاني يامر بقطع راس ثلاثين جنديًا من اسرى الاسبانيين وفي الثالث يامر باحراق القصر وجواريهِ وكل ما حواهُ مثل ما نعلم عن ملك من من ملوك الكلدان الاولين . وقد سمى العم هذه الرواية بسرات سلطان مراكش وتمَّ تشخيصها على ابدع نظام وكانت الجواري والغلمان والجنود متخذة من الورق ممثلة صورة الآدميين كاحسن ما يكون فاحترق كل ما في الملهى من هذه الاوراق وسرت الناس من حسن تشخيص الرواية وراحوا ينشئون جميل الثناء على ناصح بردها بعد ان جمع اللاعبين والبسهم الثيجان المذهبة واحسن اليهم بالهدايا والتحف

الجزء الثالث

فصل

في وصول جلبلاس الى مدريد

قال جلبلاس وبعد ان اقمت في منزل الغلام الحلاق بضعة ايام في افراح ومسرات ركبت من هناك الى مدريد ومررت في اثناء الطريق على مدينة سغوفية فتعرفت فيها بتاجر يحمل بضاعتهُ من بلد الى بلد واظهر لي ودًا صافيًا واصحبني برسالة توصية الى رجل في مدريد يقال لهُ متى الجوهري فلما سرت اليها وسلمتهُ الكتاب رجاني هذا الجوهري ان انزل عليهِ ضيفًا لبينا يسعى في وجود وظيفة اتولاها لتولهِ ان البياع الذي كتب اليهِ الكتاب قد ذكرني بكل محمدة ووصفني حسن فشكرت رقتهُ واحسانهُ وبقيت اسبوعًا بين يديهِ الى ان اخبرني بانهُ دبر لي وظيفةً عند بعض الاغنياء وما لبث ان سار بي اليهِ فسرَّ الغني مني واخذ يسالني عن والديَّ وعن مؤدبي وانا اجيبهُ بصدق لامرايا فيهِ الى ان قال انهُ يراني قويم الدين كثير الاستقامة وانهُ يعطيني في كل يوم عشرة دراهم اجرةً ولا يكون شغلي عندهُ الا ان انظف ثيابهُ من الغبار واقوم بهندام بيتهِ في صباح كل يوم ثم اسير في بحر النهار الى حيث اشاء ولا اعود اليهِ الا في المساء فسررت من هذه الخدمة السهلة التي توفقت لي وصرت اقبض في كل يوم منهُ عشرة دراهم وقد نصب لي سريرًا حسنًا في بعض مقاصير دارهِ . وتجمع عندي مال كثير مما كان يهبنيهِ

غير ان الانسان لما كان قد ركب فيهِ الشوق الى معرفة المخبآت وكان ذلك غالبًا على طباعي تشوقت الى معرفة اسم سيدي هذا واخذت اسال الجيرة وهم لا يزيدونني علمًا فيما قد اطلعت عليهِ من امرهِ حتى اخبرني بعض الناس انهُ جاسوس من لدن ملك البورتغال فتخوفت من ذلك خشية ان يطلس بي واياي في السجن واسرعت الى حانوت الجوهري طالبًا في ذلك مشورتهُ فاذا بهِ جاهل بامرهِ وهو ينصح لي بان لا اترك الخدمة قبل ان اتحقق الخبر بنفسي فتصبرت وعدت الى سيدي وعمدت الى المذاكرة معهُ بهذا

الخصوص فقلت له بينا كنت البسة خلعة ياسيدي اني رايت الحديث واقعًا في افواه الجيرة عن امرنا ففتح اعينًا كبارًا وقال ماذا يقولون فقلت له تبًا لهم ياسيدي يقولون اننا بصاصون من لدن ملك البورتغال واننا لنستوجب على انفسنا عقاب الدولة فجهد عند ذلك كأنّ فادحة نزلت به ثم لم يلبث ان قال لي ولكن ياجلبلاس دعهم يقولون ما شاءوا وما يهمنا قولهم ان كنا قومًا صادقين . فانصرفت من مجلسه دون ان احصل على طائل فيما رمته من معرفة شأنه وقد زاد في سوء ظني به ما رايت به من الوجوم ساعة تراجعت واياه الحديث

فلما كان غد اليوم قُرع باب الدار صباحًا باكرًا فوقف سيدي الى الشباك ليرى من الواقف به واذا برجل يقول له ايها السيد اني رجل من الشرطة مامور من صاحبي بان اسير بك اليه فقال له وماذا يريده مني صاحبك فقال له كلام اليك لم يعلمني به فقال قل له ان لا حاجة لي اليّ ثم صرفه واقبل عليّ واعطاني عشرة دراهم وامرني بان اخرج من الدار قبله لقوله بانه يمكث فيها زمنًا بعدي فاستدللت من ذلك انه يخاف الشرطة وجلست في موضع اراه منه اذا خرج واذا به مقبل بعد ساعة وعليه سمات المسرة ودلائل الفرح فازداد سوء ظني به وقررت انه بتظاهر بالسرور لينفي الريب الذي خامر قلوب الحكام في شانه وانه ربما خبأ ماله ومجوهراته في بعض الحفرات ثم يرتحل في النهار من وجه الشرطة فرارًا من العذاب الذي يتوقعه . فانقضى اليوم ونفسي تحدثني باني لا اراه فيما بعد حتى اذا اقبل المساء سرت الى مربعة لأرى ما قد كان من امره واذا به قد اقبل مثل عادته في كل يوم ثم رقد في سريره كانه لم يخوف عاقبة سوء

ولما كان غد اليوم جاء الشرطي وقرع الباب بمثل ما كان بالامس منه فانتبه سيدي من نومه مذعورًا وقال له تريد ماذا ايها الشرطي فقال افتح الباب فان صاحب الشرطة داخل عليك فلما سمعت اسم صاحب الشرطة ارتعدت فرائصي وكدت ان اقع الى الارض لما بي من الجهد وحلاوة الروح وألمّ بسيدي مثل ما المّ بي الاّ قليلاً غير ان رجليه حملتاه الى الباب جرًا ففتحه بارتجاف وجاوز الرئيس الى مقصورته وتبادل واياه حديثًا طويلاً سمعت بعضًا منه وهو يبرّر نفسه ويكذب اقوال النمامين ويقول انه عفيف النفس طاهر الذيل لا تداخل له بامور السلاطين وانه انما يحتجب عن الناس كسلاً منه على مثال الاسبانيين بعد ان جمع ما له وخبأ منه في الصناديق الحديد ما يقوم بنفقة خمسين سنة ينفق في كل سنة منها الف دينار ثم اقرّ بانه لا يجالس النساء ولا يقامر في اللعب ولا يعاقر الخمرة ولا يتخذ مجالس للهو في داره مما لا يبقي للتهمة مجالاً بانه جاسوس من لدن العدو ودلله على عوراتهم لان الجواسيس من عاداتهم انهم يتعكفون على مجالسة النساء ويسعون في العطايا ويتخذون المآدب ويصنعون الطعام الكثير ويزخرفون مجالسهم الى غير ذلك من الكلام الذي برّره في اعين الشرطي فتركنا وانصرف الى موضعه

فصل

في التقاء جلبلاس بقائد اللصوص وما جرى بينهما من الحديث

وبعد ان ودع سيدي صاحب الشرطة الى اخر السلم دفع لي عشرة دراهم وخرجت من المنزل مسرورًا من دوام منصبي لي في هذه الخدمة وقد قصدت ان اسير الى الجوهري لابشره بزوال الشر . فلما صرت في بعض الطريق اعترضني رولندو قائد اللصوص وكان مرتديًا بلباس الشرطة فجمدت فزعًا لمرآه واخذتني رجفة شديدة فدنا مني وامرني بان اتبعه الى حيث يسير فتخوفت من ان يمضي بي الى سرداب آخر

تحت الارض ومشيت وراءهُ مضمرًا في نفسي اني اذا رايتهُ قد وقف الى موضع غير مانوس اسرعت في المفرّ سيرًا دراكًا وطرحت الصوت في الاسواق حتى تبادر الناس الى انقاذي من بين يديهِ . ثم لم يطل مسيرنا ان وعطف الى باب خمارة وسار بي الى موضع منفرد وامر الخمار بان يحضر لنا سفرة مدام حتى اذا خلا لنا المكان ساق اليّ هذا الحديث

ايها الفتى اني اراك متعجبًا من مقامي في هذه المدينة ولكني احسبك تتعجب اكثر من هذا العجب بعد وقوفك على الحديث الذي اسردهُ اليك فاعلم انا كنا في اليوم الذي سرنا فيهِ لبيع الخيول قد التقينا بابن صاحب شرطة مدينة ليون وهو محمول في عربة يجرها اربعة فرسان فقتلنا اثنين منهم وفرّ الاخران هاربين وصاح بنا سائق المركبة ان نشفق على هذا الفتى ولا نقتلهُ لانهُ وحيد اهلهِ فلم تاخذ قومي شفقة عليهِ واجمعوا على الانتقام من الشرطة باخذ ثارهم في سفك دمهِ فاتاني الله في تلك الساعة رحمةً واشرت الى اصحابي بان يسلبوهُ مالهُ دون قتلهِ ونقدمنا من هناك الى بعض القرى وبعنا الخيول من اهلها . ثم عدنا الى السرداب وولجناه منذهلين لوجود الباب مفتوحًا واذا بالعجوز مقيدة الى اوتاد ضربت في الارض فتعجبنا لذلك غاية العجب وبادرنا الى سوالها عن الخبر فقصت علينا خبرك وما كان فرارك منهُ من فضحكنا عند تذكرنا المغص الذي تظاهرت بهِ قبل ركوبنا وعجبنا منك لتمكنك من خداعنا بهذه الحيلة . ثم دخلنا الباحور ورابنا العبد جائعًا عطشان وهو واهي القوى لمرور ساعات طويلة لم يعدُ فيها احد فبادرناهُ بالتفقد باقصى ما قدرنا عليهِ ثم دخلنا مقاصيرنا وبتنا فيها تلك الليلة حتى اذا افقنا من النوم في غد اليوم جاءت العجوز تنعي الينا وفاتهُ فحنطناه وكفناه ونقلناه الى مواضع القبور ثم انهُ اتفق بعد خمسة ايام ونحن خارجون الى الغزوة ان التقينا بقطعة من رجال الشرطة يكمنون لنا بالمرصاد فهجمنا عليهم بباس وشدة على غير مبالاة بكثرة عددهم واذا بقطعة اخرى قد طلعت علينا من وراء الصخور فوقعت الحرب بيننا سجالاً وكان من نكد الطالع ان كثرتهم غلبت قوتنا فقتل المقدم منا واثنان غيرهُ واسرت انا ومن بقي واُقدنا جميعًا الى مدينة ليون ودخلت الشرطة موضع السرداب وخربوه وقد كان اعلمهم بموقعهِ فلاّح مرّ من هناك بعد مفرّك منهُ ورای بابهُ مفتوحًا ولم يجترىء على ولوجهِ لعلمهِ بان اللصوص يترددون فيهِ وانما تناول مخبلهُ وشوّه الاشجار شجرة بعد شجرة حتى وصل الى اخر الغاب وهو يقصد بذلك ان تكون هذه العلامات دليلاً للاهتداء الى باب السرداب ثم مضى الى الشرطة واعلمهم بما كان منهُ وعقدوا لنا الكمين اياماً حتى كان من امرهم ما كان

قال ولما وصلت الى مدينة ليون نظر الناس اليّ بعين الاندهال والتعجب كاني قائد بورتغالي قد اُسر اُخيذًا وصاروا يشتمونني باللعنات الكثيرة ويهددونني بالقتل الفظيع حتى اذا ادخلت على صاحب الشرطة سبني واسود وجههُ من ظلام الانتقام وقال ايها الكافر الماكر السافك الدماء ألا تعلم اني منقلب ينقلب الظالمون فرجعت من كلامهِ وتقدمت اليهِ في التوبة والعفو عني فلم يكن الا ازداد عليّ حنقًا فقلت ايها الامير اذكر ما كان من رحمي ابنك اذ عفوت عنهُ واذ اللصوص تهاجموا عليهِ فتفكر قليلاً عند سماع كلامي ثم قال ولكن لو اخذني لك رحمة ايها القاتل لما نوصلت الى الحصول على العفو عنك ممن لهُ نفوذ الكلمة وقد قتلت الف نفر ثم امر بي فاودعت السجن وامر بارفاقي فشتتوا في ساحات البلد وبقيت اياماً انوسد التراب في ذلك السجن المظلم وكلما انقضى يوم ولم يفرج عني ظننت ان القضاة يبتدعون عذابًا لي واهانة اشد مما ألمّ بارفاقي حتى امرني امير الشرطة في

بعض الايام بان امتثل بين يديهِ وفي نفسي خوف شديد لذلك فلما صرت في حضرتهِ تطلق في وجهي وقال لي لتعلم اني كتبت الى جلالة الملك في الرضاء عنك والرحمة عليك ولم يصدر منشورهُ الا بعد عشرين يومًا فاذهب الان وانت حرّ لوجه الله ولكن اياك ان تعود الى مثل سلوكك الاول . فلما حققت عفوهُ عني كادت تاتي دموع الفرح الى عينيّ وعاهدت نفسي على التوبة عن مهنة اللصوص تعظيمًا لعفوهِ لامحالة ايقاع الحكام بي . ثم قدمت على هذه المدينة لاقضي ليالي مع ابويّ فاذا بهما قد ماتا عن اموال جزيلة لم يسلم اليّ الا وصياء الا قليلاً منها بمثل عادتهم من ايصال ربع المال او خمسهِ الى الوارثين حتى اذا اضناني الضجر ونشوقت الى حمل السلاح فكرت في ان ادخل في عداد الشرطة وانفقت لذلك مالاً كثيرة في سبيل الرشوة حتى يرضاني الحكام لهذا المنصب . غير اني اليوم قد سئمت من ذلك وفي نفسي ان اعود الى البادية واقصد سردابًا اخر موقعهُ عند منفجر نهر التاج يأوي اليهِ منسر لصوص أُقدّم عليهم جميعًا فتعال واياي وانا اقدمك بينهم واشهد بانك حضرت نزالاً وعراكًا فقلت ايها السيد اني ارى امياك متجهة الى الفروسية وفنون الحرب ولكن ميلي انا متجه الى الراحة والسكينة فقال اظنك يا جلبلاس قد علقت المراة التي هربت واياها من سردابنا حتى لا استطاعة لك على فراقها وربما اخذت تنتعم واياها بالمال الذي سلبناهُ معًا فقلت لهُ يا سيدي ان امري على خلاف ما تظن ولكن الواقع كيت وكيت واخذت ان اذكر لهُ قصتي حتى اذا بلغت اخرها قام عن المائدة وحضني مرة ثانية على اتباع رايهِ في ان اسير الى سرداب اللصوص معهُ ولما لم يرَ فائدة من كثرة الحاحهِ قال انت تقيم في مدن العمران ان شئت ولكن اياك ان تنقل الى احد كلمة مما حدثتك بهِ والا فانت اعلم مني بما ينالك من غضبي ثم صفق بيد على يد فاقبل الخمار فدفع لهُ بضعة دراهم وخرجت واياهُ من الحانة

فصل

في خدمة جلبلاس لمتى سيده

قال جلبلاس ثم اني وقفت الى باب الخمارة ريثما ودعت قائد اللصوص واذا بسيدي قد مر من هناك ورآني معهُ في الحديث ولاح على وجههِ كدر توقعت من مآلهِ امرًا سيئًا فلما خيم الظلام سرت اليهِ كعهدي عادتي واذا بهِ قد قلق قلقًا كثيرًا لما شاني هذا القائد وقال قل من هذا الرجل العظيم الذي كنت تتبادل معهُ الاحاديث فتخوفت من اباحة السر وما كاد ياتيني الكلام لوعيد اللص القتّال وصرت اقول الفاظًا ابرر فيها نفسي دون ان يصدقها سيدي حتى اذا كان الغد دعاني اليهِ ودفع اليّ عشرة دنانير بدل الدراهم وصرفني من خدمتهِ لقولهِ انهُ لا يرضى لنفسهِ ان خادمهُ يجالس رجلاً مثل ذلك اللص فاردت ان ابرّر نفسي فلم احصل على طائل لما كان من سوء ظنهِ بي حال ارتباكي بالامس فمضيت الى الجوهري الذي اضافني في منزلهِ اياماً وطلبت اليهِ ان يدبر لي وظيفة حسنة بعد فقدان هذه الخدمة فبشرني بعد يومين بانهُ كلم خولي بعض اولاد الشرفاء بشأني وانهُ ياخذني اليهِ ولكنهُ اشترط عليّ ان استميل مرضاة الخولي اكثر من استمالة مرضاة السيد نفسه لان الكلام كلهُ للخوَل ولا سيما الذريق هذا الخولي فانهُ صاحب مكر ودهاء وقد اعمل بالاتفاق مع الخدمة والغلمان على سرقة شريفين من غير الشريف الذي يخدمهُ الان بانهُ كان يسترق اموالهما مما ياتي بهِ الفلاحون ويدخل عليهما ويقول ان المواسم لم تصح في تلك السنة ثم يوجه رجلاً بالمال الذي يجيء بهِ الفلاحون فيدسّهُ بين سديهِ ويكون المال في الحقيقة لهما وليس لهُ . ثم حدثني عن السيد الذي

نذهب اليهِ انهُ يميل الى اللهو كأب اولاد الشرفاء الذين يتديّنون من التجار لينفقوا على انفسهم طالما هم عزاب فاذا تزوجوا على بعض الاميرات وفوا من مهرها وصدافها كل ما عليهم من الديون وقال ان التجار مهما استوفوا قليلاً من اموالهم منهم فانهم لايخسرون راسمالهم باعتبار انهم ياخذون المثل مثلين في كل عام وبعد كلام طويل وقفت بهِ على احوال الشرفاء في عيشهم الرغد سرت والجوهري الى منزل متى الشريف ودخلنا على الخولي المسمى الذريق واذا فلاح بين يديهِ قد جاءه بكيس فيهِ خمسمائة دينار من من غلات متى فاعطاهُ وصلاً بها وصرفهُ على حين راى الجوهري في غرفتهِ ثم تسارع اليهِ وتعانقا كلاهما عناقاً صناعيًا لا ودادياً ولم يلبثا ان تحدثا بعد ذلك بشانيّ واوصاهُ الجوهري بي توصية جيدة ثم انصرف الى موضعهِ . فلما كان قريب الظهر وهي الساعة التي يفيق فيها متى الشريف من الرقاد ادخلني الخولي عليهِ ووجدتهُ في ثياب النوم وقد غاص في كرسيّ هزازة والقى رجلهُ على احدى يديها واخذ في يدهِ قصبة التدخين فقال لهُ الخولي ياسيدي قد جئتك بفتىً احب اليك ان تتخذهُ في جملة خوّلك فقال من حيث انك تروم ذلك فانا ارضاهُ خادماً لي اكراماً لخاطرك ولكن لنتكلم الان في ما هو اهم من ذلك فاعلم اني لعبت البارحة بالقمار وخسرت مئة دينار كانت معي وتديّنت مئتين اخرى من بعض الاميرات فدبرها الساعة لي لانها دين على الشرفاء مقدس وينبغي لهم ان يفوهُ الى آخر درهم فقال لهُ ياسيدي ان المواسم لم تكن مقبلة في هذا العام ولا ارى درهماً واحداً يحملهُ اليّ فلاحوك ما لايبقى لي سبيلاً الى القيام بنفقاتك الجزيلة فاجابهُ سيده ولكن يالذريق انت تعلم اني لا اهتمُّ بمصالحي ولا قوة لي على تبديل المعيشة غير المرتبة التي انا بها فدبر لي ما احتاج اليه بمعرفتك وحسن تدبيرك فقال لهُ الخولي ياسيدي انتبه الان لنفسك قبل ان يحل بك الخراب فتندم على حين لاينفع الندم فقال لهُ ما علمك ايها الخولي بالله دعني افتقر دون ان اعلم بذلك واغضِ الان واتني بمئتي دينار على عجل فقال اذن ساذهب الى شيخ من التجار سبقت عادتنا من التدين منهُ بالربا فقال امضِ الى الشياطين ان اردت بشرط ان تاتيني بهذا المال اذ لايهمني كل ما سواه

وبعد ان خرج الخولي دخل على سيدي بعض الشرفاء من امثالهِ وقال لهُ على حين آنس غمهُ بالله قل لست متالماً من سوء معاملة خوليك فقال لهُ اصبت يا اخي وكلما طلبت منهُ درهماً حدثني بان فقري قريب وانا اتفاءل من ذلك بالشوم فقال لاتبتئس يا اخي من سوء معاملة هولاء الثقلاء اذ ان خولي شر من خوليك فاذا طلبتُ منهُ ديناراً تململ كانما يعطيني من مالهِ الخاص ولكن هلمَّ نصنع مكيدة نغلبهما بها فتضاحكا منها فانب تطلب من خوليّ ما اعتازهُ من المال فتسمع عظاتهُ وتضحك منها وانا اطلب من خوليك ما تعتازهُ انت واسمع منهُ عظاتهُ فاهزأ بها فاتفقا كلاهما على ذلك واذا بالخولي قد عاد وقال انهُ جدَّ في طلب تاجر جاء بهِ وهو يقرض مالهُ للاشراف على ان ياخذ ربع المثل في كل عام فصاح الزائر بسيدي سعدٌ لك يا اخي ان التجار يعاملونك بالرقة فما منهم احد الا وياخذ المثل الذي يقرضنيه مثلاً مثلهُ عند تمام الحول فلما سمع التاجر كلامهُ قال تبًّا لهولاء اللصوص الذين يمتصون الشرفاء اموالهم فياليتهم اتبعوا مثلي في دينهم الناس لعمل المعروف وكسبان الاجر عند الله . حتى لوكانت الايام ايام رخاء لكنت قرضت مالي بلا ربا ولكنها لسوء الحظ ايام ضيق وشدة ما لايبقى لي سبيلاً الا ان اترك الرحمة جانبًا لاربح من الدين ما يتكفل بمعاش عيالي قال هذا واخرج كيساً عرفتهُ انهُ هو الذي جاء بهِ فلاح سيدي الى الخولي واخذ

بعد الدنانير حتى عد مئتين منها فقال له سيدي وقد انقدت عيناهُ لمراى الذهب كم جملة ما في هذا الكيس فقال اربعمائة دينار الا قليلاً فقال افرضنيها جميعاً وانا اكتب لك بذلك سنداً فلم يتمنع الرجل عن ذلك وجاء لدريق الخولي بسند مكتوب بخمسمائة دينار لاينقصهُ الا الختم وهو تحويل على بعض الفلاحين فتناولهُ منهُ سيدي وامضاه ووضع عليهِ ختمهُ دون ان يقراهُ وسلمهُ الى التاجر المكار الذي توافق الخولي معهُ على السرقة وقال لهُ بالله ايها الرجل اكثر ترددك عليَّ لان الاشراف الذين ينفقون اكثر مما تغل املاكهم افتقروا الى مثلك من التجار الذين تنزهوا عن ان يكونوا لصوصاً بمثل زعم العامة ثم وثب عليهِ وقبلهُ فقام الزائر الشريف وقال صدقت يا اخي فما تقول في التجار الا قوم افاضل قدرنا الله على مكافاة من ياخذ منهم ربع المثل او نصفهُ في كل عام ثم وثب على التاجر وقبلهُ كما قبلهُ سيدي ثم تكلما بعد ذلك وعاد الى تقبيلهِ حتى صار التاجر كانهُ لعبة في ايديهما

ولما حصل المال في يد سيدي سلم اليَّ مئتي دينار لاحملها الى الاميرة التي استدان بالامس منها ووضع ما بقي من الدنانير في كيس من الحرير مزركش بالقصب والفضة وقال لزائره اني املك اليوم مالاً كثيراً فماذا نعمل بهِ ففكر الزائر قليلاً واذا بسيدين من اولاد الشرف والنعيم قد دخلا علينا وعندا معهما مجلساً كان من نتيجة مباحثتهم فيهِ انهم يتعشون تلك الليلة في بعض الخمارات . ثم انهم تجاذبوا الاحاديث وذكر كل احد منهم ما فعل بالامس فعال سيدي انهُ خسر في منزل بعض الاميرات بلعب القمار وقال اخر انهُ قضى ليلة بالحانة وقال غيرهُ انهُ بات ليلة في لهو وملاذ عند لاعبة مشخصة اسمها عزة وقال رابعهم انهُ بات عند امراة فتانة الحسن بعد ان قضى ليالي قبل ذلك في الحانات فتنقل من الخمارات الى القصور وانشد

تنقل فلذات الهوى بالتنقل

فصل

في مسايرة جلبلاس خدمة الاسياد

قال جلبلاس ثم ان سيدي دخل مخدعهُ ولبس خلعة ظريفة وسار مع الاسياد الى الحانة التي توافقوا على العشاء فيها وقد امرني بان اسير معهُ فمشيت الى جانب خدم الاسياد الثلثة ورايتهم ينقلدون اسيادهم في مشيتهم وحركاتهم كانهم من سلالة الشرفاء وما لبث ان قال لي احدهم تراك ايها الفتى لم تخدم قبل اليوم سيداً اذ انك لا تتقلدهم في شيء ولكن قرَّ عيناً من هذا القبيل فانا نجعلك كامل العلم ان شاء الله . ثم وصلنا الى الحانة واقام بعض الاسياد فيها مادبة ينفق عليها من مالهِ واخذ واياهُ يضحكون ويتحادثون ويتذاكرون النكت الظريفة والقصص الطريفة حتى رفعت مائدة الطعام ومدت لهم سفرة المدام فانصرفنا من حضرتهم الى غرفة ثانية مدت فيها سفرة طعام اخرى فطلب خادم السيد (الذي تكفل بالنفقة) الى الخمار ان ياتينا بعشر قناني من النبيذ المعتق واشار اليهِ ان يضم ثمنها الى ما لهُ عند سيدهِ بمثل العادة فتمنع النباذ في بادىء الامر لقولهِ ان لهُ عند سيده مالاً كثيراً فقال لهُ الخادم ولكن لتعلم ايها الخمار ان ديون سيدي لا من من ديون الدولة وانهُ اذا اعتزم على دفع ما لك عليهِ لم يرَ الى القيودات المنفدة على رقعتك وانما سالك عن جملة المطلوب ودفعهُ اليك دون مراجعة فصدق النباذ كلامهُ وحمل الينا النبيذ وجلست وارفاقي الخول الى المائدة واخذنوا في الحديث على مثال اسيادهم وضحكوا ولعبوا واوردوا ذكر حوادث هزلية بكلام رقيق خبيث وقد آيست في نفسي من حسن التكلم بعبارات كلٌ ما فيها الخلاعة والفجاجة كما كانوا يتكلمون حتى اذا طال جلوسنا قال لي احدهم يلوح لي

ايها الفتى ان فيك فطانة فلمَ لا تتكلم بما يجري على بالك فانك لو قلت الف كلمة لامعنى لها ثم اتبعتها بمثل ظريف او فكاهة نادرة او قصة غريبة لانسيت بها كل ما اظهرت من سخافة القول وبات الناس يثنون على سعة عقلك . فلما سمعت كلامهُ داخلت نفسي جراءة وحملني النبيذ على التفوه بكلام كثير دون ترتيب ولا نظام ولكن حسن الحظ وفقني الى ان اقول كلامًا مضحكًا واسرد قصصًا اخذت بمجامع قلوب الخول حسنًا فاخذوا يثنون عليَّ ويقولون لله درك يا هذا لقد انطلق لسانك بالكلام البليغ مع انك لم تجالسنا الا ساعات قليلة فما احسن والله خدمة الاسياد التي تزيل عنا فظاظة الفلاحين وتعيرنا جانبًا من محاسن الامراء فقلت لهم ايها الاخوان ان للاقدار اماني جمعتني بكم في هذا المجلس وانا اقسم ان لا انفصل عن خدمة الاسياد حتى يتم هنائي من الاجتماع بكم في كل المجالس فسروا من كلامي اليهم وقالوا هلمَّ نقسم بانا لا نخدم احدًا من الناس غير الاسياد ثم ادارُوا الكؤوس وشربوا على ذكر هذا القسم الى منتصف الليل

ولما غفل اسيادنا ساروا الى منزل بغيٍّ عائنة من عادة الشبان انهم يجلسون اليها بعد العشاء ويلعبون هناك بالورق ويتسامرون ويتحدثون ويبيتون الى الصباح . وكانت هذه البغي قد طعنت في السن وتولى شبابها الا قليلاً . غير انها كانت تبيع ليلتها على كبر باغلى مما كانت تبيعها على صغر وكان يجتمع في مقاصيرها نساء لسن باخفض منها في مراتب الجمال ولا زوارهنَّ باقل عدد من زوارها وكانت لكل بغيٍّ منهنَّ خادمة قد تعودت الدلال والخلاعة فبات اسيادنا معهن وبتنا نحن مع الخادمات في ضحك وتقبيل وملاعبة الى وجه الصباح .

ولما كان اليوم التالي افاق سيدي متى من نومهِ بعد الظهر وسار الى منزل السيد الذي زارهُ بالامس فالفى عندهُ رجلاً مختنًا قد وخطهُ الشيب ومن عادتهِ ان يالف القيان الاغنياء ويدعوهم الى الفساد ويحملهم على انفاق مالهم على اللهو والمسرات فقال لهما انهُ الف بعض اولاد العامة وحضهُ على اتخاذ مادبة يدعو اليها بعض الاسياد فاذا احبا ان يحضراها فهي ياخذها اليها فالتفت سيدي الى المختث وقال ما هي صفة هذا الفلاح الذي يدعو الاسياد اليهِ فقال يا سيدي انهُ جوهري سافر ابوهُ الى البلدان ليبيع جواهرهُ وترك بين يديهِ مالاً اضاعهُ بجهلهِ وميلهِ الى تقليد الاسياد . ولقد كان من حسن حظي ان تقربت اليهِ واخذت اعلمهُ بكيفية انفاق المال الذي يكون صفر اليدين منهُ عن قريب . فلما سمع صاحب المنزل كلامهُ قال لسيدي هلم يا اخي نذهب اليهِ لنكون لنا يد في خرابهِ فلست احسب هذا الجوهري بعد قليل الا سائلاً يتصدق على ابواب الناس فقال لهُ سيدي والله اني احب عقد النية على خراب الفلاحين الغلاظ الذين يتشبهون بنا كانهم من اولاد الشرف والنعيم ولست ارى هذا الفلاح يستوجب الرحمة والرافة على فناء مالهِ لانهُ يكون في حالة الذل والهوان كمثل ما كان في حالة الرخاء وخفض العيش

ثم سار السيدان والشيخ المختث وسرت معهم لاشاركهم في اذلال الجوهري واكل مالهِ واذا في مجلسهِ سيدان قد احدقا بهِ واثنيا عليهِ فلما اجتمع الخمسة في حضرتهِ اخذ يتغفل بهم في كلامهِ وراحوا يهزاون بهِ ويتورکون عليهِ ويقولون لهُ كلامًا قصدوا فيهِ المعنى الخفي كقولهم انت زينة الاسياد وعالم الاندلس وابن الحسب والنسب وهو يشكرهم على ذلك لغفلتهِ عن فهم ما ارادوا من الاستهزاء بهِ حتى كان اذا بدرت من احدهم كلمة ظاهرة المعنى الذي قصدهُ سرًّا لم يعاتبهُ على ذلك وهو يسر في نفسهِ من معاملتهم اياهُ مثل ما

يعاملون بعضهم

اما الطعام والوانه والسفرة ونظامها والمدام واشكاله والملاهي وتفننها فلست اطيل الكلام في وصفها وعسى من القول بان المدعوين قد كانوا وجدوا من اسباب المسرات ما احياهم ليلتهم الى الصباح في منزله

فصل

في جلوس جلبلاس الى امراة فتانة الحسن

قال جلبلاس وبعد ان خدمت سيدي نحوًا من اسبوعين ما زلت فيها استميل اليّ رضاء الخولي تنسدت طباعي من مرافقة خوَل الاسياد وصرت اتشبه بهم في فعالهم ولا سيما بما كان من مجالسة النساء وقد رايتهم يسيرون اليهن مرتدين بلباس اسيادهم . فذهبت في بعض الايام الى حانوت حلاّق وارتديت بلباس سيدي وتزينت وتبخترت واخذت اجول في الاسواق معتزمًا على ان افتتح الكلام مع اي امراة أعترضها في شارع او اجلس اليها في مكان املاً بان احداهن تلبي طلبي وتحقق مسئولي على حين تظن اني انا سيدي متى

فلما صرت في عطفة طريق وانا اترقب وقوع صيد في شرك حياتي رايت امراة هيفاء عبلة الجسم ترفل في الدمقس والحرير قد نزلت من بيت صغير وركبت في عربة كان ينتظر سائقها انصرافها من البيت فوقفت ناظرًا اليها وسلمت عليها باشارة اوهمتها بها انها قد وقعت في قلبي موقعًا عظيمًا ففهمت عني معنى سلامي واحبت ان تزيدني بها كلفًا فاماطت برقع الحرير عن وجهها فاسفر عن وجه كانهُ البدر حسنًا والشمس اشراقًا ثم سارت عربتها ووقفت مبهوتًا حيران من حسنها وجمالها وانا لا اكاد اهتدي الى الى المسير وقد تذكرت اول بيت لشاعر قديم يقول فيهِ راى فحب فرام الوصل . . . ثم رفعت طرفي الى الدار التي نزلت منها فرايت في الشباك عجوزًا تشير اليّ بان اصعد اليها فوافيتها باقل من لمحة عين فقالت لي وهي تظن اني سيد من اولاد النعيم ايها السيد لا تكن لتظن بي سوءًا فيما اشرت بهِ اليك ولكني رايتك من جلة الامراء فاردت ان اتقرب اليك ببعض الخدمة ولست احسبك الا عاشق هذه الجارية . فقلت صدقت ايتها العجوز فيما نطقت فما انا الاّ سليل الوجاهة والكرامة وقد وقع عشق هذه المراة الشريفة في قلبي موقعًا شديدًا فاعملي بالله على اجتماعي بها ولكِ مني ما تشائين من المال ولا حاجة الى القول بان دنانير من مثلي من الامراء لا تنفق الا على امثال هذه الهبات فلما ايقنت اني كثير العطايا اعلمتني بانها جعلت دارها مقصدًا للنساء اللائي لا يتمكنّ من اقتبال احبابهن في منازلهن فياتينَ اليها ويجتمعن عندها بمن اردنَ من الفتيان فسررت في نفسي من ذلك وقلت لها ان امري اصبح سهلاً غير متعذر فاجابت وهي تصعّب لي الامور ان هذه المراة يتباين طبعها عن طباع غيرها من النساء وانها لا تسلم نفسها الا الى رجل تميل اليهِ وتكون على ثقة منهُ بانهُ يبقى محافظًا على ودها وقد خابرتها بشان ثالثة من الشبان فلم ترغب في احدهم ولست آمن انها تميل اليك مع كل فضلك فلما فهمت ما قصدتْ من هذا الكلام اخذت ابين لها ان لي سابقات من النساء وقلت تطمئني ايتها العجوز من هذا الشان ولا تهتمي انت الا باجتماعي بها ودعيني ادبر كل ما بقي ولا سيما اني احب صدود الملاح وجفاهن وهو الامر الذي لم يتفق لي منهنّ بهذا الان لانهن لا يقوين على مماطلة سيد الشرفاء مثلي

وبعد كلام طويل وقال وقيل وعدتني بانها تذكرني لديها في غد اليوم فاصلحت حالي وتطيبت وتمسكت وسرت اليها قبيل العصر فبشرتني بانها

فاوضنها ملياً بشاني ومدحت سيرتي واثنت على صفاتي حتى اقنعتها بان تتخذني لها حبيباً ثم اخذت بان تعظم قدرها في عيني تشبهني اليها وتقول بانها اشبه بالبنات الابكار بمعنى ان زوجها لم يلبث معها اياماً حتى توفى الى رحمة الله الى غير ذلك من الكلام الذي زادني شوقاً الى وصالها ونزاعاً

وانها لفي بعض الحديث اذ وفدت علينا تلك المراة ترفل في الحرير وتصفينا بالغض والحلى الكثير فلما وقفت قمت وطأطأت رأسي اجلالاً لها كمثل عادة الاسياد ثم دنوت منها كمن قد سبقت له بها معرفة وقلت ايتها السيدة لقد فتنت بجمالك ودلالك شريفاً من الامراء ما زال يفكر فيك الليل كله وجعلته يعرض عن اميرة كان يشغف بها وجداً من قبل ان راى محاسنك فقالت ايها الامير اني افتخر بهذا الفوز من وقوع عشقي في قلبك ولكن خوفي انك لا تقيم زمناً طويلاً على مودتي فان الاسياد يحبون التنقل ولا يقيمون على عهد الوداد فقلت يا ربة الجمال دعي عنك هذا اللوم وامنحي مغرماً عاشقاً يكاد يتلفه هواك فتعطفت علي لسماعها هذا الكلام واظهرت انها تميل الي ولكنها تجافت عن تلبية طلبي فركعت على الارض بين قدميها تمثلاً بعمل الاسياد وانا اكثر اليها من الرجاء بان تنعم علي بوصال يجلب لي الهناء فدفعتني بعنف لاظناً انها عفيفة النفس وشتمتني بقولها اني امير قد تعودت الفسق ولم يحسن ابوي تربيتي فقلت ليس الفسق من خصالي ايتها السيدة وانما عشقي لك يحملني على ترك الشرف جانباً في هذا الموقف الغرامي الذي تقف فيه الملوك والامراء فقالت الى الله اشكو ظلمكم ايها الاسياد فان لكم كلاماً رقيقاً يحملنا على قبول طلبكم وقد ارى قلبي يميل اليك ولكني احب ان تعلمني من انت قبل ان اسلم نفسي اليك . فتذكرت اذ ذاك احاديث الخدم على حين كانوا يدعون انفسهم بالقاب اسيادهم وقصدت ان اسمي نفسي باسم سيدي فقلت ايتها السيدة اني لا اخفي عليك اسمي الذي اشتهر بين الورى فهل سمعت باسم متى السيد الشريف فاجابت نعم اني سمعت اسمه ورايته في منزل بعض صديقاتي فارتبكت اذ ذاك من كلامها واعملت على تغيير اسمي بدقة كثيرة حتى لا تفطن لاضطرابي فقلت لتعلمي اني دون قيصر الامير المبجل وان ابي قد قتل في حرب لا اطيل لك الكلام عنها لئلا يضيع هذا الوقت الذي يلذ لي ان استخدمه لمطالب العشق الذي احرقت ناره فوادي ثم انعطفت عليها وقبلتها قبلات ما ازددت منها الا شوقاً الى بلوغ وطري منها . ولكنها ابدت الي انها لا تسلم نفسها الى امير لاول اجتماعها به وانها انما تنعم علي بوصالها في ايام قريبة بعد ذلك فسررت من هذا الاتفاق الحسن ورجعت الى منزل سيدي فلم الفه فيه فسرت الى حلقة من عادته انه يسير اليها للعب القمار فرايته ضاحكاً مسروراً فعرفت انه كاسب بدليل تاثره وانكماشه من الخسارة اذا نزلت به وذلك على غير عادة من بعض الاسياد الذين اذا خسروا مالهم او كسبوا الالوف في مجلس فلا تظهر آثار الانكماش او الفرح على وجوههم . ثم لم يلبث حتى خرج من الملعب وقد اعطاني عشرة دراهم من كسبه وامرني بان اوافيه الى منزل عزة اللاعبة في منتصف الليل فسرت الى بعض الخمارات وشربت فيها شراباً كثيراً حتى آزف الميعاد فسرت الى منزل اللاعبة التي يجتمع عندها المغنيات واذا في بعض خادماتهن قد رايت تلك المراة التي فتنت عقلي وظننت انها اميرة من الاميرات فتعجبت من حيلتها وتعجبت هي مني وعلا ضحكنا فهنهنة الى ابلغ ما يكون ثم انها مدت يدها وقالت لنقبض كلانا على يد بعض ولنثنين على حذاقة كل منا لما كان من حسن تدبيرنا حيلتنا فانت حسبتني امراة شريفة وانا حسبتك اميراً

من بلاد الملك فقلت صدقت يا حبيبتي وان عشقي لم يضع الان وقد عرفتك خادمة بعض البغي فمني عليّ بوصال كنت وعدتني لي وقد عرفتني باسم دون قيصر فقالت اني استحسن كلامك واراك في الرجال ما انا في النساء وكفى لك بذلك من مديح وثناء ثم مالت بي الى مقصورة بت معها الليل بوصال هني وانا اسمع ضحك سيدي وسروره كأنه يفعل مثل ما فعلت

فصل

في حكاية سمعها جلبلاس من وراء الباب

ولما كان اليوم التالي سار سيدي قبيل العصر الى منزل بعض الاسياد وعنده ابن عمه ضيفاً فتحادثوا الى اخر النهار ثم ساروا الى الملعب وحضروا رواية (.....) وعادوا الى موضعهم وتحدثوا عن اللاعبين واوصافهم فاخذ سيدي في مدح بعض اللاعبات اعتماداً على شدة تصفيق القوم الحضور لها واستحسانهم غنائها واخذ صاحبه في مدح غيرها اعتماداً على التصفيق والاستحسان فقال لهما الضيف انا لا احسب التصفيق دليلاً على اجادة اللاعب والا فقد قرات في بعض الروايات ان لاعباً كان يشخص في بعض الملاهي وكان الحضور يصفقون له استحساناً كيف كان تشخيصه فتراءى له ان يقلد لهم صوت الخنوص فشمل راسه في عباءته واخذ يصوت لهم مثل الخنازير فسروا من اجادته وطلبوا اليه ان يرفع عباءته فلم يروا من تحتها شيئاً فارتفعت ضجة استحسانهم وكثر تصفيقهم بالايادي وكان في قاعة الملعب فلاح قام بين الناس وقدح فيما كان من امر الشخص وقال انه لم يتقلد صوت الخنوص كما هو في الحقيقة ولكنهم ان ارادوا ان يسمعوه كما هو فليس لهم الا ان ياتوا في مساء اليوم التالي. فلما كان العشاء اقبلوا الى الملعب افراداً وازواجاً حتى اذا غص بهم قام هذا الفلاح واشتمل بعباءة خبأ تحتها خنوصاً حقيقياً ثم غمز اذنه فصوت اصواتاً متلاحقة ظن القوم الحضور انها لا تقارب صوت الخنوص فصفروا (والتصفير دليل الاحتقار عندهم) فرفع الفلاح رداءه وكشف لهم عن الخنوص من تحته مصوتاً وقال لهم انتم لم تصفروا لي وانما صفرتم للخنوص نفسه فاعلموا كيف جرت عادتكم بان تتنوا على بعض اللاعبين ثم تقدحون فيمن لا تحبونه منهم. انتهى.

وبعد ان تحدثوا في غير ذلك عن اللاعبين قال صاحب المنزل لابن عمه يا ابن عم الا تقبل رجائي وتوخر سفرك الى اجل مسمى حتى نانس بمشاهدتك فقال يا ابن عم اني جئت برسالة من لدن ملك بولونيا ساحمل اليه جوابها ولا سبيل لي الى تلبية طلبك فقال اذن انت لا تسكن الاندلس فيما بعد فقال والله لا الا ان تنزل لي فادحة مثل ما اتفق لي ثم لا اخلص منها بالحيلة ولا بالقوة فقال له اخبرنا يا ابن عم بما جرى لك في تلك البلاد فاخذ يقص سيرته وانا واقف وراء الباب استمع منه الحديث فقال

لتعلم يا ابن عم ان كانت لي منذ حداثتي رغبة في فن الفروسية فاتفق في بعض السنين ان وقعت حرب بين الترك والبولونيين فذهبت الى عون الافرنج وقاتلت ببسالة شديدة تنبه لها القواد حتى اذا وقعت الهدنة اثنوا عليّ بحضرة الملك وذكروني لديه بكل وصف حسن فرتب لي مالاً واقطعني ارزاقاً واسعة وكان يواصلني بالهبات في كل يوم يجلس فيه الى القواد والامراء فاتفق في بعض الايام انه امر باخراج الفرسان الى المضمار الكبير وان تنزل الابطال لمصارعتها وقتالها حتى يكون له نزهة من مراى ذلك فخاطرت بنفسي في ذلك اليوم وصارعت مصارعة حسنة افاضت عليّ مديح الناس كلهم فلما عدت الى منزلي وردت عليّ

رسالة من بعض النسوة الشريفات تندبني اليها وتعلمني عن المكان الذي اوافيها فيهِ بعد العشاء فسرني ذلك اكثر من كل ما حزت من المديح من الملك وامرائهِ وما لبثت ان اسرعت الى ذلك المكان قبل ان يحل الميعاد فالفيت هناك عجوزًا فانية تكادان تنال الارض بوجهها فسلمت عليها فردت السلام واطلعتني الى قصر مشيد الاركان رفيع العمدان حفيل البنيان وجاوزتني مقصورة بعد مقصورة حتى انتهت بي الى موضع لطيف قد أُحرقت فيها شموع كثيرة وامرتني بان اجلس فيهِ ريثما تعلم ربة القصر بمجيئي اليها فما كان بعد قليل الا برزت عليَّ من خلال الستور امرأة فتانة الحسن بديعة الجمال كأني بها قد ملأت الموضع نعومة وغضاضة والبسته رقة وجمالاً وبعد ان تراجعنا السلام قالت لتعلم ياصاحب البأس اني كلفت بحبك منذ ازمان وما زلت اراقبك في كل موضع واعجب بشجاعتك وقوة ساعدك حتى رايتك اليوم ودهشت لما كان من بلائك هذا البلاء الحسن فزادني ذلك ميلاً الى محالستك ولا ياخذك الكبر بان معشوقتك اميرة من بنات الملوك فما انا الا امراة قائد توفي في بعض الحروب ولكن فخرك يكون بتفضيلي اياك وتقديمي لك على امير كلف بحبي وانا لا اتظاهر بالميل اليهِ الا لاكسب الفخر والمال منهُ

فلما سمعت كلامها سررت سرورًا لامزيد عليهِ وانطرحت بين قدميها اظهارًا لشكري لها وقلت لها كل ما اتاني في تلك الساعة من مدح صفاتها وذكر محاسنها حتى انقضى الليل

وكان اتفاقي معها انها تعلمني عن كل ليلة لازورها الامير حتى اوافيها الى القصر وبقيت اتردد عليها اياماً طوالاً انعم فيها بوصالها ولا يعلم الامير بشيء من امرنا ثم كان من سوء الحظ ونكد الطالع ان بعض قهرمانات هذه الخود الرداح قد تخاصمت معها فمشت الى الامير بسرنا فغضب غضبًا شديدًا واعتزم على الانتقام مني دون ان يجعلني انتبه لذلك حتى اذا كنت في بعض العشيات منصرفًا من مجلس معشوقتي وهو قد قعد لي الكمين على باب البستان مع اعوان لهُ في ايديهم العصي والسواط امرهم بالوثوب عليَّ وقال اضربوا لا ابقاكم الله واعنوروهُ بالعصي والسواط حتى برد نار الغيرة التي اضرمها في فوادي فتواقع عليَّ جماعة بالضرب وما افرشوني حتى وقعت الى الارض بين حي وميت وبقيت الليل كلهُ أئن على التراب حتى مرت من هناك قبيل الفجر جماعة من اهل المعروف والاحسان فحملوني الى جراح ماهر دأب نحوًا من شهرين على معالجتي حتى ابرأ جراحي فعدت الى ما كنت ارغب فيهِ من فن الفروسية وتوليت المنصب الذي كان لي في بلاط الملك وما عدت اسمع عن معشوقتي خبرًا ولا هي سيرت لي رسالة مخافة ان يناالها شيء من غضب الامير

ولما انتشر خبري بين الناس وكثر قالهم وقيلهم فمنهم من ظن اني لا اطلب بثأري لمكانة الامير من العظمة وكثرة جندهِ وحاشيتهِ ومنهم من علم ما خبأت في ضميري من اني انتظر فرصة صالحة للايقاع بهِ على كل حال وكان الملك في جملة الناس الذين علموا ما نويت عليهِ لما عهد فيَّ من الفروسية والبسالة حتى اذا اختليت بهِ قال لي لتعلم ايها الفارس ان قد نمى اليَّ خبر الايقاع بك وما كنت لأظن انك تنتقم لنفسك فاجبتهُ يا سيدي ربما عسر عليَّ معرفة الرجل الذي نالني منهُ هذا الذل والهوان فقال اقصر عن هذا الحديث الكاذب وانما يامرك الملك بان تطلعهُ على ما اعتزمت عليهِ ويحلف عليك بالايمان التي لا فسحت فيها فقلت من حيث ان جلالة الملك يامرني بذلك فانا ازيح عنهُ ستار الخفاء واعلمهُ باني انتظر فرصة اخذ فيها بثاري من الامير حتى اذا وقعت بهِ وقطعت

بالسيف كبده هربت من وجه جنده ورجعت الى بلادي ايسًا لعدم بقائي في خدمة الملك فلما سمع كل ذلك قال لا لوم عليك ولا تثريب في ذلك ولكني احب ان أُوجد الصلحة فيما بينكما فتململت كآبة عند ذلك اذ كانت نفسي لا تطيب الا بقتل هذا الامير فلحظ الملك انكاشي وقال لا تظنّ اني اخون احدًا يطلعني على سره فاذا لم تكن الصلحة كما تحبّ فافعل ما نويت عليه من قتله

ثم انه دعا الامير اليه وفاوضه سليًا في شاني وتقدم اليه ان يلتمس المغفرة مني فأبى الا ان يقارعني بالسيف فلم يرتض الملك بذلك وامره بان يسلم الي عصاه وقد تكفل له بالاّ اضربه بها . فلما كان بعد ذلك دعاني اليه واعلمني بما كان من مآل اجتماعه بالامير فشكرت احسانه لذلك من وجود هذه الحيلة التي ترفع قدري بين الناس ووعدته باني لا اضربه بالعصا التي يقدمها لي حتى اني لا آخذها منه . فلما كان غد اليوم جمعني وهذا الامير في دار الملك مجلسٌ واحدٌ فصرف ندماءه وجلاسه وامر غرمي بان يطلب الصفح الي فكان ذلك عليه انكى من وقع السهام غير انه امتثل الامر ووقف وسلم الي عصاه فصاح الملك بي خذ العصا ايها الفتى ولا تحتشم عن الاخذ بثارك في حضرتي وانك وان كنت قد وعدتني بالا تاخذها منه فلا باس اذا كان الحقد كامنًا في صدرك ان ترفعها عليه فقلت ايها الملك كفاني ان ارى هذا الامير في موقف الذل بين يدي فقال لا وحيث انكما لم تتراضيا فعليكما بالقتال ومن قهر صاحبه فهو الاسعد فوافق الامير على ذلك وخرج من حضرة الملك شديد الحنق عليّ وما كان بعد قليل الا انه ندبني الى موضع منفرد وجرد سيفه صائحًا واستنهضني الى القتال لحسم هذه النازلة على شكل نرتضي به كلانا فجردت سيفي وتجادلت معه ساعة طويلة دون ان يظهر احدنا على الاخر حتى كان من شؤم طالعه انه وثب عليّ وثبة دفعتها بها وصرعته على الارض فاخذتني الشفقة عليه ودبّ في عروقي دم النخوة فلم ابادره بالاغتيال وانما قلت له انهض ايها الامير من كبوتك لنرجع الى الصراع والعراك فقال ولمَ لاتقتلني وقد صرعتني الى الارض فقلت والله ما تعودت الغدر والخيانة ولا ارى شرفي يذللة هذا الفعل المنكر فوقف على حياله وقال قد صدر منك من سماحة النفس مالم اره في الناس الا قليل واني والله لاستحي الان من قتالك وقد كان في امكانك ان تمزق بالسيف صدري ولكني اطلب الصفح اليك واروم ان تكون محبًا لي واكون انا محبًا لك فاغمدت السيف عند ذلك ووقع كلامه في قلبي موقعًا حسنًا وقلت يا سيدي اني اكون لك صديقًا واول ما اعدك به اني لا اجالس مولاتك اذا ندبتني اليها فقال انت احق بالجلوس اليها مني فقلت ياسيدي كفى بانك كلفت بها حتى اتركها لك ولا اكدر صفو خاطرك في شيء فقال ايها السيد الشريف لله درك ما اكرمك وما احسن صفاتك . ولقد ندمت الان على ما صدر لك من الاهانة وانا احب ان اتقرب اليك وسازوجك بابنة اخي واعطيها جهازًا وافرًا ومالاً تتقلبان فيه معًا فشكرت رقة الامير واحسانه وعلم اهل البلاط الملكي بذلك فسروا كثيرًا من حسم المسالة على هذا النكل الذي لم يحوجنا الى سفك دم ولم يمض زمنٌ بعد ذلك حتى تزوجت على ابنة اخيه وهي من الحسن والجمال ما لاسبيل الى التعبير عنه بلسان وانا لا ازال لهذا اليوم كلفًا بحبها ولا يزال عمها يظهر لي في كل يوم تعطفًا جديدًا وقد عظم قدري في عين الملك وفوض اليّ بعض اموره وقد جئت الى مدريد برسالة من لدنه ايضًا اه

فصل

قال جلبلاس ولما مضى جزء طويل من الليل رجع سيدي الى منزله وما زال راقدًا الى قبيل الظهر حتى اذا افاق من نومه تقدم اليّ ان آخذ قلمًا وقرطاسًا لاحرر له رسائل غرام عن لسان بعض الشريفات ليفتخر بها على الاسياد من خلانه فامتثلت امرهُ على كره في نفسي لاني ما كنت تعودت التزوير قبل ذلك ولكن املت انهُ اذا علا مقامهُ بين الاسياد فيعلو مقامي بين الخدمة فنص عليّ رسالة عن لسان امراة شريفة اسمها مية وقال بعد السلام لم لم توافيني البارحة يا مالك فوادي افكنت مذنبة اليك ولا اظنك تقاعست الا من حيث اني وعدتك بوصال مني قريب واليك اشواق من قلب لا يزال بك ولهًا واليك متجهًا . ثم نص عليّ رسالة ثانية عن لسان غيرها من ربات الخدور يقول فيها انها تقدمهُ على الاسياد كافة وتوثرهُ عليهم جميعًا . ثم نص رسالة ثالثة يقول عن لسان صاحبتها انها لو عرفت اضراب لسانهِ عن اباحة السر لكانت تشير اليهِ ان يختلف اليها ويجالسها في اكثر الايام فلما فرغت من كتابتها تناولها مني وسار الى منزل بعض الاسياد وقد اتخذ وليمة عظيمة وصنع طعامًا كثيرًا وزخرف مجالسهُ وهناك اسياد قد ضحكوا واخذوا في سرد حكايات ظريفة زعموا انها توقعت لهم ففطن سيدي لكلامهم ولم يفوّت هذه الفرصة دون ان يطلعهم على الرسائل المزورة فتناولها بيدهِ وجعل يقرأها بجد كامل حتى اتى عليها وهم يصدقون كلامهُ الا رجل كان يصاحب مية وقد سال سيدي عن كيفية جلوسهِ اليها فقال ايها السيد اني التقيت بمية في المتنزه فعشقتني وسرحت غلمانها في البحث عن موضعي حتى اهتدوا اليّ فسر اليها

فبت فيها شئت من نعمة
يخنيها سحرها والفمُ
حتى اذا الصبح بدا ضوءهُ
وغارت الجوزاء والمرزمُ
خرجت والوطئ خفيٌّ كما
ينساب من مكمنهِ الارقمُ

فاضطرب وجه الرجل واحمرت عيناهُ وقال لسيدي ان رسائلهُ مزورة ولا سيما ما كان محررًا عن لسان مية اذ انهُ يؤكد انها لا تميل لسيد غيرهِ وان ليس في النساء من هي اشرف منها فقال لهُ سيدي انا لا انكر ان صاحبتك شريفة كما اني انا شريف في الرجال ايضًا فلا يشين عليها اذا حدثتها وجلست اليها مليًا فقال دع عنك هذا الاستهزاء ووالله لن احتمل على نفسي ما كان من تسفيهك لعرض مولاتي وسيكون انتقامي منك ما تراه بعينك لا ما تسمعهُ باذنك قال هذا وخرج من المجلس مغضبًا فقدرت للحال ان سيكون من هذا الامر خطب جسيم . غير ان سيدي لم يبال بذلك وقضى بقية ليلتهِ بحظ وانشراح ولم ينصرف الى منزلهِ الا قبيل الفجر فنهت ساعةً في فراشي واذا بالحاجب قد دخل عليّ وقال ان بالباب رسولاً فقلت قل لهُ ان يعود اليّ بعد قليل لاني قتيل النعاس فقال لا وانما يروم مواجهتك الساعة فوثبت من فراشي مغضبًا وسالت الرسول عن المهمة التي ندبني اليها قبل طلوع الشمس فقال انهُ يحمل رسالة لسيدي لا يكون من الامور ما هو اهم لديهِ منها فنكرت ان يكون لهُ في ذلك امر حسن وما لبثت ان دخلت عليهِ واعلمتهُ بمجيء الرسالة واذا بالرسول قد تبعني وسلمها اليهِ ففضها وقراها واذا هي من لدن السيد الذي خاصمهُ من شان مية فقال للرسول قل لصاحبك اني لا افيق من النوم قبل الظهر فاذا كان ينتظرني في ذلك الموضع الى ذلك الوقت فاني اوافيهِ اليهِ والا فاني لا اسير قبل الظهر الى مادبة الملك نفسهِ فماذا ظنك في خروجي قبل ذلك الوقت الى القتال

والصراع قال هذا وغاص في فراشه ونام الى قبيل الظهر ثم انه افاق وخلع عليه حلله بكل هدو وسكينة وخرج موعزًا اليّ بان لا اتبعه فاظهرت اني امتثل امره بذلك حتى اذا نزل السلالم تبعته عن بعد وتخبأت وراء بعض الاشجار في الموضع الذي كان ينتظره خصمه للمبارزة فلما التقيا ببعضهما تواثبا وتجادلا ساعة طويلة دون ان يظفر احدهما بالاخر ثم ان الخصم خزله الله اشتد على سيدي واغتاله بضربة حربة في صدره فصرعه الى الارض وفر للوقت مسرورًا من هذا الانتقام اللعين فبادرت الى سيدي بعد هربه فاذا هو لا يعي من شدة الالم وتكاد روحه تندفق من جروحه فبكيت عليه بكاء كثيرًا لما كان من كتابتي الرسائل عن لسان الاميرات ثم مررت الى المنزل وجمعت ثيابي واشياء من متاع سيدي وحملتها الى حانوت حلاق تعرفته مخافة ان يستولي عليها اقاربه دوني ثم تجولت في الاسواق اخبر بهذه النازلة الفادحة ودخلت على الدرين الخولي واخبرته بذلك فجمع الخدم والغلمان وذهب بهم الى موضع القتال فالفى سيدي في اخر ساعة من ساعات الدنيا فحمله الى منزله ولم يلبث فيه قليلاً ان اسلم روحه وهكذا انتهت ايامه بالقتل من اجل انه قرأ على اصحابه رسائل لم يوجهها اليه احد

فصل

في خدمة جليلاس لمغنية مشهورة

ولما دفع لي الخولي اجرتي خرجت الى منزل الحلاق ونزلت عليه ضيفًا اشاركه في نفقة بيته دون ان اسعى الى وجود خدمة لتوفر الدنانير في جيبي ثم اني سرت الى منزل عزة تلك البغي التي كان يذهب اليها سيدي وجلست الى ليلى الخادمة التي نلت منها الوصال واخذت اعلمها بما كان من امر سيدي رحمة الله فاجبت ان ادخل في خدمة سيدتها ليتواصل جلوسي اليها فتبسمت بادي بدء لما كان من قسمي بانني لا اخدم غير الاسياد فقالت لي ان البغي لسن من طبقة العامة وان كثرت مخالطتهن الاشراف واختلافهم اليهن ما يرفعهن الى مقام ربات الخدور بان ملكن الخيول والعربات والخدم والجواري ما لا يكون عند كثير من نساء الاشراف . ثم اوردت غير ذلك من الكلام الذي حملني على قبول طلبها فعدت اليها بعد مضي يومين فبشرتني بانها اقنعت سيدتها بان اتولى امر نفقتها وادخلتني عليها وعرفتني اليها وقد بث حيران لمرأى العزة التي كانت بها وفي منزلها الفرش النظيف والخزائن المخرمة والبسط من الديباج والاستار من القدمس والثريات المغشاة بالبلار حتى حسبت نفسي في منزل ملكة من الملكات وهناك اشكال من التحف قد اهداها لها العشاق الذين اختلفت اشكال تحفهم باختلاف البلدان والاقاليم التي وفدوا منها . فلما رأتني عزة في ثياب نظيفة وهيئة حسنة سرت مني ووعدتني بان تشملني باحسانها ثم نزلت وقطعت النهار كله مع الخادمة في الملاعبة حتى جاء المساء فسرت مع عزة الى الملعب وجلست وليلى في موضع اراء المشخصين منه واسمع غناءهم وهي في خلال ذلك تحدثني عن سيرهم ونوادرهم دون ان تخفي علي امرًا من امورهم حتى انتهى الفصل الاول ثم الثاني بعده فقامت من موضعها ووقفت وراء الملعب وجلس اليها جماعة من المشخصين يحدثونها فاضطرمت في قلبي نار الغيرة فابنت لها عن شيء من ذلك فضحكت وحسست ذلك مني حمقًا واوردت لي كلامًا طويلاً تضحك فيه على اهل الغيرة حتى ظننت كلامها صادقًا وصرت فيما بعد ارى المشخصين يحدثونها ويجلسون اليها دون ان ناخذني لذلك غيرة وكانت عادة الاسياد انهم يدخلون على عزة بعد فصول اللعب ويتعشون عندها

ويبيتون في منزلها الى الصباح في مسامرة وملاعبة او كان يأتيها جماعة من الامراء والشيوخ فيتحدثون اليها ويدفعون لها من المال مالا يدفعهُ الشبان في ليال الوصال ثم كان يأتيها بعض مولفي الروايات والاغاني ليعرضوا عليها تصانيفهم فتعبس في وجوههم وتجفرهم احتقارًا زائدًا حتى تتمكن من كثرة الاجرة في تشخيص رواياتهم او الغناء في الحانهم او اصواتهم

ولما مضى علي نحو اربعين يومًا في خدمة عزة وقد فسد ضميري وعلمت ان ليلى تذهب في اكثر الايام الى بيت العجوز لتصطاد الشبان والغرباء بمثل ما وقعت انا في شركها سئمت من عشقها وحملتني بقية دين وتقوى في قلبي على العدول عن هذه العيشة الشريرة وانتظرت يومًا لم يكن علي فيهِ مراقبة ان حملت بقجتي وانصرفت من منزل عزة دون ان استاذنها بذلك وان اودع ليلى وانا راج بان اقصد احدًا يدبر لي مصلحة اجدمنها معاشي على حين لا يفسد ضميري في شيء من المواظبة على امورها

الجزء الرابع

فصل

في استخدام جلبلاس في منزل سيد قائد

قال جلبلاس وبينما كنت منصرفًا من منزل عزة المغنية ومعي بقج الثياب اعترضني في بعض الطريق لذريق الخولي وسالني عن شاني واموري فاجبتهُ اني انفصلت في هذا اليوم عن خدمة بعض المغنيات وقد آلفت من الفسق في منزلها ما رحمني الله بابعادي عنهُ فقال من حيث اني اودك واروم خيرك وصلاحك فاتبعني الى مجلس بعض القواد الاسياد ممن اعرف خوليهُ فاوصيهِ بك فيقدمك على سائر الغلمان والخدمة فشكرت معرفتهُ وسرت واياهُ الى قصر هذا السيد وما لبث بعد كلام مع الخولي ان اقنعهُ على ان يقتبلني في عداد الخدمة . وكان سيدي شيخًا جليل القدر كثير المال يعيش بهدو وسكينة ولهُ اراء سديدة في تدبير منزلهِ وسياسة ملكهِ ولم يرزقهُ الله من البنين الا فتاة بديعة الجمال يقال لها نور الصباح

ولما مضى علي نحو من ثلاثين يومًا في خدمتهِ لحظت ان ابنتهُ تقدمني على سائر الخدم وتنظر الي بعين رقيقة وتهش في وجهي وتظهر سرورها من رؤيتي فظننت ان عشقي قد وقع في قلبها واخذت ازين نفسي والبس الحلل النظيفة وانفق مالي على ابتياع المسك والطيب والبخور حتى لم ابقِ في جيبي دينارًا واحدًا وكنت اتجمل كل يوم من قبل طلوع الفجر وامشط شعري وانطيب بالمسك حتى اذا ندبتني اليها لازورها على خفية لم ادخل اليها في حال غير منتظمة

فلما كنت في بعض الايام وانا اعلل نفسي بآمال الوصال جاءت الي قهرمانة من خدم القصر وامرتني بان انزل في منتصف الليل الى موضع من البستان ذكرتهُ لي وقالت انهُ بذا امرت نور الصباح واحبت ان اكون كاتمًا للسر فسررت من كلامها سرورًا لا مزيد عليهِ لتحقق آمالي من الوصال وصرت ارى اليوم بطيء المضي لفرط اشتياقي الى حلول الميعاد فمضى من الاصيل الى الغروب زمن خلتهُ دهرًا طويلاً ومضى من الغروب الى ساعة رقد فيها سيدي ما خلتهُ مثل ذلك ايضًا وكان من تكد الحظ ان سيدي اقبل علي في تلك الليلة يحدثني بالحروب التي باشرها والغزوات التي شهدها وما كان من كرهِ وفرهِ في القتال الى غير ذلك من الحديث الذي كاد يقتلني ضجرًا فانتظرت الى ان رقد وقمت الى مخدعي وتزينت وطلست بدني كلهِ بالطيب ومضيت الى البستان مسرعًا فتجولت فيهِ ولم ارَ القهرمانة فقدرت انها تكون قد جاءت ثم عادت لما لم ترني قد جئت فقعدت اروي حديث سيدي الي

واذا بساعة تدق من موضع قريب وتشير الى ان ذلك الوقت قبل نصف الليل بساعتين فتعجبت من اشارتها وظننت انها تسير على غير انتظام واذا بواحدة غيرها تشير الى مثل ذلك وقد مضى نحوًا من عشر دقائق على اشارتها فنمت اتمشى في البستان وانا اقلب في عقلي ارائي من شان سلوكي مع معشوقتي وكيف انطرح بين قدميها وآخذها باللطف والرقة كمثل تصرف الشبان مع ربات الخدور واذكر لها خفقان قلبي وشدة وجدي وهيامي بها حتى ازف الميعاد واذا بالقهرمانة قد وفدت عليّ وسالتني عن الوقت الذي اقمت به في البستان فاخبرتها اني جئته قبل الميعاد بساعتين فضحكت مني وقالت وهي تهزأ بي لله درك ما اصدق وعدك في انجازه يا جلبلاس ثم فان حصولك على نعمة نور الصباح وما يكون من جلوسك اليها الامرين يستخفان ما شئت من طول الانتظار ثم انها اخذت بيدي واطلعتني الى مقصورة سيدتها من سلم خفية من سلالم القصر

فصل
في عشق نور الصباح وحيلتها للاجتماع بمحبوبها

فلما دخلت على نور الصباح رايتها في قميص النوم فكدت اطير من شدة الفرح فسلمت عليها بحشمة وادب فردت عليّ السلام واستدنتني منها وامرت قهرمانتها بالانصراف فسرني ذلك اكثر من كل شيء لتيقني بودها القريب حتى اذا اختلوت بها قالت لي يا جلبلاس ربما فهمت عني اني اظهر لك ميلاً لم اظهرهُ لاحد من اعوان ابي وانك اذا لم تصدق ذلك في نفسك فان ايعازي الى القهرمانة بان تدخلك عليّ لما يزيد ريبك فلم ادعها تتم كلامها حتى انطرحت على الارض بين قدميها كما تفعل الاسياد وقد رمت ان لا اذل شرفها بما يكون من الاباحة والهوى واخذت اشكر جميلها واذكر عشقي لها كمن كاد يقتله الغرام

فلما وعت كلامي اخذتها قهقهة من الضحك وامرتني ان اجلس في موضعي ولا انفض في الكلام مخافة ان يقع في اذان القهرمانات اللاتي يبتن في مقصورة بجانب مجلسنا ثم قالت ايها الفتى اني اثق بك واريد ان اسرّ اليك امرًا لا يزال يتردد خاطري اناء الليل واطراف النهار فاعلم اني اعشق فتىً من الاسياد يقال له دون لويس وقد رايته مرارًا جمة في المتنزهات والملاعب ولكني لم اتحدث اليهِ بعد . ولما لم يكن لي علم بشانهِ وهل فيهِ عيوب تشينهُ جئت ابح اليك بهذا السر حتى تبحث لي عنهُ بامانة لا اندم معها على اباحتي بهِ اليك

فلما سمعت كلامها وعلمت انها تعوزني لرسالة لا لعشق اسفت لما بدر مني في حضرتها وعلى وجهي احمرار الخجل بيد اني اعملت على تقوية نفسي ووعدتها بصدق خدمتها ليكون من همتي بذلك ما لا تفطن معهُ لما كان من وثوبي عليها المتواد وهي بمكانتها من الشرف والامارة وانا خادم من صعاليك الناس . ثم عدت الى مخدعي خائب الامل من وجه اني انتظرت في البستان برهة خدعت بها ومعلل الامل من وجه انهُ حصل لي في هذه الخدمة منها ما لا احصل عليهِ لو كنت حبيبها . فلما لاح الصباح نزلت الى السوق واستهديت الناس الى قصر هذا الامير فدلوني عليهِ فسالت الجيرة عنهُ فلم يحدثني احد عن طباعهِ فوقفت في بعض الطريق مع خادم من خدمة الاسياد الذين تعرفتهم قبل ذلك واذا بخادم تعرفهُ قد وقف اليهِ واخبرهُ انهُ انفصل في ذلك اليوم عن خدمة السيد الذي اخذت في البحث عن طباعهِ وجعل يقدح فيهِ ويذم خصالهُ فعدت الى قصر سيدي وجلست اليهِ للحديث حتى حضر الميعاد وانا لا اتململ من كثرة كلامهِ لاني احببت الجلوس في حضرتهِ من ان اجلس في

البستان ولبثت انتظر حتى دقت اخر ساعة من الساعات التي سمعت طنينها بالامس فنزلت الى البستان غير مضطرب الافكار ودون ان اضع عليَّ طيبًا فرايت القهرمانة هناك وقد اوعزت اليَّ بان عمتي قد ضعفت وصارت الى التواني فلم ارد عليها جوابًا وما زلت سائرًا معها حتى ادخلتني على سيدتها فلما رأتني قالت ما وراءك يا جلبلاس فقلت ما تروقين يا سيدتي واعلمتها بما كان من حديث الخادم وان دون لويس سيرتحل الى سلمنكة بعد ايام لدراسة الحكمة وانهُ رجل كريم الاخلاق سني الهمم ليس في الخلاعة من يضاهيهِ ولا في الفروسية من كي بصارعهُ غير ان الخصلة التي تعودها في صغرهِ هي ان يميل الى اللهو ولا ينفك عن مجالسة البغي فلما وعت ذلك استحوذ عليها قهر وانقباض وقالت اتوكد انهُ يجالس الفواجر المغنيات فقلت نعم يا سيدتي هوذا ما رواهُ خادمهُ لنا ولست ارى الخدمة الا يصدقون الرواية عن خصال اسيادهم فقالت كفى يا جلبلاس واني اعاقد نفسي على رفع عشق هذا الامير من خاطري وان كان متمكنًا من فوادي ثم ناولتني كيسًا فيهِ عشرون دينارًا وامرتني بان احفظ السر كاتمًا في صدري فوعدتها بذلك وشكرتها على احسانها وانصرفت من حضرتها اسقًا لكوني اخبرتها بالشر عن محبوبها بما يزيل عشقهُ من فوادها ثم يحرمني من هباتها في الايام اللاحقة بيد اني سررت من حصولي على هذه الدنانير التي عوضت بها قيمة ما انفقتهُ على مشتري الطيب الذي طلست بهِ نفسي املاً بوصال منها يشفي الفواد نارهُ

واتفق انهُ في غضون تلك الحوادث ان نال سيدي دالاعضال ازم بهِ الفراش فعادتهُ الاطباء وفيهم طبيبان تخالف رايهما في العلاج فقال احدهما بالمقيء وقال الاخر خلاف ذلك فراح سيدي شهيد المناظرة بينهما فاقامت لهُ نور الصباح جنازة تليق بمقامهِ ثم حاولت العزلة عن الدنيا الى قصرها مبني على نهر الثاج وقد صرفت خدم ابيها الا جماعة قليلة بقيت انا في جملتها . وكان عشق محبوبها متغلبًا عليها مع كل ما اعملت لازالتهِ من قلبها وقد قالت لي انها تحسبهُ رجلاً صادقًا في مودتهِ رفيق الثاب لا كما نقلت اليها من انهُ مخنث يجالس الفواجر وكانت تبكي كلما حدثتني عنهُ وانا يهيجني بكاها فابكي مثلها لاظهر لها اشتراكها في غمومها . فلما كان بعض الايام وقد امتثلت بين يديها اعلمتني بانهُ اعتزمت على اللحاق بهِ الى سلمنكة حيث يسير وانها هناك ترتدي بلباس الرجال وتذهب اليهِ وتجدثهُ عن نفسها مظهرة انها هي ابن عم نفسها حتى يلين لها ترتاد قيادهُ وانها تستاجر هناك دارين تظهر نفسها في احداها كما هي حقيقةً وتزعم وهي في المنزل الاخر انها ابن عم نفسها عساها تستجلب ميلهُ في هذه الحيلة اليها . فتعجبت منها في نفسي كيف اعتزمت على مباشرة مثل هذه الحيلة الخطرة غير اني سكت عن تبيان عيبها اليها واخذت اهون لها الامر واقنعها على مباشرتهِ حتى يتهيأ لي كسب المال في خدمتها بهِ فوقع رايها على ان قهرمانتها تجعل نفسها عمتها وتتخذ لها خادمين من الغلمان وان تكون هي ابن عم نفسها واكون انا في خدمتها مع فتاة تخدمها في مخدعها سرًا ثم ما ابثنا ان سرنا الى مدريد وقد علمنا فيها ان دون لويس قد اعتزم على السفر الى سلمنكة فجهزنا حاجاتنا واشترينا الثياب اللازمة لمباشرة هذه الحيلة واستاجرنا عجلة تجرها اربعة افراس وسرنا بعون الله الى مدينة الامير المحبوب

فلما كنا في بعض الطريق وقد قطعنا بلدانًا شاسعة اتفق ان انكسر بنا بكرة من بكرات العجلة ونحن بمحاذاة جبل قد بني على سفحهِ قصر مشيد الاركان فوقعنا في ارتباك عظيم ولا سيما لما كان من قرب دخول الليل ثم وفق الحظ ان مرَّ من هناك فلاح

واشار الينا بان نسير الى القصر ونطلب الضيافة من ربتو لقولهِ انها اميرة كثيرة الخير واسعة الكرم فسرت اليها بامر سيدتي ورجوتها بان تضيفنا عندها تلك الليلة كرمًا من لدنها فقبلت بذلك بعد ما ابديت من براعة الطلب واحتفلت بنا احتفالاً عظيمًا وامرت خدمها بان يعلفوا الخيل وامرت بعض النجارين ان يصلحوا البكرة المتعطلة فاشتغلوا في ذلك من غد اليوم ولم يفرغوا من عملهم الا في ظهر اليوم التالي فكانت اقامتنا في القصر نهارًا وليلتين وقد وجدنا فيهِ اسباب المسرات والملاهي واكلنا اكلاً نفيسًا وشربنا شرابًا كثيرًا وكان في كل المناصير صور علقت على الجدران واحسنها ما علق في غرفة الاكل ومنها صورة محزنة تمثل سيدًا مصروعًا الى الارض غرقان بدمهِ وفي وجههِ سمات ما بين الغضب والانتقام والى جانبهِ فتاة قد طعنت في صدرها بحربة وهي تنظر الى سيد واقف الى جانبها وفي وجههِ رسم اليأس لمفارقتها اياه والى ماورائهما امير طاعن في العمر يكاد يقع الى الارض لمرأى هذه الاحزان كما يظهر من حالهِ فتعجبنا من ذلك وبادرت سيدتي صاحبة القصر بالسوال عن شان هذه الصورة وما تمثل من الوقائع فاجابتها انها تمثل المصائب التي لحقت باهلها في قديم الزمان فتشوقت سيدتي الى معرفة القصة وطلبت اليها ان تحدثنا بها فوقع منا السكوت واخذت في سياق الحديث فقالت

فصل
في زواج الانتقام

وعش خاليًا فالحب راحتهُ عنا
فاولهُ سقمٌ واخرهُ قتلُ

كان على جزيرة صقلية في السنين الخالية ملك يقال لهُ مهرجان ولهُ اخ يقال لهُ مروان واخت يقال لها بوران وكانت بينهُ وبين اخيهِ عداوة انتهت بهما الى الخصام فاقتتلا في مواقع قامت الحرب فيها سجالاً وقدر الله ان يتم الظفر لهُ فاخذ اخاهُ وطلس بهِ في بعض السجون وكانت بوران تسعى بهِ اليهِ في كل يوم ليضيق عليهِ فمات بعد سنين من شدة الضنك وما كان من الله سبحانهُ وتعالى الا ان ارسل الى بوران ما اهلكها بهِ وما سامحها الله عن الذنب الذي اقترفت وافاض على اخيها سجال المغفرة والرضوان

ولما مات مروان خلف ولدين في حداثة السن يقال لاحدهما الفونس والاخر دون لزريق وكان في عزم الملك المهرجان ان يقتلهما من قبل ان تنبط الشائعة عنهما مخافة انهما اذا نشاءا طلبا منهُ بثار ابيهما فشاور في ذلك وزيرًا لهُ يقال لهُ فرنان وكان من عادتهِ ان يعتمد عليهِ في الامور ويرجع اليهِ في كل مشاورة. فلم يشر عليهِ فرنان بذلك وتقدم اليهِ بالرأي السديد ان يجعل الامير الكبير في منزلهِ فيؤدبهُ ويجعل الصغير في منزل الوزير الثاني فيثقف عقلهُ وانهما اذا نشاءا على التاديب الذي تكمل لهُ باعطائهما منهُ اوفر نصيب لا يكونان الا من عبيد الملك واحبائهِ. فامتنع المهرجان في بادىء الامر ثم لبى طلب فرنان لكثرة الحاحهِ وسلم اليهِ الفونس وسلم دون لذريق الى الوزير الثاني واخذ هو يعتني بتاديب ابنة لبوران يقال لها سلطانة واقام لها الخدم الكثيرين والمؤدبين من رجال ونساء

وكان لفرنان هذا الوزير قصر في ضواحي بلرمة حاضرة الدولة فاخذ الفونس اليهِ واحسن تاديبهُ وتوسم فيهِ من الذكاء والنبالة ما حملهُ على استمرار التحفظ بهِ. وكان للوزير ابنة فاتنة الحسن يقال لها ضياء وهي اصغر في العمر من الفونس بسنة واخرى يقال لها دلال وهي دونها جمالاً فلما نشأت ضياء معهُ وصارت هي في صباها وصار هو في صباهُ وقع بينهما حب كاشد ما يكون وعملا الجهد كلهُ على ان لا يدعا الوزير يفطن لشيء من امورهما حتى اتفق ان الملك امرهُ بالتحول

في انحاء المملكة لتفقد احوال الرعية ورد المظالم الى اهلها فاغتنم الفونس فرصة غيابه واخذ في فتح باب في الجداد الذي كان قائمًا بين منصورته ومقصورة ابنته وجاء بنجار دفع له مالاً كثيرًا في سبيل الاطماع حتى يحسن عمله ويبقي السر مكتنمًا في صدره فاتخذه بين الرسوم التي كانت تغشى الجدار على احكام ليس في الامكان اصح منه وكان بحيث اذا أغلق لم يفطن الرائي ان في ذلك الجدار بابًا لكثرة ما هنا من النقوش والتخاريم . فلما حقق الفونس بغيته فيما اراد من وصوله اليها سرًا اصبح يدخل عليها في اكثر الايام ويبيت معها في حديث وتقبيل وملاعبة ليس غير لانها حلفت عليه حين اذنت له بنقب الحائط انه يدخل عليها لمبادلة الحديث بينهما لافتضاحهما ومد يده اليها سبيل الفسقة من العشاق . فلما دخل عليها في بعض الايام رآها ضيقة الصدر حزينة النفس فانكمش لذلك وسأل قهرمانتها عن الامر الذي اوجب كدرها وكآبتها فقالت وصل اليها ياسيدي ان المهرجان عمك قد انطرح على فراش الموت فقدرت انك اذا توسدت الملك وصار اليك امر الامة فقد اشغلك العز والنعيم واسكرتك العظمة والقدرة عن التفطن لها والقيام بعهودك اليها . فلم يدعها تختم مقالها ان دخل على بنت الوزير وقال لها ياسيدتي كاني اراني الكدر مرسومًا على وجهك الفتان فيا لله الا اصدقيني الخبر فلما رأته هيج الشوق بكاها واغرورقت عيناها بالدموع وكاد لايأتيها الكلام فسكتت قليلاً ثم قالت لا شيء يوجب لي الكدر غير ان صدري ضيق اليوم فقال لا والنبا احلفك بحق حبي لك ان تنطقي الي بالحق فقالت ياسيدي وامير الناس عمك المهرجان قد احتضرته الوفاة فاذا تبوأت الاريكة موضعه اشغلك امر الامة دوني وصرفك الاقتدار عن النظر الي لاني سمعت عن الامراء انهم اذا راموا حال ولاية عهدهم اشياء تطلبها نفوسهم فهم معرضون عنهم بعد جلوسهم على اريكة الملك وحتى لو امنت من جهتك على وفائك بحق الوداد لم امن من جهة طالعي ان لا يحون هنائي وسعادتي بك فلما سمع كلامها كادت تتفطر مرارته رحمةً عليها وقال لها ياسيدة الملاح ان تمكن اليأس منك على غير موجب لما ينتت قلبي شفقة عليك وان تصورك الخيانة فيّ يصرف قلبي عن حبك لما يذلل عشقي ويجرح خاطري ولكن رجائي اليك ان تصرفي هذا الحزن وتعلمي ان سعادتي وفخري لايتمان الا بك فقالت ايها الامير لا يبعد انك اذا اعتلوت السرير طلب اليك الوزراء والاشراف ان تتاهل باميرة من بنات الملوك لتزيد عظمتك افتخارًا او مجدًا وربما خانني دهري بان يجعلك مجيبًا لمسؤلهم . فانتفض عرق الحدة بين عينيه وقال لم تجابين الكدر والقنوط لنفسك ياحبيبتي على غير طائل فاني اقسم بالله ان اذا وليت الملك تزوجت بك في بارمة على محضر من الامراء والملوك . فلما سمعت ضياء قسمه سكن روعها واطمانت نفسها واخذت واياه يتجاذبان اذيال المذاكرة عن مرض الملك المهرجان وكان يظهر من كلام الفونس انه كدرٌ لوفاة عمه مع ان اميرًا غيره كان يسر من وفاة ملك يورثه ملك الدولة ولا سيما اذا كان له عليه ثارٌ . فباتت ضياء بعد قسم الفونس يوفاء عهده اليها في راحة وامن ودعة وهي لم تعلم بالخطب الذي كان يحدق بها من جهة اخرى فان وزير الدولة الثاني المعروف بالمركيس قد كان راها في بعض الايام فتتن جمالها عقلة وخطبها من ابيها فوعده بان يزفها اليه ثم اتفق ان الملك مرض فاخر الزفاف الى اجل مسمى وامر الوزير فرنان جماعته ان لا يعلموا الفونس ولا ابنته شيئًا من ذلك الامر

فلما كان الفونس صباح يوم في مقصورته فاجأه الوزير ومعه ابنته ضياء وقال له بعد السلام ياسيدي

ان الخبر الذي احملهُ اليك يكدر صفو خاطرك ولكن البشارة التي اتبعهُ بها تسر خاطرك وترفع مقامك فاعلم ايدك الله ان المهرجان عمك قد مات واوصى اليك بالولاية بعدهُ فهنئت بالعطية وخفق لواء سعدك على انحاء بلادك منصورًا . وان الاشراف والامراء والقواد قد اجتمعوا ببابك في بلرمة لمبايعتك واني حملت نفسي اليك وابني معي لتقدم لجلالتك خالص التهنئة بما اعطاك الله . فلما سمع كلامهُ لم يخامر التعجب نفسهُ لانهُ كان عالمًا بمرض عمهِ ودنو اجلهِ من قبل ذلك بشهر وايام . واذا صار صدرهُ بعد سماع كلامهِ ميدانًا تتسابق فيهِ الافكار وتضطرب فيهِ الشعائر ففكر ساعةً ثم قال يا ابت اني اتخذك وزيرًا لي اعتمد في الامور على آرائك المباركة لاني رأيتها تحسم النوازل كانها سكاكين في مفاصل الخطوب ويكون لكلامك نفوذ كأبلغ ما كان لايام عمي رحمهُ الله . ثم انحنى على مائدة هناك ووضع خنصهُ على قرطاس لاكتابة عليهِ وسلمهُ الى ضياء وهو يقول خذي ياسيدتي هذا القرطاس واكتبي فيهِ ما اردتِ فوق الختم وهو يدلك على اني ارضى بكل ما تشائين وان عشقك قد بلغ مني مبلغًا لاسبيل الى التعبير عنهُ بالقلم ولا باللسان فلما سمع فرنان كلامهُ اخذ العجب منهُ لغفلتهِ عن ادراك عشقها قبل ذلك وسلمت ابنتهُ القرطاس اليهِ وقد قالت للملك وفي وجنتيها احمرار الخجل ياسيدي اني اقتبل النعمة التي يمطر جلالة الملك علي خيرها بشكر لامزيد عليهِ ولكن لي اب لا اعتزم على امرٍ الا بمشيئتهِ فانا اسلم الرقعة اليهِ وهو يكتب فيها ما يشاء بحكمتهِ ودرايتهِ .

فقال الوزير للملك يا سيدي اني اكتب في هذه الرقعة ما توسمني شكرًا عليهِ فيما بعد فقال لهُ اكتب بها ما اردت ايها الحكيم الفاضل فانك لطيف النظر ولكن اسرع الان الى بلرمة وخذ مبايعة الجند والامراء وبلغهم سلامي وقل لهم اني اسير اليهم بعد وصولك بقليل فما كاد يتم كلامهُ ان انصرف الوزير وابنتهُ وركبا العربة الى برملة وهي تبعد اميالاً قليلة عن موضع القصر هذا ما كان من امر الوزير وابنتهُ

اما الملك الفونس فانهُ بعد انصراف الوزير بساعة ركب جوادهُ وقصد مدينة برملة لينزل من قصر السلطنة وبالهُ يشغلهُ العشق فلما رآهُ الناس ارتفع فيهم الدعاء لهُ واصوات الفرح والسرور حتى دخل مجلسهُ في القصر فرأى سلطانة بنت بوران عمتهُ في ثياب السواد فعزاها وعزتهُ ثم ارتفع على السرير وجلست هي على كرسي دونهُ وقد ظهر انها تحبهُ في قلبها مع ان العداوة بين امها وابيهِ كانت في اشد ما يكون ثم جلس الامراء والقواد على كراسي ووسائد ثنيت لهم وقام فيهم فرنان الوزير خطيبًا وتلا وصية المهرجان اليهم يقول في بعضها انهُ لما لم يرزقني الله ولدًا يلي الملك بعدي فاني اجعلهُ ارثًا لالفونس ابن اخي على شرط ان يقترن بسلطانة بنة اختي فان ابى ذلك فيصير الملك الى اخيهِ دون ازربق على الشرط عينهِ وهذه وصيتي الى الامراء والقواد

فلما وعى الفونس ما في وصية عمهِ كاد يخلع قلبهُ من الغم والكدر وما لبث الوزير ان اتمم تلاوة الوصية بقولهِ للحضور ايها الامراء اني لما بلغت جلالة الملك مرام عمهِ المهرجان من زف سلطانة اليهِ لم يتردد ساعةً في قبول ذلك . فازداد عم الفونس حتى بان الكدر في وجههِ وقال للوزير ولكن اذكر يا بهرام القرطاس الذي سلمتهُ الى ابنتك ضياء فاجابهُ الوزير وقد رفعهُ على مشهدٍ من الامراء ان ما كتب في هذا القرطاس هو وعدك بان تقترن بابنة عمتك وتتمم كل ما ذكر في وصية عمك ثم فتحهُ وقراه على مسمع من الامراء والاعيان فسروا من حسن عواطف الملك وارتفعت اصواتهم بالدعاء لهُ وهم غافلون عما كان في نفسهِ حتى اذا تفرق جمعهم الا قليلاً وابتعدت عنهُ سلطانة التي

ما فتئت تبث اليهِ همومها بهِ وهولا يعقل كلامها لشدة اضطراب عقله قال للوزير فرنان انت ختني وحق السماء وانما كان الواجب عليك ان تكتب في القرطاس ما كان من الاتفاق والعهود بيني وبين ابنتك فقال لهُ الوزير ياسيدي تمعن بتروٍّ في الامر فان انت خالفت وصيت عمك المهرجان فقد بخست نفسك حقها واضعت الملك من بين يديك قال هذا واتئد عنهُ حتى لا يسمع جوابهُ فغضب الملك غضبًا شديدًا وبات بين اعتمادين في نفسهِ فاما ان يعتزل عن الملك واما ان يقترن بابنة عمتهِ ففكر في ذلك برهةً فوقع في ذهنهِ ان زفافهُ بابنة عمتهِ لايكون الا بعد برآءة من لدن البابا تاتيهِ بعد شهر او شهرين وانهُ في تلك المدة يولي المراتب العظيمة من يأمن خيانتهُ من الامراء والقواد حتى اذا نقض الوصية لم يتفقوا على خلعهِ ويبات امر الامة في يدهِ . فلما وقع هذا الراي في نفسهِ سكن روعهُ واطمانت نفسهُ وحقق بغيتهُ بما اراد من الاقتران بضيآء حبيبتهِ ولم يطلع احدًا من الناس على ذلك وكان يجابر سلطانة بالكلام اللطيف ويثبت لها كلام بهرام في انهُ يحب الاقتران بها حتى لا تهب اعصار الفتنة قبل تداركه اياها بالحيلة ولكن كان من نكد الحظ انهُ بينما هو يحدث سلطانة ويعدها باقترانهِ بها اذ دخلت ضيآء مع ابيها وقد وقع كلامهُ في اذنيها فاصفر لونها واستحوذ عليها شيء شبيه بالغشاء ثم قال لها ابوها يحضرة سلطانة يابنية قد مي احترامك الى ملكنك وادعي الى الله ان يطيل عمرها ويجعل ايامها بالسعد مقبلةً فتاكدت من كلام ابيها ما سمعت من كلام الملك واخذتها رجفة شديدة لم يكن لها حيلة لاخفائها فاما سلطانة فظنت ان اضطرابها انما هو ناشيء عن عزة الملك الذي لم تره قبل ذلك واما الملك فانهُ عرف سبب المها وكدرها لما كان من وقوع وعده ابنة عمتهِ في اذنيها وصار يتفسهُ من الاضطراب مثلما صار بها واحب لو مكنتهُ الظروف من الاجتماع بها حتى يعلمها بان وعدهُ لسلطانة انما هو حيلة منهُ لاخيانة لودها ولكن لم يكن من سبيل الى التحدث سرًا معها اذ كانت عيون الاعيان متجهة اليهِ هذا ما كان من امر الملك

واما ضياء فان اباها لما انس جزعها وقنوطها وراى الملك منقبضًا الى الياس سار بها على الفور الى قصرهِ وقد اعلمها بانهُ سيزوجها المركس فلما سمعت كلامهُ بلغ الحزن من نفسها ووقف الدم على قلبها فوقعت بين يدي ابيها مغشيًا عليها وقد ضعفت اطرافها وتغير لونها حتى كادت المائت المنتشر من الاكفان فرق قلبهُ عليها وتداركها بماء الورد حتى افاقت فقالت يا ابتاهُ الشفيق يخجلني اني اطلعتك على انشغال قلبي بهوى الملك ولكن الموت الذي الذي يوافيني بعد قليل سيرفع عنك اكدارًا جلبتها عليك ابنةٌ منكودة الحظ فقال لها لا تقنطي يابنية فما الوزير الذي ازوجك منهُ الا اعظم رجل في الدولة واجلهُ خطرًا فقالت صدقت يا ابت واني اقرُّ بفضلهِ وكرم اخلاقهِ وسجاياهُ الحسان غير ان الملك كان يؤملني باني اكون لهُ عرسًا فقال لها لقد علمت اليوم كل ما كان بينك وبينهُ وانا لا اعذلك على ذلك ولكن من حيث قد قام بين الوعد وانجازه مانع لايقوى الملك على ازالتهِ الا بخسران الملك من يدهِ فاعملي على صرف امالك وكفكفي دموعك حتى لايقال في دار الملك ان حبهُ قد علق فوادك ولا تؤملي بانهُ يتخذك زوجا لهُ اذ انهُ اشترى بك الملك والسلطنة واعلمي باني وعدت الوزير المركس بان ازوجهُ منك فانجزي وعدي اليهِ ولا تخيبي ابًا يتقدم اليك بالضراعة والطلب قال هذا وانصرف الى مجلسهِ وهو يؤمل بانها اذا فكرت فيما نطق اليها البت طلبهُ ورضيت بان تصير زوجًا للمركس الوزير

فلما خلا المكان لضياء اسبلت الدمع من عينيها وغلب عليها ان اليأس وخامرها كمد لا يعبر عنهُ باللسان لما كان من تحققها خيانة الملك بدليل الكلام الذي سمعتهُ من فموما كان من اكراهِ ابيها الى تزويجها من المركيس الذي لا تقدر ان تحبهُ فظنت ان الموت لا يبعد ان يفاجئها بعد ذلك ثم صاحت تبًّا لك ايتها الآمال التي عللت نفسي بك ثم القيتني في وهدة الالم والحسرات وانت ايها العاشق الخائن لِمَ علمت امرأة غيري بعد تقدمك اليَّ بالقسم والعهود فلا هنَّاك الله بهذا الملك الجديد ولا بوركت بهذا الزمان الذي نلتهُ فيهِ اليمين بعد توثيقها اليَّ ولتكن ملاحظة سلطانهُ اليك حقًّا عليك وليكن ريثها كسمٍّ قتال يتخدر الى جوفك فيحرقهُ وليبدلك الله بنعيمك شقاء كمثل الشقاء الذي اذوق مرارتهُ واعلم ايها الخائن من حيث ان ديني لا يحلل لي قتل نفسي بيدي فاني سانتقم من نفسي بان اتزوج بالمركيس الذي لا احبهُ حتى اذا كان عشقي باقيًا في فؤادك اسنت وتحرقت لتسليمي نفسي الى رجل غيرك وان كان ذكري قد برح من خاطرك فاكون على الاقل قد انتقمت من نفسها لاجل انها اشغلت قلبها بحب رجل خائن مثلك . قالت هذا الكلام والدمع يجري من عينيها وهي في حالة من القنوط لم تنفك عنها النهار ولا الليل بطولهِ . فلما اصبحت دخل عليها ابوها وعلم منها انها تعتزم على الاقتران بالمركيس فاغتنم هذه الفرصة ان جاء بهِ وزوجها منهُ سرًّا في كنيسة القصر فكانت حالتها في ذلك اليوم تستبكي الحمام رحمةً عليها اذ لم يكفها مصابًا بانها فقدت الملك وجافاها حبيبها الرفيق وتزوجت برجل لا تميل اليهِ حتى انهُ وجب عليها ان تكتم حزنها في قلبها بحضرة هذا الزوج الذي هام بحسنها وجمالها وما زال جاثيًا الى الارض بين قدميها الى اخر النهار غير تارك لها فرصةً تبكي فيها على انفراد ما احاق بها من البلاء

فلما اقبل الليل ودخل عليها قهرمانتها وزينها لدخولهِ عليها خامرها يأس عظيم لم يسعها كتمانهُ بحضوره فتقرب منها بتذلل وسالها عن سبب كدرها فحاولت اخفاء الامر عليهِ وقالت ان نفسها منقبضة في تلك الليلة ليس غير فعزم اليها ان ترقد في السرير فابت الاَّ الجلوس مكانها على المقعد واخذت تفيض من عينيها دموع كثيرة فتعجب لذلك عجبًا كثيرًا واتاه ان من جفائها اياه لامرًا يحزن عشقهُ لها ولا يليق بشرفهِ وعرضهِ فبات جزعًا قلقًا واعمل على ان يبقي اضطرابهُ كامنًا في صدره فقال لها ياسيدتي قومي الى مضجعك وخذي الراحة لجسمك والرياضة لعقلك وان كنت ترومين امر القهرمانات بالقيام بين يديك لخدمتك فعلمت ذلك اكرامًا لخاطرك فقالت وقد اطمأنت نفسها وذهب خوفها ووجلها اني لا ارى لزومًا لقيامهنَّ بين يدي ولكني ارقد في السرير حتى يغلبني النعاس ويروق ما بي من القلق

وكان المركيس في تلك الليلة متسهدًا من شدة جزعهِ وهو يفكر في نفسهِ لما كان من ضياء بانَّ لها حبيبًا قد هام قلبها بحبهِ ولكن من هذا الحبيب أمن امثالهِ او ممن هو اخفض في مراتب الدولة منهُ فلم يعلم ذلك ولكنهُ راى نفسهُ بهذا الزواج اشقى العالمين وما زال يردد هذه الافكار في نفسهِ الى هدء الليل الاخر واذا بقرقعة خفيفة قد طرقت اذنهُ فتلاها وطء اقدام خفية في المقصورة فظن بادىء الامر ان ذلك يتراءى لهُ بالوهم لعلمهِ بانهُ كان قد اغلق الباب وقفلهُ بيده بعد انصراف القهرمانات غير انهُ ازاح ستار السرير ليرى بنفسهِ ما كان من هذا الامر فاذا المقصورة يسودها الظلام والسراج الذي كان موقدًا فيها قد انطفأ فبقي في موضعهِ متكئًا واذا بصوت منخفض حنون ينادي ياضياء ياضياء فوثب من فراشهِ مذعورًا وبادر الى سيفهِ وتقدم الى جهة الموضع الذي منهُ سمع الصوت

ليمزق صدر الحسود الذي اراد ان يفوز باللذة على مشهد منه فاذا بسيف صلت قد لطم سيفه فوثب فاشعر ما بين ظلام الليل برجل يهرب من وجهه فلحقه من موضع الى موضع فلم يقف له على اثر فتعجب ووقف مكانه صاغيًا فلم يسمع حركة البتة فترجع وجمد فزعًا وظن ان ذلك سحر مبين ثم تقدم الى جهة الباب فوجده مقفولاً فزاد عجبه وظن ان غريمه يكون مختبئًا في موضع من المقصورة ففتحه ووقف فيه لئلا يفر الغريم من وجهه وصاح بخدمه وغلمانه للاقائه فبادره جماعة منهم بالسرج والشموع في ايديهم فتناول شمعة منورة وقلب المقصورة بالبحث والتفتيش وسيفه في يده صلت فلم يرى احدًا ولا ارى منفذًا فيها للدخول ولا للخروج فتحير تحيرًا شديدًا وكاد يغيب عقله عن الصواب فرام ان يسال ضياء عن الامر فتفكر انها وان عرفت شيئًا من ذلك فهي تخفي عليه امره فعزم على ان يفاوض اباها في هذا الشان ويشاوره وقد صرف الغلمان الى مواضعهم بقوله لهم انه سمع قرقعة في المقصورة على حين لا شيء من ذلك . فلما صار على مقربة من مقصورة الوزير رآه مقبلاً من الباب ليرى ما كان من امر الضجة والصراخ فاخبره بالقضية فورًا وهو لا يعقل لشدة اضطرابه فلما سمع كلامه تعجب منه غاية العجب واستحوذ عليه كدر عظيم وعرف في نفسه ان الداخل الى مقصورة ابنته ليس هو الا الملك بعينه ولكنه لم يطلع المركيس على ذلك وانما عمل بعكس ذلك على بهدئة جاشه وتسكين روعه واقناعه بان ما سمعه ربما هو تامر واقعي وانما هو خيال بزور اصحاب الغيرة من العشاق فاذا راوا غير شيء ظنوه شيئًا واكد له بان قلق ابنته لم ينشأ عن خوف وخجل خامرا فوادها بتزويجها من رجل لم يكن لها معرفة سابقة به فهي تبكي كمثل ما يبكي غيرها من بنات الخدر من الاشراف اللواتي لا تميل قلوبهن الى رجالهن الا بعد الموالفة الطويلة ثم انه حضه على حسن الظن بها وان يرجع اليها وينفي ما اتاه من الاياس والافكار فلم يجبه المركيس بشيء على ذلك لاحد سببين فاما ان يكون اقتنع بان ما سمعه واشعر به لم يكن الا وهمًا تراءى له على حين كان بالة قلقًا واما ان يكون اضرب عن الرد عليه بهرام على حين لا يحصل له من اقناعه بكلامه فائدة فعاد الى سريره طالبًا لاراحة نفسه بالنوم بعد شدة ما قاساه هذا ما كان من امره

اما ضياء فلما سمعت وطء الاقدام في المقصورة ومناداة الزائر اباها عرفت انه الملك نفسه فتعجبت منه غاية العجب لما كان من امره بان يجتمع بها ويجالس اليها على حين وعد سلطانه بان يتزوج بها ويجالسها ويلبسها تاج الملك فداخل قلبها من مرامه هذا غيظ شديد لانها حسبت دخوله عليها سرًا في الليل اهانة اخرى تثلم شرفها الى اخر ما فكرت في نفسها من سوء الظنون

واما الملك فبعد ان انصرفت ضياء من حضرته يوم جلوسه على الملك وهي تظن به انه اعظم الناس خيانة هام قلبه بحبها كما كان من الايام السالفة ورام ان يجتمع بها ليفصح لها عما خبأ في ضميره واتخذ من الحيل السياسية لاجل التمكن من الاقتران بها غير ان انشغاله في ذلك اليوم ووفود الامراء عليه لتهنئته لم تترك له فرصة للسير الى قصر ابيها قبل اخر الليل فدخل البستان وفتح بابًا سريًا من القصر بمفتاح كان لا يزال في جيبه ثم طلع الى المقصورة التي ربي فيها ودخل مقصورة ضياء من الخوخة التي تفتحها في الحائط . فلما راى عندها رجلاً وقد لطم سيفه سيفه تعجب غاية العجب من ذلك كانه لم يكن يعلم بزيجتها من المركيس وكاد ان يعرف نفسه في ذلك الوقت ويامر لحينه بقتل الشقي الذي تطاول برفع السيف عليه لولا ان حبه لضياء منعه من ذلك صونًا لها حتى لا يقول

الناس انهُ يدخل عليها في الليل سرًّا فانثنى الى موضعهِ آسفًا لوقوع هذا الامر وقد اعتزم على العودة من الغد ليرى ما كان من هذا الرجل الذي اهان شرفهُ وعرَّض نفسهُ للتهلكة وذلل عشقهُ وغرامهُ فلم ير لذلك اسهل من الحيلة بالخروج الى الصيد . فلما طلع النهار امر جندهُ واتباعهُ بان يجهزوا لهُ موكبهُ لذلك فركب الى غابة القصر وبدا في مزاولة القنص باجتهاد حتى لا يبقي لحماعتهِ مجالاً لان يفطنوا لمقصدهِ من حيلة فلما اشتغل كلهم بالصيد ولحقوا الكلاب التي تطارد الغزلان والمعى ركب جوادهُ وسار الى موضع القصر وهو لم يضل في مسيرهِ لانهُ كان يعرف الطرُق والمنافذ اليهِ ولم يسعهُ اصطبارهُ الا ان يركض فرسهُ ملءَ فروجهِ . فلما قطع المسافة التي كانت بينهُ وبين موضوع عشقهِ وآمالهِ وهو يفكر بالحيلة التي يجدها للاجتماع بها سرًّا اذ راى تحت شجرة على باب القصر امراتين تحدثان فخفقت احشاؤهُ لعلمهِ بانهما من نساء القصر . ثم ما لبثتا ان التفتا اليهِ لسماعهما طرق ارجل الفرس فتخلفها واذا هما ضياء وقهرمانة لها امينة قد صحبتها لتبث اليها شكواها واحزانها فترجل عن جوادهِ وقابلها بالتحية والاكرام فاذا بها متقطعة من الحزن فرَّق قلبهُ عليها وقال لها يا سيدتي كفكفي ادمعك واذهبي الحزن عنك فان ظواهر امري وان لم تقم ببراءتي للسيك ففي نفسي عزم على الاقتران بك لاانفك عنهُ ولو خسرت النعمة التي انقلب فيها فلما سمعت كلامهُ خفقتها العبرة ولم يامها الكلام فقال لها لم تتمادين في الاحزان ياسيدتي ولا تثقي بملك بيع ملكهُ حتى ينعم بك فاغصبت نفسها الى النطق وقالت ايها الملك لقد قام دون اقترانك بي مانع لا تقوى عليهِ فقال اشفقي عليَّ ياسيدتي ولا تسمعيني هذا الكلام الشديد الذي يمزق كبدي فانا والله لاقلبنَّ البلاد واصبغها بالدم ولا افقد نفسي سعادتها من الاقتران بك فقالت ايها الملك ان ادراكك وعظمتك لاينفعانك في هذا الوقت فما انا اليوم الا امراة المركيس الوزير فلما سمع كلامها غاب عن الصواب ومزق اليأس قلبهُ ولوقعهُ في غماء ورجع الى الوراء بارتجاف وقد وهت قواه واصفر لونهُ فالقى نفسهُ كالقتيل على شجرة كانت وراءه ولبث ينظر بعين اسفهُ الى حبيبتهِ ليظهرها مبلغ يأسهِ من هذا الخطب الجسيم والبلاء فكانت حالتهُ وحالتها في ذلك الحين تستبكي الحمام رحمةً على العاشقين ثم انهُ رفع نفسهُ بقوة وشجاعة وقال وهو يتنهد يا ضياء كيف فعلت ذلك . لقد اهلكتني واهلكت نفسك بهذا الخسران . فلما سمعت كلامهُ تنغصت منهُ في نفسها لعلمها ان الخيانة كانت منها لا منهُ لها وقالت ايها الملك كيف تخونني ثم تلومني وتعزلني اما كفاك انك وعدت سلطانة ابنة عمتك بالاقتران بها حتى جئت تكذب ما نظرت عيناي وسمعت اذناي فقال يا سيدتي لقد قلت لك ان ظواهر امري تقضي عليَّ باني خائن ولكن ما سمعتهُ من وعدي ابنة عمتي ليس الا سياسة كنت حملتني عليها فيما بعد وحققت ان عشقي لك لا يكون في القلوب اعظم منهُ فقالت ايها الملك لقد علقت نفسي بامال ظننت انك تحققها لي ولكن العظمة قد ابعدتك عني فرايت اني لا يليق بي ان اضع على راسي تاج الملكات فانت ايها الخائن لمَ لم تنطق اليَّ بالحقيقة التي عقدت نفسك على اجرائها يوم آنست قلقي واضطرابي لكنت يوم ذاك شكوت جور الدهر لا خيانتك وظلمك وما كنت تزوجت باحد غيرك واما الان فاني استاذن منك بالدخول الى مخدعي حتى اخلص من هذه المذاكرة التي تهين مجدي وشرفي ولا يحل لي ان اكلمك فيها او في غيرها بعد ان صرت زوجةً للمركيس الوزير قالت هذا وابتعدت عنهُ الى باب البستان فقال بالله قفي وارحمي ملكًا مغرمًا يروم ان ينتزع الملك من يدهِ حرصًا على وداده فقالت

لقد حال دون الفريض الجريد وانا اليوم لا اقلق لخراب الدولة ان خربتها ولا اضطرب لريحتك ان تزوجت بمن اردت واعلم باني وان اشغلت قلبي بالهوى لاعمل الجهد كله لان اكون خالية منه واريك ان زوجة المركيس ليست بمعشوقة الامير الفونس كما عهدتها قالت هذا ودخلت البستان وتركت الملك في في اشد حسرة لما كان من اعلامها اياه باقترانها بالمركيس فوجم ساعة يفتكر بمصابه وما كان من خيبة آماله حتى كادت الغيرة تقتله فانتفض غضبة وعزم على ان يقتل بهرام والمركيس الوزير لساعته لولا بقية صواب بقيت في عقله وتراءى له فيها انه اذا جمعه ومحبوبته مجلس سري ازال باسها واحزانها وبرد نفسه من تهمتها بخيانته فلم يرَ لذلك الا ان يبعد المركيس عنها فرجع الى قصره وامر رئيس الشرطة ان يلقي القبض عليه لقوله بان له يدًا في بعض الفتن

هذا ما كان من امر الملك

واما ما كان من امر المركيس فانه لما قبض عليه رئيس الشرطة باذن الملك وضاجت المدينة لذلك راى الوزير ان يذهب الى البلاط ويتقدم الى الملك بالشفاعة في صهره وكان الملك قد عرف ذلك الى أجل من انه سيدخل عليه للشفاعة فامر حجابه بان لا ياذنوا لاحد بالدخول عليه كائنًا من كان حتى لا تكون له فرصة لمزار حبيبته قبل الافراج عن زوجها ولكن فرنان مع علمه بامر الملك ابى الا ان يدخل عليه بحيلة من الحيل حتى اذا امتثل بين يديه قال له ايها الملك الشفيق العادل ان عبدك فرنان جاء يشتكي منك اليك فاي ذنب اقترف صهره حتى حل به سخطك ولزمه العار بما امرت به رئيس شرطتك من القبض عليه فقال اعلم ايها الوزير الصادق ان لديَّ بينات ثبت بان لصهرك يدًا في فتن الدولة ولا اظنه الا ميالاً مع ان اخي دون لزريق يريد ان يبايعه ويخلعني فردد الوزير في نفسه له يد في فتن الدولة ويخلع ويبايع ثم رفع راسه وقال لا وايد الله جلالة الملك لان الخيانة لم يتعودها احد من آلي وكفى بان يكون المركيس صهرًا لي حتى تنتفي عنه هذه التهمة ولكن اراك قد قبضت عليه لغاية سرية منك فقال الملك من حيث انك تكلمني عن سرّي فاني ابوح به اليك فاعلم ان الطريقة التي اتخذتها بحقي جلبت عليَّ وبالاً عظيمًا وحرمتني لذة ينعم بها احقر الناس قدرًا واعلم باني لا اتزوج بسلطانة بنت عمي فرجف الوزير من ذلك وقال ايصح ايها الملك ان لا تتزوج بها بعد ان وعدتها بذلك على محضر من الامراء والقواد فقال ليس الذنب في ذلك عليَّ وانما هو واقع عليك لما كان من اكراهك اياي على وعدها بذلك على حين لا رغبة لي فيه ولا امكان وما كان من كتابتك القرطاس الذي سلمته الى ابنتك باسم سلطانة لا باسمها وما كان من تزويجك اياها من المركيس بالرغم عنها . وحتى لو فرضنا ان طاعتك منها واجبة افما كان اغناك عن ان تقيد في بوعد لا طاقة لي على انجازه الا تذكر ان سلطانة انما هي ابنة بوزان التي هدرت دم ابي ظلمًا وعدوانًا ام ترى في الامكان ان اجتمع واياها على فراش واحد . لا والله ولكنك ترى صقلية رمادًا وسكانها رممًا ومناعها نفادًا ومعالمها دوارس من قبل ان انجز سلطانة وعدي باقتراني بها . فلما سمع الوزير كلامه خاف العاقبة وقال ايها الملك العظيم اخفض عليك غضبك ولا اظن حبك لرعيتك يدعك ان تفعل ما تقول ولا عشقك لابنتي يحملك على اعمال العشاق من العامة وانا انما صاهرت المركيس لكي اجعله من عبيدك المقربين فقال الملك ان مصاهرتك اياه كانت سببًا لما انا فيه من القلق والاضطراب فلمَ توكلت باموري على حين لم تحسن رعايتها ولا سياستها افرايت فيَّ جبنًا حتى لا اقهر من ناوأني من الامراء

والجند اذا ثاروا الفتنة عليّ ام رايت ان الملوك لاحق لهم للتنعم بما ينعم به عامة الناس فان كان رايك هذا واني اكون عبدًا فخذ هذا الملك الذي اردت ان تبقيه لي بما عملت من جلب الغم والباس عليّ . فقال الوزير انت تعلم ايها الملك ان الملك لم يصل اليك الا باقترانك مع سلطانة فقال باي حق كتب عمي وصيته كذلك اهل اشترط عليه اخوه كارلوس بمثل هذه الشروط حين خلف له الملك . ولكن اتعلم ان وصيته تفسيرها العدالة واني لاعزم على الاقتران بابنة عمي حتى اذا ابدى اخي اشارة نورة علوته بالسيف فان قهرته والا فكان احق بالملك مني فلما سمع الوزير هذا الكلام لم يبق عليه الا ان يقبل الارض بين يدي سيده و يطلب منه العفو عن صهره فوعده بذلك وامره بان يسير الى قصره وينتظر رجوع المركيس بعده بقليل حتى اذا خلا له المكان رجع الى نفسه وعزم على ابقاء المركيس في السجن الى غد اليوم ليما يزور زوجته خفية

اما المركيس فانه لما قبض عليه صاحب الشرطة وطلس به في السجن لم يخف عليه معرفة السبب في ذلك وصار في نفسه كانه مطحما للغيرة تتقلب به وتقطع فؤاده حسرة وندمًا وعزم ان ينتقم لنفسه بعد الافراج عنه ولكن لما قدر ان الملك لابد من ان يجتمع بزوجته في تلك الليلة رام ان يدهمها بغتة فطلب من امير الحبس ان يطلقه في تلك الليلة على الوعد بان يعود في الصباح الى محبسه فلباه بذلك لمودة كانت بينهما ولعلمه بان فرنان قد تشفع فيه عند الملك فوعده بالافراج عنه وزاد الامير على ذلك بان قدم اليه فرسًا كريمًا ليذهب الى قصر زوجته فلما وصل الى البستان فتح بابًا سريًا له بمفتاح كان في جيبه وطلع الى القصر وتخبا في مقصورة بجانب مقصورة زوجته دون ان يراه احدًا ووقف وراء الباب ليرى كل ما يكون وحتى اذا ما سمع صوتًا بادر الى المقصورة بسيفه

فما كان بعد قليل الا ان مرت من هناك قهرمانة ضياء وسارت الى مخدعها للرقاد هذا ما رآه من وراء الباب في بادىء الامر

واما ضياء فانها لما بلغها قبض رئيس الشرطة على زوجها علمت ان الملك امر بذلك لكي يأتي اليها فلا يراه وقدرت انه لا يفرج عنه في تلك الليلة مع كل ما اكد لها ابوها ان الملك وعده بان يفرج عنه بعد رجوعه بقليل فباتت وهي تنتظر دخول الملك عليها لتلومه على محبس زوجها وتخوفه العواقب الوخيمة التي تنالها منه واذا به قد فتح الباب (وذلك بعد انصراف القهرمانة) وانطرح بين قدميها وقال لها ياسيدتي لا تقضي عليّ بالشر قبل ان تسمعي اعتذاري فاني لم احجر على زوجك الا لتكون لي فرصة للاجتماع بك واظهار الحقيقة لك فاذا فرجت عنه لم تبق لي وسيلة الى ذلك

فاقول من حيث ان صرملك حبالي وفقدانك من بين يدي قد احاق بي المآلا يعبر عنه باللسان فدعيني اخفف هذا الالم بتاكيدي لك اني لم اخن عهودي اليك في شيء من الاشياء واني انما وعدت سلطانة بالاقتران بها سياسة اكرهني اليها ابوك سامحه الله لارضى من نفسي والا فان اعمالي في الليل والنهار كان لتمكني من الزيجة بك دونها فكان من سوء الحظ ونكد الطالع انك سلمت نفسك الى هذا المركيس وجعلت لي ولك حزنًا لاينفك اخر الدهر قال هذا الكلام وقد ظهر على وجهه باسٌ فهنه عنه ضياء وسرت منه في بادىء الامر لتحققها عشق الملك لها ثم فطنت لريبتها بالمركيس وفقدانها هناء الوصال من الملك فتقطعت حزنًا وقالت ايها الملك ان معرفتي اليوم بعد حكم الزمان بتفرق شملنا انك لم تخني في عهودك لما يزيد فوادي على علاته وصبًا ولكن طالعي ابى الا ان يكون نكدًا فظننت انك نسيتني بعد جلوسك على اريكة السلطنة حتى اذا امرتي ابي بان

يكون تكدّا فظننت انك نسيتني بعد جلوسك على اريكة السلطنة حتى اذا امرني اني بان اقتبل المركيس زوجاً لم اخالفك بذلك فكان مثلي كالرجل الباحث على حتفه بظلفه والويل لي على ما كان مني من حنث اليمين بعد توكيدها اليك فانتقم لنفسك مني بان تهجرني وترفع ذكري من خاطرك . فقال بصوت حزين ليس بمقدوري يا سيدتي ان اهجر هواك ولا تعذليني على ذلك فان العذل يولعني ويزيدني جوى . فقالت وهي تتنهد واكني ارى من السداد ان تجهد نفسك بذلك . فقال وهل في استطاعتك انت ان ترفعي ذكر عشقنا من خاطرك . فقالت لا اظن ذلك ولكن ابذل الوسع فيهِ فقال يا قاسية القلب اتعرضين عن حب قتلهُ هواك وعلقت مخيلته ايام الصبا بمجرد عزم تعزمين عليهِ فقالت كانها ترفع عنها المذلة انظن باني ارضى بان تكون لي اليوم عاشقاً لا وحياتك فان القدر اذا لم يقدر لي بان اكون ملكةً فلذلك لم يقدر علي بان اخون زوجي وهو من القدر والفخامة بمنزلة لا تقل عن منزلتك لان اجدادك هم اجدادهُ وقد دانت لهم الملوك ايضاً كما دانت لك اليوم واني احلف عليك بالايمان ان تنصرف عني ولا تذلل غرضي وشرفي . فصاح الملك يا للجفا والقساوة . اما كفى بي حزناً يا سيدتي ان تكوني زوجة المركيس حتى تعاملينني بهذا الجفا وتحرميني من رؤيتك التي لا سلوان لي بغيرها . فبكت وقالت بذا قضت الايام فانصرف عني لان رؤيتك تهيجني شوقاً اليك وتحدث حنيناً في قلبي لتذكري بايام الصبا كما ان احشائي تضطرب اضطراباً قبل ان يكون في العاشقين مثلهُ عند اجتماعهم باحبابهم فاذهب عني وخلص شرفي من التجارب التي تخالج فؤادي قالت هذا الكلام واحتدت في نفسها حتى انها طلبت سعفة متوزة كانت وراءها على مائدة من غير ان تلحظ لذلك فتناولتها بيدها وسارت الى مقصورة القهرمانة لتشعلها فلما عادت الح عليها الملك بان لا تعرض عن حبهِ ليبقى الحب بينهما متبادلاً . فلما سمع المركيس كلامهُ اتقدت بهِ نار الغيرة ووثب الى المقصورة غضباً في ذات الوقت الذي عادت فيهِ زوجتهُ وقال للملك والسيف في يدهِ صلت ايها الظالم الغاشم لا تظن اني احتمل الاهانة التي جلبت على عرضي بخوف وجبانة . فاجابهُ الملك وهو قد سل سيفهُ لا تظن ايها الخائن انك تتمكن من سيم مرغوبك على اسهل طريقة كما حسبت قال هذا وتواثبا كلاهما على بعض ووقع بينهما صراع لم يطل كثيراً لشدة حدهما فيهِ لان المركيس كان قد خوف من ان يبادر فرنان واعوانهُ لشدة صراخ زوجتهِ فينفذ الملك من بين يديهِ فرام ان ينتقم منهُ على عجل واحتد حتى غاب عن الصواب ووثب وثبة شديدة بادرهُ الملك فيها بطعنة فصرعهُ على الارض يتخبط بدمهِ . فلما رأته زوجتهُ على تلك الحال غلب عليها الحلم والرأفة وبادرت اليهِ للافاقة جراحهِ ولكنهُ عوض ان يشكرها لذلك حنق عليها حنقاً شديداً وفكر بانهُ اذا مات حملها الملك الى قصرهِ وبات معها في هناء ونعيم فاشتدت عليهِ الغيرة حتى جمع قواهُ ورفع التي كانت بيدهِ وطعنها بها وهو يقول موتي ايتها الزوجة الخائنة التي لم تحفظي عهوداً اقسمت بالله في بيتهِ المقدسة على توكيدها اليّ . وانت ايها الملك لا تفرح بموتي ومصابي لانك لا تهنأ بالفك بعدي . قال هذا وأسلم روحهُ على حين لم تزل سمات الانتقام مرسومة على وجههِ وقد وقعت عليهِ زوجتهُ وامتزج دمها بدمهِ

واما الملك فانهُ لما طعن المركيس زوجتهُ ولم يكن لهُ وقت لمداركة الامر اظلمت الدنيا في وجههِ وكاد يقع الى الارض من عظم الحزن والالم فبادر اليها للافاقتها بمثل ما تلافت هي زوجها على حين اساء اجازتها بالقتل فقالت لهُ بصوت ضعيف ايها الملك الحبيب ان تداركك امري الان لا يحصل منهُ

بعد تمزيق صدري بالسيف لمرة فليكن ملكك معظماً مباركاً بعدي وليكن السعد خادماً لك . ثم ان اباها كان قد سمع صراخها فدخل المقصورة ورأى تلك المناظر امامه فوجم حزيناً لايبدي حركة غير انها لم تفطن بما هي فيه لفدومو فاكملت كلامها الى الملك وقالت اني اودعك ايها الملك واستودعك الله وارجو ان تردد ذكري في خاطرك لان ودادي لك وما لحقه من البلاء يجبرانك على ذلك واملي منك انك لاتحنق علي اني بل تكافئني على امانتي لك وتحفظ لك وتعزيه بي على قتلي وتعرفه طهارتي وعزة نفسي وهو الامر الذي اوصيك به اكثر من كل شيء غيره . . . اودعك ياحبيبي الفونس واسلم روحي بين يديك . . . قالت هذا واسلمت روحها . فوجم الملك ساعة لايبدي حركة ولا يتكلم بحرف لشدة حزنه وألمه ثم رفع طرفه الى وزيره وقال له انظر ايها الوزير ماقدمت يداك وما دبرت من الحيلة لذات الملك لي كيف سآت الحيلة مصيراً . فلم يجبه الشيخ بكلمة لعظمة وقوع البلية عليه وتفطر كبده وانا لا اتعرض الآن لذكر الشعائر التي لا يعبر عنها اللسان واكتفي من ذلك بالقول ان لما رجع الملك ووزيره الى عقلهما بكيا واعولا عويلاً كثيراً حتى كانت حالتهما تفتت الاكباد وتذيب الجماد وبقي الحزن في قلب الملك سنين طويلة وقد حفظ ذكر محبوبته في قلبه سائر ايام حياته ولم تبق له طاقة على الاقتران بسلطانة قتل زوجها اخوه دون ازريق واثار واياها فتنة في البلاد لما حدث نفسه بوشك وصول الملك اليه تباعاً اوصية عهد المرجان غير ان الدائرة دارت عليه ودانت البلاد لاخيه الفونس وخضع له الفؤاد والامراء . اما فرنان فان الحزن والاسف المرسب من تلك الخطوب غلبا عليه حتى الجاه الى مبارحة الاوطان فحمل ابنة الاخرى دلالا وجاء بها الى الاندلس واشترى هذا القصر الذي نحن فيه الان وعاش نحواً من خمس عشرة سنة بعد موت ضياء وكانت له تعزية في آخر ايامه بان زوج ابنته دلالا من امير من آل سلوم وحسبت انا ثمرة هذا الزواج هذه هي سيرة خالتي ضياء وقد امرجدي فرنان بتصوير هذه الصورة لتبقى ذكراً في اهل بيتنا الى امد طويل وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والاكرام

فصل
في اجتماع نور الصباح بحبيبها في سلمنكة

قال جليلاس لما قطعت المرأة الشريفة حديثها ظلت بقية يومها تتجاذب اذيال المذاكرة مع سيدتي نور الصباح حتى تعمقتا في الصحبة ولو لم يكن كلاهما امرأة لحكمت بان قد وقع بينهما عشق . فلما اقبل غد اليوم ركبنا العجلة ووصلنا بالسلامة الى سلمنكة دون حادث آخر في الطريق فاستاجرنا بيتاً مفروشاً احسن الفرش ويسرحنا لسان السؤال في كل موضع عن منزل دون لوبس حتى اهتدينا الى الفندق الذي كان ينزل فيه عادة فصارت اليه الفهرمانة واستاجرت فيه مقصورة للنوم وقاعة للجلوس وقالت لصاحبة الفندق انه ينزل الليلة فيها ابن اخ لها من الاسياد يقال له دون فلكس جاء يكمل دروسه في سلمنكة وهي تعني بدون فلكس هذا السيد عن سيدتي نور الصباح . ثم انها عادت الينا واعلمتنا بما كان من حيلتها فبادرت سيدتي الى تغيير هيئتها ووضعت على راسها شعراً اشقر حتى لم يظهر شيء من شعرها المسود وخضبت حاجبيها بالحناء حتى اجمر لونهما ثم خلعت عليها لباس الشبان من الاسياد حتى صارت كالرجال ليس ينقصها الا ان تكون اقل جمالاً وبهاء مما هي حتى لاتنفر منهم شيئاً ثم امرت الخادمة بان ترتدي بلباس الرجال مثلها لتتمكن من

openkanar.com

خدمتها مرّا في مخدعها وركبت واياها وانا معهما عجلة تجرها الخيول المزينة ومعنا كل ما نحتاج اليه حتى وصلنا الى ذلك الفندق وقد صرنا ثلاثة رجال

فلما رانا صاحبة الفندق تطلعت في وجوهنا وبالغت كثيرًا في اكرامنا وانتهت بنا الى الموضع الذي استاجرته الفرمانة لنا من فندقها وابرمت سيدتي معها اتفاقًا على قدر الدنانير التي تدفعها اليها في كل شهر ثمن الطعام واجرة المنام ثم ساقت اليها حديثًا طويلاً حتى سالتها عن الناس الذين يلتون عادةً الى فندقها فقالت لها وهي تظنها رجلاً ياسيدي اني لا اقبل في منزلي الا الاسياد الذين هم على مثالك وانا انتظر الليلة سيدًا شريفًا يعود الينا من مدريد ليكمل دروسه واسمه دون لويس وهو سليل الوجاهة والكرم ولا اظنك الا سمعت عن اوصافه الحسان خبرًا فقالت لها ياعمة اني سمعت عنه بعض الحديث ولكني لا اعلم عن طباعه شيئا فاذا رمت ايلائي المعروف فاعلميني بذلك حتى اعرف كيف يكون سلوكي معه في فندقك. فقالت لها ايها السيد ان دون لويس اسيد جليل القدر جميل الصورة كافي بوياتك في الخلقة وانا اقسم ان ليس من الاسياد في الاندلس من هو اجمل منكما واظنكما تكونان سعيدين من اجتماعكما معًا في هذا الفندق وينالني انا شرف لم احظ بوقدما قط. فقالت سيدتي اذا كان دون لويس على ما عرفتني عنه من جمال الصورة فلا بد ان يكون له شؤون وحالات مع النساء فقالت صدقت ايها السيد فيما ذكرت عنه فانه اذا اراد بغية منهن نالها في اقرب وقت واسهل طريقة وفي هذه المدينة بنت شيخ مشرع يقال لها ايزابلة قد شغفت بحبه حتى كاد يقتلها هواه فلما سمعت كلامها داخلتها الغيرة وقالت لها باضطراب ظاهر ولكن ياعمة اتعرفين دون لويس ولعابها مثل ولوعها به كنت اعرفه كلفانها من قبل سفره الى مدريد ولست اعلم اذا كان مقيمًا لهذا اليوم على وداده لانه قد مضى من سفره الظاهرة وتنقله من عشق فتاة الى غيرها كشان غيره من الاسياد ما لا يؤمن معه ان يبقى على حال دائم في عشقه

فلما كان في بعض الحديث سمعنا في الدار ضجة وقدوم رجال فنظرنا من الشباك فرانا دون لويس قادمًا من سفره ومعه خادم له فتسارعت صاحبة الفندق الى لقياه وباتت سيدتي في خفقان قلب شديد واضطراب افكار حتى دخل عليها دون لويس وهو يقول لها ايها السيد اني اخبرت الان بانك تنزل هذا الفندق معي وانت من اللطف وجلالة القدر ما اهنيء نفسي لحلوسي اليك واجتماعي بك ومؤانستك ففرحت به سيدتي فرحًا لا مزيد عليه وشكرته على اقباله عليها وذكره اياها بالسجايا الحسان وهو لا يزال ينظر اليها متعجبًا من جمالها وقدها واعتدالها حتى لم يتمالك من اظهار عجبه اليها من وجود شاب مثلها قد اقترع في قالب الكمال ثم قطع حديثه معها ودخل مخدعه لينزع ثياب السفر فنزلت سيدتي على السلم واذا برسول قد اعترضها وسلم اليها كتابًا معنونًا باسم دون لويس وهو يظنها انها هو ويقول خذ يا سيدي هذا الكتاب المعنون باسمك وقد عرفنك دون ان اسال احدًا عنك لاني اراك كما وصفت لي. فاخذت الكتاب وقالت وهي خدعة عافاك الله ايها الخادم ما اقتضاك المصالح بهارق ونشاط ولقد كان من معرفتك اياي بدون سوال احد عني ما يقضي بانك تفوق غيرك من الخدم بحسن الفطنة فامض مخبرًا وانا اوجه الجواب مع احد من غلماني. فانصرف الرسول ودخلت سيدتي مقصورتها وفضت الكتاب وقرانه على مسمع مني ومن الخادمة واذا فيه

ايها الحبيب. لقد انبئت الان بانك عدت بالسلامة الينا وخالج قلبي لذلك من السرور ما ليس

الى التغير عنه سبيل حتى اني خفت من ولوعي ان يأتي على بقية عقلي فاجن في هواك فاسرع الى مولاتك ابزابلة حتى تطفي نار وجدها بريقك العذب وتحقق بانك لا تزال مقيمًا على عهد الوداد والسلام

فلما قرأت الكتاب قالت ان واويه ابزابلة هذه لشيء لم اره ولم اسمع بمثله لهذا اليوم واخاف انه اذا كان دون لويس من الميل اليها بمثل ما نراه منها فقد فسدت حيلتنا وحبطت اعمالنا ولكني سابذل الوسع لان يصرم حبالها بعد ايجاد الفتنة بينهما وهو امر عسير ربما اتوقى الى نجاح مسعاي فيه

ثم فكرت ساعة في هذا الامر واذا بدون لويس قد خلع عليه حلة ظريفة واقبل عليها يتراجع واياها الحديث قبل العشاء وهو يقول مازحًا اظن يا سيدي ان العاشقين في سلطنة والمتزوجين من الرجال يخافون على نسائهم وانت مقيم هنا اذ ان الله قد خصك من اللطف وجمال الصورة ما تفتن به العابدين . فقالت له صدقت يا سيدي فيما نطقت لاني ارى من اقبال النساء عليّ في كل بلد اوافيه ما ان رويته لك لم تصدقه لغرابته . فقال ما برهانك في ذلك ان كنت صادقًا . فقال جئت هذا البلد منذ شهر او اقل منه فاولعت فؤاد ابنة شيخ منشرع حتى كادت تجن بهواي . فلما وعى كلامها اضطرب اضطرابًا شديدًا وقال اني انشدك ان تعلمني باسمها وانا احفظ كلامك سرًا لا ابوح به الى احد فقالت له لتعلم اني مثل غيري من الشبان افخر بمغازي ولا اكتم امر النساء . ثم فان هذه الفتاة لا نسب لها وليست هي من ربات الخدر ولذلك لا حاجة الى ستر عيوبها وكلما زدنا الصعاليك اهانة طلوا بقدر ذلك انهم يتشرفون لوقوع الحديث عنهم في افواههم فاعلم اذن ان ابنة الشيخ التي سلبت محبتها تدعى ابزابلة وهذا كتاب جاءني منها فاقرأه لتعلم مكانتها من الشوق الى وانها تريدني على نفسها

فاخذ الكتاب وقرأه وعرف الخط انه خط ابزابلة فاصفر لونه ووسم حائرًا ساكتًا فقالت له سيدي وهي تظهر ان ليس لها علم بشيء من امره مالي اراك ايها السيد مختطف اللون كانك بهمك شان هذه الفتاة فما كان اغناني عن اطلاعك على اسمها . فقال لها لا ياسيدي وانما عملت معي معروفًا وصنعت جميلًا ثم احتد في نفسه غضبًا وقال تبًا لهذه الخائنة التي كنت اظن انها تحبني او بالاحرى انها تعبدني عابدة فتستغفر الله ولكني الآن تحققت بنبئي مكرها وخداعها تحفرت في عيني كثيرًا . فقالت له سيدتي وهي تروم ان يقلع عن عشقها ان ما في نفسك من مذمة هذه الفاجرة وافق ما في نفسي من كرهها واحتقارها فما كان احوجها الى ايجاد عاشق اخر وقد احبها سيد ظريف مثلك ولكني اهانة لها وازدراء بها ساجنوها ولا امنعها بمشاهدتي يومًا واحدًا . فقال لها اما انا فيكون انتقامي منها ان لا ازورها بعد اليوم على الاطلاق . فقالت له رب جفاء منك وهني لم يعرفها الخيانة التي قدمت يداها فلو كتب كل احدنا رسالة اليها نذكرها بعيبها وفجورها كان ذلك اشد انتقامًا لنا من الجفاء فشاور نفسك في ذلك واذا رايت ان عشقها قد زال من فؤادك بالكلية حتى انك لا تندم فيما بعد على اهانتها فلنعجل بتحرير الكتاب اليها فقال ما احسن رايك ايتها السيدة الصديق فهات يدك لاقبض عليها ولنتعاقد كلانا على اذلال هذه المراة الفاجرة

فلما رايت توافقها بادرتها بدواة وقرطاس فكتبت سيدتي كتابها وكتب دون لويس بضعة كتب وهو يشتد ويجد ثم مزقها لحكمه بانها غير وافية بالمقصود من الاهانة وما زال يكتب ويمزق حتى كتب سطرين يقول فيهما ايتها المراة اعلمي من انت قبل كل شيء واعلمي بان عشقك قد زال من قلبي لاني لم ار فيك فضيلة تجلب هواي ولا لمت بلطيفة

المعشر حتى اسرع من الاجتماع بك ثم سلم كتابهُ الى سيدتي فقرأتهُ ووضعتهُ وكتابها طي غلاف وامرتني بان احملهُ الى ابنة المشرع وقد اشارت اليّ بعينها اشارة خفية فهمت معناها في نفسي من اني لا اسلم الى ابزابلة الا كتاب دون لويس . فلما صرت في الطريق اهتديت الى منزلها وفي الغلاف كتاب دون لويس وحدهُ فالفيت خادمها الذي جاء برسالتها الى الفندق ورايت في اقبالهِ عليّ وانا احمل الكتاب ما عرفت منهُ أن لهُ عادة في حمل مثل هذه الرسائل العشقية ثم انهُ سالني عن اسم سيدي الذي اخذ منهُ فقلت لهُ انهُ دون لويس فقال اذن تتبعني الى مقصورة سيدتي لانها اوعزت اليّ انكَ اذا حملت الجواب ادخلتك عليها حتى تستطلع منك عن احوال سيدك فامتثلت امرهُ ودخلت على سيدتهِ وقد دهشت من روَّية جمالها ورقة معانيها لان الله قد خلقها كاحسن ما يكون من النساء فلما رانني تبسمت في وجهي واخذت الكتاب من يدي وقرأتهُ مرة بعد مرة الى ثلاث مرار وهي لا تصدق بما تراهُ ظنًّا بان عينيها تخدعانها بالنظر ثم انها رفعت طرفها الى السماء وعضت على فمها بحسرة وتلهف حتى ظننت ان روحها ستفارقها من شدة الهيام وقهرها ثم نظرت اليّ وقالت هل جن صاحبك من يوم بارح مدينتنا الى مدينة فان من كتابهِ الى الان ما يحقق جنونهُ وغياب الصواب عن عقلهِ فان كان قد ازمع على جفاي فلم يحرر لي كتابًا كل ما فيهِ الاهانة والاحتقار . فلما سمعت شكواها تظاهرت بالشفقة عليها وقلت يا سيدتي ان سيدي دون لويس قد اخطا خطا عظيمًا بكتابة هذا التحرير ولا عذر لهُ الا انهُ اضطر الى كتابتهِ بالرغم عنهُ لغاية لا اذكرها لكِ الا اذا وعدتني بكتمان السر فقالت هات ما لديك ولا تخاف مني اباحة السر فقلت لها لتعلمي ان لما وصلت رسالتك اليهِ دخلت مجلسهُ امراة وتحدثت اليهِ مليًا وقالت لهُ وهي منصرفة اني احلف عليك بالايمان التي لا فسحة فيها ان لا تجتمع بمعشوقتك بعد الان وخذ هذا القرطاس واكتب اليها ما انبئ اليك فاخذ القرطاس وكتب ما املت عليهِ وهذا ما كان من امرهِ فلما وعت كلامي صاحت ابزابلة مغضبة تبًّا لهذا الخائن الذي لم يرعَ الجوار وان اعلامك اياي بدخول المراة عليهِ ليؤلمني اكثر من الاهانة التي حررها في كتابهِ اليَّ واثبت قل لهُ انهُ اذا كان عزم على جفائي والتعلق بحب فتاة غيري فما كان يليق بهِ ان يتقدم اليَّ بالاهانة التي جزا عشقي بها ثم صرفتني وانتفت غاضبة على دون لويس

فانصرفت من منزلها وانا مسرور من نفسي كل السرور لاحكام حيلتي مما يتكفل بتمة مرام سيدتي . ولما وصلت الى الفندق رايتها ومحبوبها قد جلسا الى مائدة الطعام وهما يتحدثان بملء القلب كانهما الفراب منا كانين منذ عهد قديم بالصحبة فلما رانني نور الصباح نشطتُ فرحًا قدرت في نفسها اني اكون قضيت رسالتي بمهارة ودقة وقالت لي ما وراءك يا جليلاس فقلت في نفسي ان اعلم دون لويس بعدم انقباض ابزابلة عن جفائهِ انني لما سلمت اليها الكتابين وقرأتهما ضحكت مثل ما تضحك المجانين وقالت ما احسن عبارة الاسياد وبلاغتهم في الكتابة . فاندرت سيدتي الكلام وقالت لدون لويس الا ترى عمل هذه الناحرة كيف لم تجعل بكتابتنا اليها فانقول في سرهِ ادبها فصيحة امرها فقال يا سيدتي اني استغرب هذا الكلام خادمك جليلاس كل الاستغراب اذ انى اعهدها على خلاف ما نقل الينا فقالت ولكن اني لا تعرف مكر النساء فهنَّ يظهرن الى الرجال ما لا يكون في قلوبهن وان شئت فسل جليلاس عما جرى لي معهن في الاسفار التي تقلبت بها في البلاد فلما سمعت كلامها بادرت الى الحديث وذكرت لدون لويس حكايات التقيتها على

البديهة وكل ما فيها نبالا عن مكر النساء ودهائهن حتى رابنه قد قنع من كلامي وصار يضحك وسيدتي من حديثي وراحا يتحدثان عن مكر النساء الى مضي جزء من الليل وقد تعاقدا على الانقطاع عن مزار ابزابلة واقسما انهما يتباحثان فيما بعد بسرها ولا يخفيان عن بعضهما امرًا من امورها

ولما دخل دون لويس مخدعه للرقاد تبعت سيدتي الى مقصورتها واخبرتها بما كان من جلستي في خدمتها وانا افتخر بنفسي من ذلك فسرت مني سرورًا عظيمًا حتى كادت تقبلني وتعتنقني وراحت تثني عليَّ اطيب الثناء ثم قالت من حيث قد تخلصت الان من امر هذه الفتاة واخاف ان يحول دون تمة مرامي مانع اخر اشد عسرًا منه فاني سآخذ من الغد في مباشرة حيلتي ان تشاء الله ثم صرفتني من مقصورتها فنمت في سرير اعد لي بجانب قاعة الجلوس

فصل
في زفاف نور الصباح على محبوبها دون لويس

قال جلبلاس ولما انتبهت سيدتي ومحبوبها من الرقاد تعانقا كعشاق الاسياد ثم نزلا الى السوق للفرجة ولم يرجعا الا قبيل الظهر فجلسا حينًا للحديث رامت سيدتي ان تباشر حيلتها فبدأت تحدثه عن اهلها بدقة وفطنة حتى ذكرت له ان لها خالة قد جاءت سلنكة منذ ايام بضعة لقضاء بعض مصالحها ومعها ابنة عم لها تسمى نور الصباح وسألته هل كانت له بهما معرفة فقال لها اما خالتك فلا معرفة لي بها واما ابنة عم امك فاني سمعت انها بديعة الحسن متوقدة الذكاء والفطنة وهو الحديث الواقع في السنة الناس عنها فقالت له اما توقد ذكائها فاني اقول به كما يقول الناس وهي اهل فيه للثناء واما جمال الصورة فانت اقول شيئًا لاني اراها تماثلني في الخلقة فقال هذا اصدق شاهد على صحة قول الناس لانها ان كانت تماثلك في الخلقة وانت على ما اراك من البهاء والجمال فما هي الا احسن النساء وجهًا ورونقًا واني اشتهي ان اتمتع عيني برؤيتها واجلس اليها ساعة للحديث فقالت له سيدتي وقد وقع كلامه في قلبها موقعًا حسنًا اني اعدك بان اسير بك اليها وان رمت ان تجيء معي بعد الظهر الى منزل حالتي فالخاطر لك في ذلك قالت هذا وادارت الحديث الى مواضيع شتى حتى تبقي الشوق في قلب محبوبها فرحت الى موضع القهرمانة لاعلمها بمجيء السيدين اليها لتدبر الحيلة في ذلك حتى اذا قضيا اربهما من الطعام ركبا اليها فاكرمت وفادتهما واقتبلتهما بالتحية الكثيرة ثم قالت لسيدتي ان ابنة عمها نور الصباح قد نالها صداع في راسها وهي لا تزال راقدة في فراشها منذ البارحة فاظهرت سيدتي اسفها من تعاكس الظروف وقالت لقهرمانتها يا خالة كنت وعدت صديقي دون لويس بان اجلس واياه الى محادثة ابنة عمي فتبسمت القهرمانة وقالت ولكن يا ولدي لا تاخذك لهذا الامر عجلة فانت توجل زيارتك الى غد ان شاء الله فقالت صدقت يا خالة فيما تقولين فاني اودعك الان لحين اللقاء في غد ثم قامت ومحبوبها معها ونزلت واياه الى السوق

وانهما اني بعض الطريق اذ وقع في نفس دون لويس ان يتعشى في ذلك اليوم عند صديق من الاسياد يعرفه ويأخذ سيدتي معه ولما لم تكن لها حيلة للاعتذار وافقته على ذلك وبقيت واياه في منزل السيد المضيف الى انقضاء جزء الليل الاخر وبينما نحن منصرفين الى الفندق رأينا رجلين مصر وعين الى الارض وقد ظننا انهما قتيلان فبادرنا الى تفقدهما واذا بصاحب العسس قد مر بجماعته من هناك وامرهم

orientalia.com

بالقاء القبض علينا لظنهِ انا نحن الفاعلون فتحوقنا غائلة التهمة وبقينا نتقلى على جمر الغضا حتى تفقد العسس حال الرجلين واذ كلاهما سكران وقد شربا الى الثمل وانطرحا كالقتلى في الطريق فضحكنا من هذا الامر وانصرفنا الى الفندق ونحن متحدثين عنهُ وقد اخبرنا صاحب العسس ان احد هذين الرجلين رئيس مدرسة كلية في سلمنكة لايزال اناء الليل سكران مع كل علمهِ وفضلهِ

ولما كان غد اليوم اجتمع دون لويس بسيدتي وكان موضوع حديثها عن نور الصباح فقالت لي سيدتي سر يا جليلاس الى خالتي وسلها عن حالة ابنة عمي وهل في امكانها ان تجلس اليوم الينا فمضيت الى القهرمانة وانفقت معها على وجه الحيلة ثم عدت الى الفندق وقلت لسيدتي تقول خالتك ان ابنة عمك اليوم بخير وانها تقتبلك ودون لويس معك بغاية الاكرام والاعزاز فلما سمع دون لويس كلامي سر من ذلك سروراً كثيراً وفهمت سيدتي ذلك عنهُ فاستبشرت بالخير من حسن النجاح في هذا السعي حتى اذا جاست واياه الى مائدة الطعام جاءها خادم القهرمانة وقال لها ياسيدتي ان رجلاً من طليطلة جاء بخالتك يهتدي منها الى موضعك وقد سلمها هذا الكتاب اليك ففتحتهُ وقرأتهُ واذا فيهِ ان كنت تروم ان تستطلع عن حال ابيك وامك فوافني الان الى الموضع الفلاني ومني اليك كلام انت في غاية الاستفادة لهُ فلما قرأتهُ قالت لمحبوبها اني يهمني ان اجتمع بهذا الرجل فاذا لم ارجع اليك بعد ساعة فامض الى منزل خالتي وانا اوافيك اليهِ واياك ان تتاخر عن المسير اليها لان الزيارة قد وجبت اليوم عليك بعدما كان من وعدك اليها بالامس قالت هذا وخرجت موعزة الى بنت اخي معها وامت منزل قهرمانتها لان كتاب الرجل من طليطلة كان حيلة لان تفترق عن محبوبها فلما صارت في المنزل نزعت الشعر الاشقر الموضوع على راسها وغسلت حاجبيها حتى اسود لونهما وخلعت عليها لباس النساء من الحرير والقطيفة وتحلت بالجواهر والحلى وتزينت وتزوقت باقصى ما قدرت عليهِ حتى صارت فتنة للعابدين واتخذت لها من حذاء النساء ما انتهضت بهِ قامتها عما كانت وهي في لباس الرجال وبقيت زمناً تنتظر مجيء محبوبها وهي تتقلب بين الخوف والرجاء معاً فتارةً تومل انها تفتنهُ بجمالها ودلالها وتارةً تظن انهُ يفطن لحيلتها فيعلو وجنتيها احمرار الخجل لذلك

قال جليلاس فلما دنا الوقت الذي يجيء فيهِ دون لويس تخبأت في بعض المقاصير حتى لا يراني في منزل الخالة لعلمهِ باني رافقت سيدتي (دون فلكس) الى محادثة الرجل الطليطلي فما كان بعد قليل الا ان جاء يطرق الباب فبادرت القهرمانة الى اكرامهِ والتلطف بهِ وادخلت عليهِ نور الصباح فتحدث اليها ساعة طويلة وهو يعجب من فصاحتها وجمالها ثم اني دخلت عليهِ وقلت لهُ ايها السيد الشريف ان سيدي دون فلكس قد اعاقهُ دون المجيء اليك شغل شاغل ويلتمس المعذرة منك وهناك ثلاثة رجال من طليطلة قد احدقوا بهِ حتى لا سبيل لهُ الى الخلاص منهم فصاحت القهرمانة اف على هذا الولد العاتق القالت كاني بهِ هولاء الرجال يجلسون الان الى الشراب واللهو فقلت لها اخفضي ياسيدتي عنك ما تظنين بسيدي دون فلكس فانما هو مع اصحابهِ في حديث مهم وقد ابدى الميَّ كدره لتعذر المجيء عليهِ فقالت نور الصباح انا وحياة بنت عمي لا اعذرهُ على تاخره عن الحضور ولا سيما قد علم اني كنت مصابةً بالامس بالام شديدة واني سانتقم لنفسي منهُ بان احرمهُ من الجلوس اليَّ عشرة ايام احتجب فيها عنهُ فقال دون لويس لاتقسي عليهِ ياسيدتي فاني ارى دون فلكس يستحق الشفقة والرحمة من حيث انهُ لم يتمتع اليوم عينيهِ برويتك فكم يكون

انتقامك منه شديداً اذا لم نسعفي له برؤيتك طلعتك الى اخر هذه العشرة ايام

وبعد ان تحدث قليلاً عقيب ذلك انصرف عن سيدتي الى موضعه وهو لم يعلم بشيء من حيلتها عليه فتسارعت الى خلع ارديتها ولبست زي الرجال كما كانت قبل ذلك ومضت الى الفندق وقالت له اعذرني ياسيدي على عدم موافاتك الى منزل خالتي وانا هد فرحت عنك لتمكنك من رؤية ابنة عمي فاصدقني باسمي فيما تقول فيها فاجابها ياسيدي اني رايت ابنة عمك كاحسن ما يكون من النساء ولقد صدقت في قولك لي انها تماثلك في الخلقة فهي اشبه بك من الماء بالماء ملكما عينان مشابهتان وفمان متشابهان وصوتان متشابهان وليس بينكما فرق الا انها اطول منك قامة واقل مزاحاً منك وانها هي سوداء الشعر وانت شقراء وفيها من الفطانة مالا اظن ان في غيرها من النساء مثله وفي جملة الكلام فاني لم ار اجمل ولا ابدع ولا الطف ولا اشهى الى القلب من بنت عمك نور الصباح . قال هذا الكلام عنها وقد اظهر ما في نفسه من عشقه اليها فلحظت ذلك وقالت له وهي تتبسم لقد ندمت ياصاح على ما كان مني من ادخالك على ابنة عمي واعزم البك الان ان تقصر الزيارة اليها لئلا يتعلق قلبك بهواها فقال ان قلبي قد هام وجداً بها دون تردد الزيارة اليها فقالت اني اسف لذلك لان ابنة عمي لا تفي غرامك بالغرام كما رايت من ابزابلة الا ان تطلبها من اهلها للزواج . فقال وهل تظن اني اعشقها لغير الاقتران بها لا وانما احسب نفسي اسعد الناس اذا رضيتني ان اكون لها زوجاً . فقالت اذا كنت تعتقد النية كما تقول فاني اكون شريكك في السعي الى تتمة مرغوبك واكلم بنة عمي بشانك واستجلب رضا خالتي عنك فشكرها محبوبها شكراً جزيلاً وبات ليلته تلك في انعم بال واعذب آمال

ولما كان في الغد انطلقت سيدتي الى منزل قهرمانتها وهي توهم محبوبها انها تريد مفاوضتها في شانه وقد طاب خاطرها واستولى عليها السرور المفرط لنجاح مسعاها في حيلتها ثم عادت وهي تروم ان تمكن الشوق في نفس محبوبها الى تتميم ما نوى فقالت اني جلست الى خالتي وفاوضتها ملياً في شانك فلم ار منها في بادي الامر اقبالاً عليك كاني باحد من الناس قد وصفك اليها بالشر والمكروه فبالغت في مدح صفاتك والثناء على كرم اخلاقك وانا اتجد في الكلام واعوذ حتى تمكنت من ان انفي كلام المفسدين عن عقلها واجعلها راضية عنك . وانا احب ان اجمعك واياها صباح غد فتتذاكرا معاً بهذا الشان فرد دون لو بس من كلامها سروراً لا مزيد عليه وتشوق الى مفاوضة خالتها مما اكد لها انه شديد الكلف بها حتى اذا كان الاجل المضروب ركب واياها الى منزل القهرمانة وكشف اليها عن مبلغ عشقه لنور الصباح وانه ينبغي الاقتران بها فاظهرت القهرمانة كانها مشفقة عليه ووعدته بان تقنع بنت عمها على ما يروم منها فانطرح على الارض بين قدميها وبث اليها شكواه وامتنانه وهو لا يكاد يصدق بما يراه ويسمعه من شدة فرحه وسروره

ثم ان دون فلكس سال خالته عن نور الصباح فاجابته انها لا تزال راقدة في فراشها وانه يتعذر رؤيتها الا بعد الظهر فودعها وانصرف مع دون لو بس وقد رأى او بالاحرى رأت من اقباله عليها ما كادت تطير منه فرحاً لان حديثه اليها لم يكن بعد ذلك الا عن عشقها وغرامها . فلما كان قبيل العصر قالت له وقع في ذهني الان ان اكلم بنت عمي قبل ذهابك اليها فاذا سرت ومضى بعد مسيري ساعة واحدة فانت تتبعني الى منزل خالتي فقال ان طاعتك واجبة علي في كل ما تحب فانا افعل الان ما تامرني به فركبت الى قهرمانتها

واسرعت في خلع ثياب الرجال ولبس سراويل النسا وتزوقت وتجملت كما فعلت بالامس حتى اذا جاء محبوبها جلست اليوم قهرمانتها وتراجعت معهُ الحديث وهو متعجب من غياب صديقهُ دون فلكس مفتقد لوجوده. فاعلمتهُ القهرمانة انهُ دخل المقصورة يحرر الى اهلهِ كتابًا ينبئهم فيهِ عن حالهِ وانهُ لايلبث حتى يوافيهم الى موضعهم . ثم مضى زمن وهولم يحضر باستطال دون لويس غيابهُ وسال القهرمانة عنهُ مرةً ثانيةً فضحكت سيدتي عند ذلك وقالت لهُ لله العجب ياسيدي الم تفطن هذه الساعة الى الحيلة التي احتلنا بها عليك فوجيان شعرًا اصنعهُ على راسي وصباغًا اصبغ بهِ حاجبي يغيران عليك خلقي ويخفيان عنك صورتي ولكن لتعلم ان دون فلكس ونور الصباح انما هما شخص واحد لاشخصان وانا انما اقدمت على هذه الحيلة لوقوع قلبي في شرك هواك فلما سمع كلامها وتحقق امرها تعجب من ذلك غاية العجب وكان من شدة سروره من فطنتها واعجابهِ بجمال صورتها ان انطرح على الارض بين قدميها يبث اليهِ شكرهُ و بات معها في ذلك اليوم باطيب حديث واهنى فرح . ولما لاح الفجر ركبا عجلةً مزخرفة وركبت القهرمانة والخادمة عربة مثلها وسرنا نريد مدينة مدريد وقد وقع اتفاقهما على انهما يتزوجان فيها على مشهدٍ من النفس ويدعوان سائر الاعيان والامراء الى ولائم افراحهما . فكان ازفافهما من البسط والانشراح والزينة واللهو والطرب ما لا سبيل الى التعبير عنهُ بالقلم ولا باللسان

فصل

في تحول جلبلاس عن خدمة نور الصباح الى خدمة عم دون لويس

وبعد ان زفت سيدتي على محبوبها اعطتني مئة دينار تكافئني بها على حسن خدمتي وقالت لي ياجلبلاس قد طلبك اليَّ عم زوجي واحب ان تكون خادمًا عندهُ فانا لا اشحدك من منزلي ولكنك ان احببت ان تمضي الى هذا العم يعقوب فتجد ماشئت من رجل رقةً وظرافة وكرم اخلاق . ففكرت ساعةً فيما قالت لي ولمَّا لم يبقَ لي شغل عندها ولا خدمة وافقتها على ما عزمت عليَّ وشكرت فضلها للاهتمام بامري . فلما كان بعد ذلك مضيتُ في الظهيرة الى قصر العم فلم يكن قد انتبه مع ان النهار كان في نصفهِ فانتظرت في الدهليز حتى أُذن لي بالدخول عليهِ فرايتهُ يشرب مرقًا يقوي بهِ شيخوخته (لانهُ كان طاعنًا في السن) وصفتهُ انهُ مقدد الجسم كالموميا المصرية لايفرق عنها الا ان في جسمهِ نسمة الحيوة . وشارباه مرفوعتان الى اعلى خديهِ وعيناه يكاد ينطفئ نورها لضعفهما ولونهُ اصفر كاسف وهو من الشيوخ ما بين الشيوخ بمنزلة المخنثين من الاسياد ما بين الفتيان . فلما رآني طاب خاطره وامرني بان لا افترق عنهُ البتة وعين لي راتبًا وقال لي ان لي المزيد عندهُ أن شرمن خدمتي . فلما قام من فراشهِ خلت كانَّ العازر يقوم من بين الاموات لانهُ كان من جفاف الجسم بحيث لو رآهُ رآهُ مجردًا عن اللباس لعلم تركيب العظام في الانسان كما يعلم الاطباء . فجلس الى مائدتهِ وكتب عليها رسالةً ودفعها مع بعض خدمهِ ثم التفت اليَّ وقال قد وقع في نفسي ايها الفتى ان اوجهك في رسائلي كل يوم الى فتاة احبها تسمى سارة وهي تحبني الى اقصى درجات العشق

فلما سمعت كلامهُ قلت في نفسي يالله اذا كان هذا الشيخ الفاني يظن بان النساء يعشقنهُ الى العبادة فماذا يبقى للشبان من اهل البهاء والجمال . ثم انهُ قال لي وقد عزمت على المضي بك اليوم اليها فتروى من عندها في المقال وادبها في السلوك ما تجعل بهِ طلبتك عن النساء وتقضي بانها انما تحبني لاني اعرف احب وان لم

اكن حدث السن ثم ذكر لي عنها اشياء لم اصدقها من عشقها له لاني رايت من سلوك عزة مع الشيوخ ما لابد لغيرها ان تفعل مثله غير اني تظاهرت بتصديق كلامه ورحت اثني على صحة ذوقه واصف سارة بكل محمدة واقول انها سعيدة الحظ بين النساء لاحتياذها اياه دون الامراء حبيبًا فكان يصدق مديحي ولا يرتاب اصلاً في صحة ما اقول

وبعد ان فرغ من كتابته نتف شعرًا من لحيته بملقط ثم غسل عينيه ليرفع عنهما عمشًا فاضحًا وغسل اذنيه ويديه وخضب شاربيه وحاجبيه وشعره بالسواد واتفق من الوقت على تزيين صورته ما تتفق العائنة الشيخة لتستر دون صورتها عيوب الايام . ولما كان قبيل الظهر دخل عليه كونت شيخ من اصدقائه وعائنته وطلب اليه ان يغديه في ذلك اليوم عنده فلبى طلبه ودار الحديث بينهما بعد ذلك واكثر ما سمعت من الكونت مبالغته في الكلام بقوله ان كل شي في صباه كان اعظم مما هو لاياما فاذا حدث عن بطل ليومنا قال اين هو من ابطال زماني الاول واذا ذكر له عن ملك واسع الرزق قال لله ما كان اعظم شان الملوك في ضباي وحتى اذا ما جلسنا الى المائدة وقدمت اليه صحيفة الذراقن وكانت كبيرة قال لله ما كان اكبرها في زماني الغابر . غير ان الصفة التي يمتاز بها عن سيدي انه لا يحب ان يستر شيخوخته مثله فكانت لحيته بيضاء كالثلج وكان يتكيء على عصاة يستعين بها على المشي كانه يفتخر بطول المشيب

ولما انصرف من حضرة سيدي ركب وانا معه الى منزل تسكنه سارة وهو من اتقان الفرش والاثاث ما يشابه منزل عزة . فلما دخلنا عليها دهشت من حسن رعيها ورايتها قد زوقت وجهها حتى اصارته كوجه جارية صغيرة مع انها تجاوزت الثلاثين من العمر واكثر ما اعجبني منها حسن منطقها وهدوها في الحديث لاني لم ار من الغواني قبلها الا كل فاجرة صخابة . ولكني قدرت انها تتخذ الرواق حيلة لامتلاك لب سيدي فاذا ما ابتعد عنها عادت الى الفجور والفوضاء كاني بها حرباء تتغير في الوقت القصير الوانًا واشكالاً . فصار سيدي يبتسم اليها وهو يظهر حين يتغزل في عينيها كانه المنازع عند الموت فتركته وحبيبته ونزلت الى حجرة الخدم فلقيت خادمة سارة شيخة كنت التقي بها في منزل عزة وهي تجيء مع سيدة لها مغنية فعرفتها وعرفتني وتراجعنا الاحاديث ساعة فقالت لي منذ متى انفصلت عن خدمة عزة المغنية فقلت اني لما افسدت ضميري عندها نبذت خدمتها وخدمت بعدها سيدًا ثم سيدًا ثم هذا السيد اليوم فقالت جزاك الله على صلاحك وانا عملت مثلك فهجرت الغواني وجئت اخدم هذه السيدة الشريفة العفيفة الفعال ويسرني منها انها اذا تكدرت من امر لم تصخب بي كغيرها من النساء فقلت لسرورك من سيدتك وثنائك عليها بما كان سروري من سيدي وثنائي عليه فهو يحتفل بي ويتخذني كصاحب لا كخادم فقالت اما انا فيسرني من خدمتي اني انفق عمري هنا بالرواق والسكينة اذ لا يجيئنا احد غير سيدك زائرًا فارتاح الى مجالستك كل يوم لميل قلبي اليك من يوم كنت تجتمع بليلى صاحبتك وتشعل في فوادي نار الغيرة . وظني بك انك تصيرني سعيدة كما صيرتها فتوصل حبالي وانا اقابل نعمتك بالشكر والوفاء فلما سمعت كلامها لم اتعجب منه لانها لو لم تعرض نفسها وتنتظر حتى يسعى الرجال الى حبها وهي بمكانها من العجز والشيخوخة لم يقبل عليها احد الا بعزيمتها عليه . فاظهرت اني اشتهي ذلك ولكن نفسي متعففة منها . فلما كان غد اليوم وانا اظن انها تحبني الى الجنون عرفت مكرها وخداعها وعلمت انها انما راودتني عن نفسها لتستميلني الى سيدتها حتى اذكرها الى سيدي بالوصف الحسن

وذلك لما جئت في الصباح برسالتهِ اقبلتا كتابها عليَّ وصارت تقول احداهنَّ اني جميل الصورة وتقول الاخرى اني لطيف المعشر فصيح الكلام حتى اجمعتا على ان سيدي قد حاز كنزًا باختياره اياي خادمًا ففهمت حيلتها من المديح ولم اظهر ان لي علمًا بها ثم قالت لي سارة اسمع لي ياجلبلاس انت ان وافقتنا على ما نحن فيهِ فيصير اليك مني مالٌ ونعمة فهذا سيدك شيخ يدركهُ الفناء واذا ماسلط الله حمى عليهِ فقد قبض عزرائيل على روحهِ ولا سيما اذا طبيبهُ دجال كمن يقال فيهِ

يمشي وعزرائيل من خلفهِ
مشهر الاردان للقبض

وتراني ابذل الوسع لان املك لبهُ حتى يكتب لي مالهُ فافاسمك بحصة منهُ . فقلت لها بيني لي السلوك الذي ينبغي ان اسلكهُ وانا امتثل امرك في كل ما تعينين فقالت اطلب اليك ان تترقب حركات سيدي واذا خلوت بهِ ان تذكرني بالاوصاف الجميلة واعمل في ان لايفوتك ادراك سعي ما يكون من اقاربهِ حتى اذا رأيت احدًا قد تسلط عليهِ فاعلميني بهِ حتى أُظهر حيلتي عليهِ كما ظهرت على جماعة منهم كانوا يلوذون بهِ ويتقربون اليهِ املا بوراثة مالهِ

فلما وعيت كلامها علمت ان في سلوكها مع سيدي بهذا الرواق وإهداء الحيلة تتمكن بها من اخذ مالهِ وتكدرت في نفسي من ذلك وانا اتظاهر بموافقتها على حيلتها في الظاهر حتى اذا صرت في الطريق اشكل عليَّ الاختيار اي الامرين في ذلك فاما ان اخون سيدي واما ان احمله على شرها بافشاء سرها اليهِ فغلبت على المروة وعولت على صدق خدمتي لسيدي املاً بانهُ اذا وقف على حيلتها عليهِ اجازني باكثر مما تجيزني هي . ولكني رايت من العزم ان لا اخاصمها بهذا الشان فكنت اذكرها اني لا ازال اذكرها بالمديح واثني عليها بحضرة سيدي حتى خدعتها بالمكر والحيلة وكنت اتظاهر بعشق خادمتها وامتعها بحسن سياسة اوهمها بها حسن وفائي لسيدتها فكانت تنطق لذلك وتسر من حبي لها على كل حال اكان سياسةً مني او عشقًا صادرًا من القلب . وبعد ان مضت ايام طويلة اذهب فيها اليها وانا لا ارى رجلاً يجيء الى سارة تعجبت من وفائها لوداد سيدي وقدرت انهُ لابد من وجود حيلة تستر بها كل شيء عن نفسها

فلما كان صباح يوم وقد حملت اليها رسالة سيدي كعادتي في كل يوم رايت في حجرتها تحت الستارة رجلي رجل مختبئ وراءها فلم اظهر اني لحظت ذلك حتى اذا انصرفت بالجواب لعنتها بنفسي الف لعنة وعقدت النية على السعي بها الى سيدي مع ان الاحرى بي كان ان لا اتكدر من ذلك علمًا بانها تشفي مرارة ضجرها من مجالسة سيدي بحب سيد من الشبان . فلما دخلت عليهِ قصصت عليهِ الواقعة كيت وكيت وانها عزمت عليَّ ان اتواطئ معها على الحيلة وانى رايت وراء الستارة في مقصورتها رجلاً مختبئًا . فلما سمع كلامي تعجب مني ولم يصدقهُ تحملاً منهُ على صدق حبيبتهِ اليهِ فاستعدت في الواقعة فاعدتها بابلغ واقصى عبارة من اول مرة حتى لم يبقَ في فؤادهِ ريبٌ من ذلك وهو قد التهب وجهةً غضبًا وقال ياجلبلاس كفى من كلامك الان شاهدنا على امانتك ومروتك وانا امضي الان الى هذه الفاجرة فاوسعها شتمًا واهانة ولا اعود بعد اليوم الى مزارها

ثم انهُ مضى ولبثت افكر بانهُ يقلع عن عشقها ويرجع الى مودة اقاربهِ فيشكروني على مروتي ويسكبون عليَّ شآبيب انعامهم اذلك مما يرثون من مالهِ . فلما عاد قال قد اجتمعت الان بسارة وشتمتها وبلغتها ما رويت لي فقالت انك كذبت وافكت في كلامك وانك اطمعك بعض اقاربي المال فاردت

ان توجد حيلة لصرم حبالها وابتعادي عنها تمامها بكت حتى بلت الارض دمعها واقسمت بالله انها لم تجلس الى رجل غيري قط وبرئت نفسها من التواطئ معك على حيلة من الحيل وكذلك ذكرت لي خادمتها الامينة التي يبعد عن العقل انها تنطق بكلمة كاذبة او تشهد شهادة زور . فهدأ روعي وطاب خاطري بعد انقباضه

فلما اقتص على مقالته تاسفت من ذلك غاية الاسف وقلت له اذن انت لا تصدق كلامي ياسيدي فقال اسمع ياجلبلاس انا اثق بامانتك واعلم بان ليس بينك وبين اقاربي مواطئة غير ان الذي ظننت انك تراه وراء الستارة فهو غير شيء ظننته شيئًا وانا ليس في استطاعتي ان اقلع عن عشق هذه المراة وهي ترجو مني ان ابعدك عن خدمتي ولا امكان لي الى مخالفتها . فاذا اصبحت في غد فاني امضي بك الى منزل امينة واجعلك خادمًا عندها فتسر من موضعك الجديد . فلما دعيت كلامه ضاق صدري بما كان من دوار الدائرة عليّ بعد ما كان من مروءتي وهمتي وبقيت يومي كله اسب سارة في نفسي واسف لامتلاكها فؤاد سيدي حتى اقبل الصباح فاعطاني عشرين دينارًا امكافأة لي ومضى بي الى هذه الامينة واثنى بحضرتها على مروءتي وعزم عليها ان تتخذني من بعض خدمها حتى اقتطعها بذلك ومكثت عندها منذ ذلك اليوم خادمًا

فصل
في تحول جلبلاس الى خدمة الامينة وانفصاله عن مدينة مدريد

وكان منزل هذه الامينة محطًا لرحال العلماء والادباء والشعراء يقصدونها من كل وجه ويحضرون مجلسها لشهرتها بالادب وفصاحة المنطق وكنت عندها حاجبًا آذن لهم بالدخول اليها وعندها من الخول غيري ما لا يكون عند نساء الملوك كثرة عدد ولها غلة مئة الف درهم في كل سنة وهي في رغد ودعة وخفض عيش . فاتفق في بعض الايام بينما كنت على الباب اذ وفد رجل قبيح المنظر احدب واستاذنني بالدخول عليها فانفت منه ولم آذن له رفعًا لقدرها عن ان يدخل عليها مثله ثم دخلت عليها اعلمها بشانه فغطنت له وطاب خاطرها عند ذكره وامرتني ان آذن له . فلما دخل عليها صرفت قهرمانتها واختلت به ساعة او اكثر منها ثم صرفته وودعته الى باب مقصورتها وهي تظهر عظم سرورها به حتى اذا خرج الى السوق دعتني اليها وامرتني بانه اذا عاد في الغد ادخلته عليها بالسر الغميق حتى لا يفطن احد من خدمها لذلك . فتعجبت منها في بادىء الامر وخالج صدري افكار كثيرة بهذا الشان وصرت كلما جاء الاحدب جاوزته سرًا الى مقصورتها فيجلس اليها ساعة او نحوها ثم ينصرف الى موضعه وقد ظننت فيه انه اما ان يكون حبيبًا لسيدتي او رسولاً بوجهة اليها احد الامراء وبقيت اراوح بين هذين الظنين زمنًا طويلاً وانا لا اعرف الرجل من هو حتى عرفت في بعض الايام انه مشعوذ دجال ياتي ضعفاء العقول من الرجال والنساء فيعلمهم صناعته ويا خذ المال الكثير منهم ولا سيما من النساء على ما تعهد من تصديقهن الشعوذة وقولهن بوجود السحر وعلم الغيب والكهانة والرؤيا وغير ذلك

وبعد ان بقيت في منزل الامينة نحوا من سنة شهور قضت الايام بان انفسح عن خدمتها لعلة لم اطق مقاومتها وذلك انه كان في جملة الخادمات سرية بديعة الحسن يقال لها بدر فتعلقت بحبها على حين كان تحولي الامينة شغفًا بها كلفًا بحبها ايضًا . فلما

علم بذلك حرقته نار الغيرة وانتدبني الى القتال بالمبارزة وعين الموضع الذي نلتقي فيه معًا فحدثتني نفسي بموافاته اليه املاً بان اعلو عليه بالسيف لارتفاع قامتي عن قامته واعود بعد ذلك الى بدر منصورًا فلما التقيت به ولم ادرِ انهُ ماهر بالفروسية خيرني بها حمل علي حملة صرعني بها الى الارض ونزع عني سلاحي وقال اما طعنتك بالحربة فتقتلك واما اقسمت بان لا تعود بعد اليوم الى محادثة بدر . فلما سمعت كلامهُ من العنو كدت الاّ اصدقهُ لما بي من الجهد وحلاوة الروح فوعدتهُ بان افعل كل ما يريد مني وهرعت ثمَّ الى منزل الاميرة قبل ان ينتشر خبر غلبي في المدينة فاخذت ثيابي وما يستحق لي من اجرتي وانفصلت عن مدريد وفي نفسي ان ازور طليطلة اجابةً لداعي الشوق اليها وانا مسرور وكل السرور لوجود الدنانير الكثيرة في جيبي ومومل بان افني عمرًا طويلاً دون ان انفقها الى اخرها

فوصلت الى طليطلة بعد مسير ثلاثة مراحل وهي قاعدة الاندلس ومنع البلاد واحصنها ولها نهر يشقها ويسقي بساتينها فنزلت في احسن الفنادق فيها وعبر الناس يظنون بي اني سيد شريف لما كان من حسن زيي وهيئتي وكان يتسنى لي ان احصل على نعم كثيرة من النساء غير اني خفت النفقة عليهن فاعرضت عن ذلك . ثم انفصلت عن طليطلة ونزلت في خان على الطريق واذا بجماعة من الشرطة قد دخلوا الدار التي كنت فيها وطلبوا من الخاناتي ان يأتيهم بخمر في اقداح فاتاهم بذلك فشربوا وجلسوا يتحدثون وقد سمعت من حديثهم انهم سرّحهم صاحبهم للقبض على رجل صفتهُ كذا كذا ومطيتهُ شقراء وعمرهُ لا يتجاوز خمس وعشرين سنة . فلم ابالي بكلامهم وركبت دابتي ومضيت الى حيث اقصد من ارض اراغون واذا بفرس اشقر يقبل الى ناحيتي فتنبهت لكلام الشرطة وقلت ربما كان هذا طالبهم فاجهدت الدابة حتى اقبلت عليهِ فاذا هو على الوصف الذي وصفوهُ لنفسهم فقلت يا هذا اني رايت الشرطة يطلبون فتىً صفتهُ كذا كذا فهل تكون انت بغيتهم فقال نعم اني هارب خائف فقلت هدىء روعك ايها الفارس وهلمَّ اتبعني حتى اواريك عن ابصارهم ونقي انفسنا من هذا الشتاء الذي سنمطرهُ السحب بعد قليل فقال سمعًا وطاعة ايها السيد الكريم ثم سرت واياهُ حتى ولجنا مدخلاً بين اشجار متكاثفة وانتهينا منهُ الى سفح جبل حيث هناك كهف للزهاد بين الصخور قد نبتت عليهِ الخضرة واحدقت بهِ الزهور والرياحين من كل جانب وانفجرت الى جانبهِ من مخارق الجبل عين تصب مائها في السهل فينساب بين زمرد النبات كانهُ نهر من اللجين المذاب

فلما اقبلنا على الكهف راينا ناسكًا شيخًا واقفًا الى بابهِ متكئًا على عصاة غليظة ولهُ لحية بيضاء تنحدر الى وسطهِ وقد الحف راسهُ بجلدة بقي بها نفسهُ من قرصة البرد فدنوت منهُ وقلت لهُ ايها الناسك البار اهل عندك موضع نبيت فيهِ حتى يهدأ السماء وتذهب الزوبعة فنظر اليَّ بتدقيق وتحقيق ثم قال تعالا يا ولديَّ وقيدا فرسيكما في هذا الموضع وما كاد يتم كلامهُ ان استهلت السماء بامطار جوّد وارتفع صوت الرعد حتى ملأ الارض فجئنا امام ايقونة ملصوقة الى جدار الكهف ساجدًا واحتذينا بذلك مثالهُ فاقام صلاةً طويلة حتى هدات السماء وكادت تغرب الشمس فقال لنا ان السماء لم تصفُ بعد ولذلك لا ياذن لنا بالانصراف فشكرنا لطفهُ واحسانهُ واسعفنا نفسنا بهِ الى غاية ما يكون . ثم انهُ جاءنا بخبز وجوز وجبن فاكلت الى الشبع لحاجة شديدة كانت لي الى الطعام . اما رفيقي فلم ياكل لقمة واحدة فقال لهُ الناسك اراك ايها الفارس قد تعودت الطعام النفيس حتى انك لا تاكل

OpenKanar.com

من طعامنا فاعلم اني كنت قديمًا مثلك فلما حاولت العزلة الى هذا الكهف وتبتلت الى الله لم آكل من الطعام الا الثمار والدقيق والحليب وهو الطعام الذي كان لايام اباءنا في زمن التطمل . ثم نظر اليه فراهُ مستغرقًا في بحر الافكار فقال له ايها السيد حدثني بوقائعك ولا تخفِ مني عليَّ امرًا فاذا كان في استطاعتي نصحتك بما يؤدّيني عمري الى ما يكون لك اكثر فائدة واجمل عائدة فقال له ايها الناسك المبارك اني شديد الحاجة الى ملافاتك اياي بالنصيحة وهذه قصتي اسردها اليك فترى منها ما اتفق لي وحاق بي من السوء ثم تتبع ذلك بنصيحتك المباركة فانقاد الى ما تشير به علي

فصل
في قصة دون الفونس مع انس البديعة الجمال

قال دون الفونس هذا الرفيق من غريب ما اتفق لي في ولادتي مما لم يتفق لاحد غيري من الناس ان امي ابوابي لم يقرّا بابني ولدها خوفًا على عرضيهما من الفضيحة فامرا بابني احمل الى سيد كريم يقال له تياذوق وهو مشهور بالحلم والرافة ولا ولد له فكتبا رقعة يقولان فيها اني من سلالة الشرفاء ولكن للظروف لا تسمح لابي بان يعترف بي جهرًا الا بعد زمن وان اسمي دون الفونس فلما رآني تياذوق مطروحًا على باب منزله في زنبيل نظيف وقرأ الرقعة التي فيه غلبته الشفقة عليَّ واحتضنني ووكل بي امرأته ونشأتُ بين ايديهما وانا لا اعلم عن ابوي شيئًا من الاشياء وكلما تقدمت من العمر انست في تياذوق من التحفظ بي ما ليس بالامكان احسن منهُ حتى اذا بلغت عشر سنين اسلمني الى المؤدب وهو يروم ان ابي لا يزال مبتكرًا حتى وغير معترف بي حتى ابقى عندهُ بمنزلة الولد من الوالد . ثم كبرت بعد ذلك فعلمني الفروسية واتفق ان الاعداء كانوا يسعرون نار الوغى على الاندلس فاحب ان اكون في عدد الجند وقال اني اذا كنت بطلاً شجاعًا كسبت الشرف بهمتي ومروتي وان لم يكن لي اب معروف عند الناس فلما سمعت ذلك تكدرت كدرًا لا مزيد عليه لعلمي وعلم اهل مدريد كافة اني لم ابن تياذوق نفسهُ غير انى تسلحت بالصبر وخضت ميدان الحرب باقدام وثبات لعقد النية على الموت او الفوز فان قتلت فقد خلصت من العار وان ظفرت فقد حصلت الشرف وادركت المعالي بهمتي وحسن اقدامي كما قال الشاعر يخاطب نفسهُ في الحرب

وقولي كلما جشأت ومانت
مكانك تحمدي او تستريحي

فوفق الله اني نلت الظفر في هذه الحرب وعدت الى منزل تياذوق محفوفًا بالنصر وصار يتعطف لي زمنًا طويلاً حتى دخل عليَّ في بعض الايام خادم وسلم اليَّ رقعة فيها الكلام لتعلم ايها السيد انى لست بقبيحة المنظر ولا سيئة المعشر حتى انك تراني من الشباك كل يوم ولا تبتسم الي مع آنك لطيف المنظر مشهور بالدقة والظرف . ولكني اروم الان ان اشغل قلبك بهواي حتى انتقم لنفسي منك على ما كان تبهك وجفاك . فلما قرأت الكتاب عرفت انهُ جاءني من لدن جارة لنا تسمى هند وقد اشتهرت بالخلاعة والفسق فكتبت الجواب مشيرًا الى ان عشقها قد وقع في قلبي ودفعت الى الرسول بضع دراهم حتى يسلمهُ اليها ولبثت بقية يومي واقفًا الى الشباك ابتسم اليها وهي تبتسم الي حتى اقبل الغد فجاءني خادمها برسالة اخرى تعزم عليَّ بها ان اوافيها في منتصف الليل الى شباك في الطابق الارضي لمذاكرة معها فتشوقت الى ذلك حتى اذا مضى جزء من الليل نزلت الى الشارع انمشي فيه ابينما

تطل من الشباك واذا بفارس قد دنا مني وترجل وقال بغير احتشام ألست ابن نيادوق فاجبته اني هو فقال اذن انت تنتظر هند التكلم من الشباك فلم اجبه على ذلك فقال اعلم ان خادمها قد اطلعني على مكاتبتك واني انتظرتك هذه الليلة في هذا الموضع لاذيقك مر النكال فاما اقلعت عن عشق مولاتي واما قتلتك الساعة لامحالة فقلت له يا هذا من حيث انك تتوعدني بالقتل فاني ارفض مسئولك ولو كنت رجوتني بذلك رجاء لفعلت فلما سمع ذلك انتفض من الغضب وعمد الى فرسه فقيده الى شجرة وقال لي هلم بنا الى المبارزة في هذا الموضع المنفرد واشكر نعمتي قبل كل شيء من اجل اني لم اعاقلك بضربة وانت نازل من دارك فجردت سيفي ووثبت عليه وهو يثب عليّ فطعنته في صدره فمال الى الارض يخبط بدمه قتيلاً فعمدت الى فرسه واعلوته اطلب الفرار والنجاة دون الاستئذان من نيادوق مخافة ان اكدر صفو خاطره بذلك فاسريت طول ليلي وانا في قلق شديد حتى طلعت الشمس واشتد علي الحر فعطفت على موضع استريح فيه وفرسي من التعب حتى غربت الشمس فعمدت على المسير الى طليطلة وقد اصابني جهد شديد وطلعت عليّ غاصة هائلة فلمحت حائط بستان على القرب مني فقصدت نحوه واذا بحجرة قد اقيم على بابها روشن مرتفع فوقفت تحته اتدارى وفرسي من المطر وقد هدأ روعي وطاب خاطري ثم انكأت على الباب فاذا هو مردود غير مقفول فقدرت ان الخدم قد غفلوا عن قفله وما لبثت ان ترجلت وقدت الفرس الى الحجرة وقعدت انظر الموضع الذي انا فيه كله واوقعت صاعقة من السماء لاتحقق امره في هذا الليل الداجي فاذا هو قصر منيف قدرت ان يكون صاحبه شريفا من الاسياد الكبراء . فلبثت انتظر انفراج الغيم وانقطاع المطر لاتمكن من المسير واذا بضوء قد لاح في بعض جهات القصر فقصدت موضعه املاً بان الفي احداً من سكان القصر وارجوه بان يضيفني الى الصباح

وبعد ان جزت في هذا القصر دهليزاً بعد آخر انتهيت الى قاعة كبيرة رايتها كاحسن ما يكون من مجالس الملوك وفي سقفها وجدرانها نقوش مذهبة وفيها ثريا كبيرة عليها شموع موقودة فوقفت انفرج على محاسنها حيران وانا لا اسمع في القصر حركة ولا ارى فيه احداً من الانس ولا من الجن . ثم رايت في اطراف القاعة باباً مزخرفاً فدفعته فانفتح عن رواق طويل في مقاصير كثيرة قد سودها الاظلام الا المقصورة الاخيرة منها فتحيرت مما انا فيه وكدت ان انكص على الاعقاب خوفاً من ان يهجم عليّ احد من ارباب القصر ثم ساقني طالعي الى ان انظر من فيه فانتهيت الى الغرفة المنورة فاذا هي مفروشة بالحرير الصيني وهناك شمعة على مائدة من المرمر تضيء في شمعدان من الفضة ثم نظرت فاذا في صدرها سرير من الديباج قد ازيحت استاره وفيه فتاة راقدة يخجل البدر جمالها قد نوت منها بوطلي خفي فكدت ان اشهق لرؤيته جمالها وقد خفقت احشائي وتبلبل بالي وما عدت ادري ما انا فيه ساعة غبت فيها عن الصواب وانا اتامل بهذه المحاسن التي لاتكون في احد من البشر

قال دون الفونس وبينما كنت متمتعاً برؤية هذه الفتاة الحسناء اذا انتبهت من نومها وقد راعها وجودي في مقصورتها فصرخت تستغيث بخدمها فاعملت على عجلة روعها وركعت على الارض وقلت ياسيدتي بالله لا ترعي عنك خوفك لاني لم ات الى هنا الا روعك فلم تصدق كلامي وبادرت على قهرمانتها قبل ان استتم مقالي فلم يوافها احد منهن فتناولت رداء كان على سريرها والتحفت به ووثبت الى الرواق وطفقت تنادي جواريها واختاها الصغرى في العمر منها . فظننت لاول

وهلة ان خدمها سيثبون عليّ ويوسعونني ضربًا قبل ان يسمعوا اعتذاري اليهم ولكن حسن طالعي قضى بان لم يوافها الا خادم تكاد تغلبه الشيخوخة . فلما امتثل بين يديها استأنست به وتجرأت على الكلام وقالت لي من انت ايها الرجل وكيف تجاسرت على الدخول عليّ فاخذت اقص عليها سيرتي واذكر لها اني رايت ابواب القصر مفتوحة فارتجفت عند ذلك وتناولت الشمعدان بيدها وسارت الى المقاصير فلم تجد فيها احدًا من الفرمانات ولا اختها ورات الابواب مفتحة فعادت اليّ وقالت ايها الخائن اني لا احسبك الا مشتركًا مع دون بليان في اثمه وجرمه وان كنت لا تقر بذلك ولا يزال لدي حول سامرهم بالقاء القبض عليك فقلت لها ياسيدتي اني لست من اعدائك وهذا بليان الذي تشيرين اليه لا معرفة لي به ولكني رجل من مدريد قد انزحت عنها لغاية لم اطق مقاومتها حتى اذا صرت في بعض الطريق حصلت ذوبعة شديدة واستهلت السماء بامطار غزيرة فلجئت الى قصرك طالبًا منك ضيافة ليلة . فبالله لا تظني بي شرًا ولا تحسبني الا فارسًا خادمًا يريد ان ينتقم لك من اعدائك

فلما وعت انس هذه السيدة كلامي وحققت اني لست مشتركًا مع بليان في عمله تروّقت من غضبها وفكرت في نفسها قليلاً ثم بكت بدموع احر من الجمر حتى ابتلت تراثبها فرق قلبي وبكيت ثم قلت اخبريني يا سيدتي بما حاق بك ومريني الان حتى امضي الى بليان وامزقه وكل من غضبت عليه بالسيف دون ان ابالي بما وراء ذلك من الاخطار فلما تحققت مروّتي كفكفت دموعها وقالت لي ايها السيد الالي النفس لا تلمني على ما صدر مني حال قلقي واضطرابي فانت تكون نصيرًا لي ومني الثناء على همتك وكرمك فقلت ياسيدتي مري عبدك بما تشائين فان هو الا خادم لك مطيع فقالت ايها السيد اعلم ان سيدًا من سلالة الشرف يقال له بليان قد راى اختي جولية في طليطلة حيث تقيم اياما من السنة فهام في عشقها وطلبها من ابي الوزير معين الدولة منذ ثلاثة شهور فلم يجب مسئولة الى ذلك لضغينة بين آلنا وآله . فيظهر انه رشى قهرماناتنا بالمال الكثير حتى احتلن على اختي ومضين بها اليه في هذا الليل فاروم الان ان اعرف الى اين سار بها حتى اعلم ابي واخي الذين بغيبان في مدريد فان ابيت طلبي الى ما ارجوك فيه من البحث عن موضعها في جوار طليطلة فقد صيرتني وآلي كافة ممتنين منك ومعترفين بجميلك الى اخر الدهر . قالت هذا وهي لم تفطن لما ذكرت لها من ان غاية حملتني على الفرار من وجه الشرطة لئلا اقع في مخالبهم . غير اني لم اتردد الى اجابة مسئولها وقد سررت كل السرور لتمكني من خدمة سيدة نادرة المثال بديعة الجمال كأن حور الجنان قد صورت على مثالها . فلما انبثق الفجر وطلبت اليها المعذرة عما كان من ترويع خاطرها بدخولي عليها بغتة واشرت اليها باني اعود في اقرب وقت ظافرًا بما وجهتني الى البحث عنه . ثم مضيت في الطرق مستعلمًا عن موضع اختها وانا هائم بها شديد الكلف بحبها حتى كنت مستعدا لان ابذل نفسي اكرامًا لها . وكانت ترد على خاطري امال عذبة هنية من ان انسًا فهمت عني غرامي بها وأني اذا فزت بمعرفة الموضع الذي حملت اليه اختها مال قلبها اليّ فحققت بغيتي ثم بلغت منايَ

قال جليلاس . ولما وصل دون الفونس الى هذا الموضع من حديثه قطع كلامه وقال للناسك الا اعذر صبابي ايها الزاهد البارّ فيما أبلغك من عواطف قلبي في عشق انس هذه السيدة الشريفة فقال له بل اذكر غرامك الى اخر مبلغه حتى اطلع على احوال قلبك فاتقدم اليك بالنصائح الزاجرة ان شاء الله

فرجع دون الفونس الى سياق حديثهِ وقال

وبديهٌ اني لما كنت منعمًا من هذه الآمال الهنية لم الُ جهدًا ولا تركت وسعًا الا بذلتهُ للوقوف على موضع الفتاة المخطوفة في مدة يومين بطولها وانا لا اسمع لها بين الورق خبرًا فعدت الى انس وانا اظنها اشقى الناس حالاً واشغلهم بالاً واتعبهم خاطرًا فاذا هي على غير ما اظن وقد حدثني بانها وقفت على حال اختها من كتاب حرره اليها بليان نفسهُ وفيهِ يقول انهُ تزوج بحولية سرًّا وحملها الى دير طليطلة وقالت انها وجهت بالكتاب الى ابيها معين الدولة وانها ترى الضغينة بين آلها وآل العريس ستزول برفافهِ على اختها جهرًا في كنيسة الدير . وبعد ان حدثني بذلك اخذت تعتذر اليَّ بالطف عبارة عما كان من عزمها الي في طلب بليان على حين لم تفطن لما ذكرت لها من اني هارب من وجه الشرطة . ثم انها سارت بي الى قاعة الجلوس واخذت تثني على همتي وتدير الحديث على وهي تظن اني من اولاد الشرف حتى سالتني من انا . فارتبكت من سوالها واثرت الكذب على الفضيحة وقلت اني ابن تياذوق فقالت ولكن ما جرى لك حتى التجات الى الفرار فقصصت عليها الحكاية وقلت لها الامر كيتَ وكيتَ فتعجبت من ذلك وقالت ان الفارس الذي تعرض لي في الطريق انما هو الذي بحث عن حتفهِ بظلفهِ وجدع مارن انفهِ بكفهِ واني لست مذنبًا ولا مسئولاً في شيء مما اتيت ووعدت بانها تكتب الى ابيها ليكون لي شفيعًا لدى الملك

وبعد ان حدثتها بحكايتي تشوقت انا ايضًا الى سوالها عن نفسها وهل كانت بكرًا او زوجة فاجابت انها ليست بالبكر ولا بالزوجة وانها ترملت منذ سنة ونيف عن زوج لم يعش معها الا سنة واحدة . فقلت ولكن ياسيدتي ما هذا البلاء الذي تجعلك عاجلاً بزوجك فقالت سبحان الله لقد كان زوجي جميل الصورة حسن الصفات وكان شديد الكلف بي وهو يبدي اليَّ احسن العواطف وارق الشعائر وانا لا اميل اليهِ (لان العشق لا يوصف بالتعيين ولا يكون عليهِ رباط فقد لا تميل المرأة الى رجل جميل الصورة هي الاشراق ثم تميل بعد ذلك الى من هو دونهُ في كل شيء على حين تسبق لها بهِ معرفة) فكان يسوءهُ ذلك ولا سيما اني ما كنت احب احدًا غيرهُ حتى يقول اني كنت امقتهُ لتفضيل اخر عليهِ . فلما كان بعد سنةٍ وهو لا يراني انثني عن جفاه ضاق صدرهُ وعيل صبرهُ فمضى مع جنود الدولة املاً بان يظفر العدو بهِ فينتهي بموتهِ شقاؤهُ فلم يلبث ان طعنهُ جندي عدية فمات قتيلاً شقيًا في ساحة الحرب

قال دون الفونس وما كادت انس تقطع حديثها ان دخل علينا رسول يحمل اليها كتابًا من ابيها معين الدولة فاخذتهُ وقرانهُ وانا انظر اليها يصفر لونها وترتجف اعضاؤها ثم انها رفعت الى السماء طرفها وتنهدت الصعداء وراحت الدموع تنسكب من عينيها جودًا مدرارًا فتلفت لذلك وخامر قلبي روع شديد فقلت لها ياسيدتي الملاح مابال عينك منها الدمع ينسكب فقالت وهي تدفع الكتاب اليَّ قف على هذا ايها الفارس فان فحواهُ يشير اليك فتناولتهُ بارتجاف واذا فيهِ ان اخاك قد تصارع بالامس مع دون الفونس بن تياذوق فقتلهُ فطلبتهُ طلبًا شديدًا فلم ادركهُ فكتبت الى الشرطة والعمال في سائر الولايات بارسالهِ الي موثقًا تقييدًا حتى ناخذ بثارنا منهُ

فلما قرات الكتاب كدت ان اقع الى الارض من شدة الجهد وحلاوة الروح وكاد الا ياتيني الكلام من الياس الذي استحوذ علي بتعطل الامال العذبة التي علقت نفسي بها بوصال انس . ثم اني وقعت بين قدميها ودفعت اليها حربتي وقلت لها ايها المراة مزقي صدري بهذه الحربة التي طعنت بها اخاك واشفيني

جراحًا حتى تاخذي بثارك لنفسك وتكفي اباك مؤنة الطلب . فلما سمعت كلامي بدت على وجهها سمات الشفقة وقالت انت قتلت اخي على غير عمد ولا جرم منك ولكن ذلك لا يمنع عن ان اكون غاضبة عليك ومبغضة لك ومعتزمة على الاخذ بثاري منك بعد انصرافك عني فامض الان واجهد في ان تخلص من البوار الذي يحل بك . فقلت لها بل خذي الحربة واطعني صدري بها لاني لو تمكنت من الفرار لما ادركني الشرطة . وانا احب الموت حتى اخلص من العار لاني ولد مردول لا اعرف لي بين الناس ابًا وانما تياذوق قد وكل بي فاحتضنني رحمة منهُ عليَّ فقالت كن ابن من شئت فاني لا اتطاول عليك بالشتيمة ولا بالضرب لان للضيافة شروطًا لا اتعداها فقلت من حيث انك تراعين حقوق الضيافة فانا اقر بجرمي بكتك من قتلي وانا ضيفك فاعلمي باني كلفت بك كلفًا شديدا واملت ان اكون لك زوجًا على مكاني من ذل الولادة وعار النسب وهذا شان كاف لان تنتقمي مني بعد ان اردتك على نفسك فقالت ان كلامك لا افهمهُ بما انا بهِ من حلاوة الروح واكاد الا اعبأ بهِ لاني احسبك غير محتضر الصواب فامض الان عني وارحني من رويتك التي تكاد تقتلني اسي وحزنًا فقلت من حيث تعزمين عليَّ في المضي فاني انصرف عنك ولا اعمل على الاختفاء من وجه الشرطة حتى ينالني عقابهم ويطيب خاطرك من هدر دمي . ثم ركبت فرسي ومضيت الى طليطلة وبقيت فيها ثمانية ايام دون ان يدري بي احدٌ من الشرطة مع اني لم اختبئ في مكان ثم نالني ملل وتولتني سامة من المقام بها فانزعجت عنها واني لهي بعض الطريق اذ التقيت بجلبلاس هذا السيد الكريم وجئت واياهُ الى كهفك المانوس فهذه قصتي اليك وارجوك ان تمدني بمشورتك المباركة ورايك اللطيف

فصل
في كشف اللثام عن حال الناسك

قال جلبلاس فلما استتم دون الفونس حديثهُ قال لهُ الناسك اما اقامتك في طليطلة بعد مقتل صاحبك فكانت خطا لا تؤمن غائلتهُ واما ما حدثتني بهِ عن ولوعك باناس فان هو الا جنون مبين لا يزول عنك الا اذا اقلعت عن عشقها واني لاراك تلتفي بعدها بغيرها من الخرائد وتكون ولهًا بها على حين لا تكون قاتلاً اخاها

ثم ما كاد يتم عظتهُ ان دخل علينا ناسك اخر فتي السن كث اللحية وعلى كتفهِ جراب ملأهُ اشياء حملها من بعض القرى المجاورة فقال لهُ مرحبًا بك يا انطونيوس الاخ البار فما وراءك من الحوادث والاخبار فقال ما لا تحب ايها الناسك ودفع اليهِ تحريرًا فقراهُ ثم قال تبارك الله السموات لقد حصحص الحق الذي عميتين حتى لا سبيل لنا الى اخفاء امرنا فهذه الشرطة قد جدت في طلبنا ولكني اقسم انها لن تدركنا في موضعنا كما انها لم تدركني قبل اليوم كل مرة تخلصت منها بحيلتي وخداعي قال هذا واخذ في تغيير زيهِ فخلع ثيابهُ ونزع لحيتهُ فظهر انهُ ابن ثلاثين سنة ثم اقتدى بهِ رفيقهُ الاخ انطونيوس فصار شابًا مثلهُ فتعجبت من امرهما غاية العجب ولاسيما اني عرفتهما من هما فاذا بالاول دون رفائيل الذي سلبني وكاميلية مالي وخاتمي واذا بالاخر الخادم رافقني الى مدينة ولبد وباع بغلتي هناك حين اعتذر عن غيابهِ بانهُ كان يقيم لله صلاة في بيعتهِ . فلما رايا اني متعجبا منهما ضحكا ضحكا شديدًا وقال لي دون رفائيل ابنت قد وقعت في شرك حيلتنا قبل اليوم فلا تعتقد النية على الانتقام

نفسك بل تعال معنا وشاركنا في حيلتنا فنحن لا نقتل احداً من عباد الله ولا نتعمد ضرره وانما مارسنا الحيلة للاعتياش لا غير وكلما طلبتنا الشرطة في موضع ذهبنا في الارض على وجوهنا وأخذنا في مباشرة حيلتنا بمهارة وفطانة ثم قال لدون الفونس نحن نعزم عليك مثل ما عزمنا على حميمك جلبلاس ولا سيما انك طلبة الشرطة وبغيتهم بما يكرهك الى الاختباء من وجوههم وحتى لو امتنعت على نفسك منهم لما وسعت لديك المعيشة وانت خلوٌّ من الدراهم والدنانير فقال له لقد صدقت فيما قلت من صفر يدي من المال وهو الامر الذي يحدث بي غماً فقال اذن لا تفارقنا بعد اليوم وسر معنا الى الغابات والاحراش والمغائر التي نحن اعلم الناس بها حتى تامن على نفسك من الشرطة فشكرهُ دون الفونس على لطفه واقتبل عزيمته اليهِ والجأني بذلك الى ان اقتبل عزيمتها اليَّ ايضاً لاني ما رايت نفسي سامحة بالافتراق عنهُ لود وقع بيني وبينهُ . فصرنا اربعة متعاقدين على الاشتراك بالحيلة والخداع والعياذ بالله من سوء العقبى وشر المآل

ولما طال بنا الجلوس وقعت بيننا المذاكرة عن امرنا فكنا بين رايين فاما ان نرتحل عن موضعنا ساعتنا تلك واما ان نصرف اليوم في معاقرة الخمر الذي كان بحملة انطونيوس من القرى والضياع على حين كان يحسبهُ الناس ناسكاً فوقع راي رفائيل على التغير المحمل تحفظاً على نفوسنا من كبسة العدو فاسرينا طول الليل وقد حملنا ما في الكهف على ظهور الخيل فوصلنا قبل طلوع الشمس الى بلدة يقال لها المدور وتغلغلنا في غابة كثيفة الاشجار وملنا الى موضع فيهِ ماء جار وبسطنا طعامنا هناك فاكلنا جدياً مشوياً وشربنا من الرحيق العذب ونحن نتغامز عليهِ ونديره بالكؤوس كأن لسان حال كل منا ينشد ذلك البيت المشهور

الا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ
ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وبعد ان استرحنا من مشقة السفر وانبسطنا على خضرة الغياض قال رفائيل لدون الفونس ايها السيد لا يسعني بعد ان خبرتني خبرك الا ان احدثك بحكايتي وانها لحقيقة بان تكتب بالابر على اماق البصر فقلت له اي رفائيل اني ارى حديثك يسترق القلوب حسناً وظرافة لاني رايت لك من الوقائع ما لم اسمع بمثلهِ قط فحدثنا بقصتك ونحن معيروك سمعنا ومقبلون عليك بحواسنا فقال نحن نقيل الان ساعة يكون الحارس فيها علينا صاحبنا انطونيوس فاذا تنبهنا من الرقاد فاباشر بقص سيرتي عليكم مما يؤخذ بمجامع قلوبكم غرابة فوافقنا على رايهِ واغمض النصب جفونهُ الا جفون دون الفونس لما كان بهِ من الجهد حتى اذا كان الاجل المضروب وهب كلنا من الرقاد اخذ رفائيل بسياق حديثهِ فقال ونحن مقبلون عليهِ بسماعنا

الجزء الخامس

فصل
في قصة دون رفائيل

اعلموا ايها الاخوان ان نجيكم دون رفائيل انما هو ابن زناء وخطية فاما اني فانبها مغنية لاعبة في مدريد يقال لها خشت ذات الدلال واما ابي فلست اعرفهُ بين عشرين عاشقاً كانوا يجلسون اليها و يتناوبونها وغاية ما اعلم من امرهم انهم كانوا اذا حضروا مجلسها تعطفوا عليَّ ومالوا اليَّ كاني بكل احد منهم يحسبني مولوداً منهُ دون غيره من تلك الجماعة . كذلك

مضت الحال الى اثني عشرة سنة وقد تعلمت الرقص والغناء وضرب العود دون ان اتعلم من القراءة الا القليل

وكان لبعض الامراء في مدريد ولد يميل اليه ويحتفظ به فولاني خدمته الى ان ينشيء فاذا هو اجهل بين العلم مني وذلك لان اباه كان يقيم له مودبين يوصيهم باخذه بالرفق وحسن المعاملة وهو لايستفيد من ادبهم شيئاً لانه كان يستخلي الفراغ ويامن من قساوتهم عليه . وكان اخر هولاء المودبين رجل ذو حيلة ودهاء قد راى ان يستعمل الحيلة لتاديبه على حين لايستطيع مخالفة وصية ابيه بان لاياخذه بالعنف والشدة فنتق له عقلة انه كلما تغاضى عن القراءة ورغب عن الدرس علاني بالضرب على مرأى منه حتى يرعوي في نفسه ويخاف ان يناله مثل ما يناني من الشدة والغلظة فيعكف على المطالعة بجد واجتهاد . فصبرت على ذلك اياماً طوالاً حتى ما الصبر مجال ولا بالنفس احتمال فمضيت الى امي ورجوتها بان تفصلني عن خدمة الامير فلم تجب سؤلي اليها لما تكسبها خدمتي اياه من الشرف بين الغانيات . فبقيت آلة لتعليم ابنه مدة من الزمان وانا احتمل اهانة الخدم وغلظتهم وتعييرهم امي ووصفهم اياي بالاوصاف الشنيعة وغير ذلك حتى لم يبق في نفسي اصطبار . فهربت في بعض الايام الى طليطلة بعد ان سرقت من المؤدب خمسين ديناراً كان شديد الحرص عليها ويحبسها في الدرج حيناً بعد حين ضنة بها فكان ذلك اشد انتقام لنفسي منه وامره عليه

ثم سلط علي ابليس في طليطلة جماعة من المخنثين المكارين من اهل اللهو فانفقوني هذا المال المسروق على شهواتهم وملذاتهم حتى امسيت صفر اليدين منه فاضطررت الى العمل بكرهم لكي اصيب مالاً انفقه على كسوتي ومعاشي فتسيرت بسيرتهم وبلغت الغاية من المهارة بهذا الاحتيال . ولما بلغت من العمر عشرين سنة حدثتني نفسي بالخروج الى مدينة القنطرة فتنابطت جرابي ومضيت في الفضاء اميل الى ظل الاشجار في كل بقعة لانتباء بها . فاني لكذلك في بعض الايام اذ لمحت شابين من اولاد التجار حدثي السن قد جلسا على العشب يتحدثان بملء السرور فقصدت نحوهما وسلمت عليهما بحشمة وادب فردا عليّ السلام وما لبث صغيرهما ان قال لي ايها المسافر نحن ولدا تاجرين متمولين من بعض الضياع قد هزنا الشوق الى التفرج على بلاد البورتغال وطلبنا من ابوينا مئتي دينار فما ظنك بهذا القدر من الدنانير اهل تراها كافية لهذه الخطرة البعيدة . فتنبهت قريحة مكري عند ذلك وقلت يا حبذا لو كان عندي نصف هذا المال لكنت درت الدنيا وتجولت في الافاق وما انفقت بعض بعضه . ولن شئتما فاني ارافقكما الى مدينة المرين حيث لي عم قد توفاه الله فاذا ورثت ماله فقد صحبتكما الى هذه السفرة النزهة . فسر الغلامان من كلامي وسارا وانا معهما حتى اقبلنا على مدينة القنطرة قبيل الغروب فنزلنا في منصورة مليحة من فندق نظيف واشرت اليهما بعد مناولة الطعام بان ننزل الى الاسواق للفرجة والنزهة فجعلا دنانيرهما في خزانة من المنصورة واخذا مفتاحها ورحنا نتفرج على الكنائس الظريفة ونستقري الاماكن المشهورة حتى رايت ان اباشر حيلتي عليهما فذكرت لهما اني امضي اونة يسيرة الى رجل حملت اليه كتاباً من تاجر في طليطلة واني لا البث ان اعود اليهما ثم تركتهما ومضيت عاجلاً الى الفندق وكسرت الخزانة واختزت الدنانير كلها دون ان ابقي لهما دينارا واحدا يدفعانه الى الخاناتي اجرة مبيتهما عنده ثم عمدت الى الهزيمة فراراً من طلب الشرطة الى يومين مضيا لي وانا لا اعي على نفسي لما اصابني من الجهد وانحصار الفكر فلقيت في بعض الطريق

رجلاً من المكارين الذين صحبتهم في طليطلة وتخرجت عليهم في الحيل والمكايد واسمهُ فرات فارتحت اليهِ وانست بهِ وحدثتهُ بما جرى لي مع هذين الابليهين فضحك منهما واثنى على مهارتي بالمخاتلة وراح يحدثني باخبار لهُ كدت تساعها ان استلقي على ظهري من شدة الضحك

ثم انا تعاقدنا على ان لانفترق بعد ذلك وسرنا بقية يومنا حتى وفدنا على مدينة مريدة فنزلنا في خان التجار ولبسنا حللاً نظيفة ونحن نعتزم على مخاتلة الناس بالمكر والخديعة لعلنا نصيب شيئاً من مالهم فسرحنا في الاسواق باحثين عن كل شيء تكون لنا فيهِ حيلة كما تسرح الطيور الجارحة في الفضاء في طلب فريسة تنهشها فادانا المطاف الى سوق منفردة فرأينا فيها شيخاً يناضل بحربتهِ عن نفسهِ ويقارع ثلثة من الرجال قد تالبوا عليهِ وراموا سفك دمهِ . فلما رأيتهُ في حال من الضنك تستدعي الرحمة بادرت وفرات الى نجدتهِ واثخنت اعدائهُ بالجراح حتى انهم لولم يبادروا الى الهزيمة لكان القتل اخر ما صار اليهِ امرهم

و بعد ان استكن الشيخ وهدأ روعهُ اقبل علينا بالشكر والثناء على ما كان من اغاثتنا اياه فقلنا لهُ قد تشرفنا بتمكننا من انقاذك من ايدي العدو ونحب ان نعرف اسمك وما سبب العداوة التي بينهم وبينك فقال لقد اضحى الجواب على اسئلتكما بعد اذ اوليتماني المعروف فرضاً واجباً عليَّ فاما انا فاسمي عبد الملك من تجار هذه المدينة ولي خيرات اتناول منها ما انفقهُ على اهل بيتي واما الرجال الثلثة الذين اشهروا علي حرابهم فان احدهم كان قد خطب اليَّ ابنتي ولم اجب سؤلهُ فتربص لي في الطريق مع اثنين من رفاقهِ وكان من امرهم ما رأيتماهُ فقلت لهُ أانت مطلعي على السبب الذي حملك على رفضك خطبتهُ فقال اعلم انهُ كان لي اخ تاجر في هذه البلدة ولهُ صاحب تاجر في بعض المدن يقال لهُ يوحنا فذهب اليهِ ووعدهُ بان يزوج ابنتي من ابنهِ اغسطس ارباط المحبة بين العيال حتى اذا عاد اليَّ وعدتهُ بان انجزهُ ذلك التاجر وعدهُ فاخذ صورة ابنتي فلفها وارسلها اليهِ . ثم سلط الله عليهِ داء توفاهُ بهِ فلم يبق في استطاعتي ان انكث العهد الذي ابرم . واما لا ازال الى اليوم انتظر اغسطس ابن التاجر لازوجهُ من ابنتي وان لم نسبق لي بهِ ولا برأيهِ معرفة قبل اليوم

فلما وعيت كلامهُ واما مصغ اليهِ كل الاصغاء وقع في نفسي ان احتال عليهِ واوهمهُ اني انا اغسطس ابن التاجر فدهمت شهقة السرور ورفعت طرفي الى السما ثم قلت لهُ اليوم اتم الله عليَّ نعمتهُ اذ اتاح لي ان اخلص عني من القتل فتعجب الشيخ غاية العجب وقال ماذا اسمع منك ايها السيد أانت اغسطس بن التاجر يوحنا فقلت نعم اني لخطيب قلة مالكة فوادي . ثم ترامیت على عنقهِ للمصافحة وقلت دعني الان ابكي بين يديك على اخيك لابي لو لم افعل ذلك لكنت ناكر معروف وغير اهل لجميل ثم رفعت يدي الى عيني لاوهمهُ اني انشف عبراتي فادرك فرات حيلتي من ذلك وتعجب من مخاتلتي غاية العجب ورام ان يجعل نفسهُ خادماً لي لايهام الشيخ بصحتهما فقول فذكر لهُ انهُ عرف اخاهُ ايام كان ينزل في دار ابي ضيفاً وانهُ راى منهُ رجلاً كريماً ونفساً زكية وتاجراً ليس بهِ طمع على الاطلاق فقال لي الشيخ لمَ لم تنزل عليَّ ضيفاً وقد قدمت اليوم بلدتنا فاجابهُ عني فرات ايها الشيخ ان مولاي لا يلقى ثقلهُ على احد من اقاربهِ وتلك خصلة غير محمودة بين الاقارب واما غير هذا الاعتذار ان اللصوص سلبونا في الطريق ما انا وحمولنا فرفع قدرك عن ان ينزل عليك ضيفاً وهو في حالة لايريد ان يظهر بها الملك . ثم اني قلت لهُ ياعمي اني لاستحيي ان اجلس لابتك لاول مرة وانا في حال غير منتظمة ولكني انتظر رجوع الرسول الذي

وجهته الى ابي ليحضر لي ثيابًا نظيفة فاتيك في كل يوم بعد ذلك زائرًا فقال وهو يصدق كلامهُ كلهُ والذي جعل الفرقدين يسيران ويصطحبان على الاندلس ما سمحت لك بوجه من الوجوه الا ان جئت معي لاقوم بحق واجبي من ضيافتك

ثم انهُ سار بي الى منزلهِ وانا احدثهُ اثناء الطريق عن وثوب اللصوص علينا واقول اني اسفت على فقدان الصورة اكثر مما اسفت على فقدان المال والمتاع فابتسم وقال لا تجزع يا سيدي على ذلك فان الخفيفة التي تكون لك لافضل من الرسم الذي كان بين يديك . وما زلنا في هذه المحاورة حتى وصلنا الى دارهِ فاخرج اليَّ ابنتهُ وهي من الحسن بمكان وقال هذه هي فلة التي اعددتها لك عرسًا فقلت لهُ يا سيدي ليس من حاجة الى اعلامك بانها حبيبتي فانا صورتها قد طبعت في قلبي وان كانت دون ما اراها عليهِ من الحسن والجمال والقد والاعتدال فقالت الفتاة يا سيدي انت تغالي في مديحك على حين ليست في الصفات التي تذكرها فقال الشيخ وهو ينصرف عنا اني ادعك معها آونة يسيرة ثم اعود اليكما وسار لوقتهِ الى المقصورة التي اعدها لفرات وقال لهُ يا غلام ان اللصوص قد سلبوا سيدك ما لهُ فهذه مائة دينار تنفقها عليهِ بامره فقال وهو يتدلل عليهِ ان مولاي قد وجه رسولهُ في طلب المال ولست احسبهُ قابلاً منك هذه الدنانير دينًا اذ انهُ اقرب الى التصدق منهُ الى التدين فقال اذا كان الامر كما تقول فلا يحسن بي ان اكدر صاحبك بهذه القرضة اليسيرة ولكني ارجعها الى الصندوق فلما رأى فرات ذلك وانهُ اذا اصر على اطالة الرفض ذهب المال من يده اخذ الشيخ من ساعده وقال لهُ هات هذه الدنانير وانا اكلم مولاي في قرضها واذا ذكرتهُ انك لهُ بمنزلة اب اخر فهو لا يرجع عن قبولها . فاعطاهُ اياها وعاد اليَّ يشكر همتي ويثني على مروءتي بينما كنت منشغلاً بالحديث مع فلة ويقول ان ليس لهُ الى مكافاتي على معروفي من سبيل فقلت لهُ انت تكافئني اعظم المكافأة بتزويجي بابنتك في اسرع مدة فقال اني ازوجك منها بعد ثلاثة ايام واعطيك خمسة الاف دينار مهرًا لها بدلاً من الثلاثة الاف التي قسمتها لها وذلك لاني شيئًا ما اوليتني من الجميل

هذا ما كان من حيلتنا في بادىء الامر . ولما انصرف الشيخ عني وتركني وفرات في خلوة تداولت واياهُ في حيلتنا فاستبشرنا بنجاحها الا ان اتى اغسطس ابن التاجر قبل مضي ثلاثة ايام وذلك مما اوجب لنا شديد القلق . فلما كان غد اليوم دخل على عبد الملك (على حين لم اكن معهُ) خادم يحمل بقج ثياب واعلمهُ ان سيدهُ اغسطس بن يوحنا التاجر قد صار في باب الدار فرجف فرات من ذلك وما كاد يتم كلامهُ ان دخل مولاهُ وراءه وهو شاب مليح الصورة حسن البزة واقبل على عبد الملك يسلم عليهِ فلم يرد عليهِ السلام ولبث متعجبًا من امرهِ . فلما انس فرات ذلك وهو لا يخجل من الزور والبهتان قال لعبد الملك ان هذين الرجلين لمن منسر اللصوص الذين اوقعوا بنا في الطريق وهذا اللص الذي يزعم انهُ ابن التاجر هو مقدم فيهم فصدق الشيخ كلامهُ وراح يعنف الزائرين وقد طردهما من منزلهِ فصاح بهِ اوغسطس تنبه لما يكون منك ايها الشيخ فان هذا الرجل الامكار وليس ليوحنا صاحب اخيك ولد غيري وعندي شهود كثيرون يشهدون لي باني اوغسطس بن يوحنا ومعي تحاريز اخيك وصورة ابنتك فلة ولئن لم يكن هذا الرجل في حضرتك لكنت اذقتهُ شر الوبال ولكني اردع غضبي اكرامًا لك فاجابهُ عبد الملك وهو يهزأ بهِ امض يا هذا على وجهك حذر الوقوع في قبضة الشرطة فكيف تسلب سيد هذا الرجل مالهُ ومتاعهُ ثم تحاول ان

تتولى مقامهُ فلا والله اني لا اطيق مثل هذه الخزعبلات فاجابهُ الفتى وقد احتدم غضبهُ سامضي الان الى اصحاب لي في هذا البلد يشهدون بصحة ما قلتهُ لك فانتقم لنفسي من هذا المكار الذي جعلني كاذبًا وسارقًا ثم سار لوقتهِ والشيخ شديد الغضب عليهِ حتى اعتزم على تزويجي من ابنتهِ في ذلك اليوم بعينهِ مخافة عائق اخر مثل هذا وسار بنفسهِ يجهز امر الزفاف

ولما دخل عليَّ فرات اعلمني بمجيء اغسطس وما جرى معهُ من الكلام وراح يخوفني سوء العقبى ويحذرني افتضاح امرنا ويشور عليَّ بان نرتحل ساعتنا تلك مكتفين بما اصبنا من الدنانير فانكرت رايهُ عليهِ واخذت ان اقوي عزمهُ بقولي ان عندي حيلة سابا شرها على الشيخ بعد رجوعهِ فلم يثق بكلامي وقال والله لئن فتق لك عقلك مكيدةً تتخلص بها مما الم بنا لاقدمنك على سائر الابطال والحكماء الذين اتى بلوطرخس على ذكرهم في كتابهِ . ثم ما كان الا القليل حتى عاد الينا الشيخ واعلمني بانهُ دبر كل شيء للزفاف واني اكون في اخر النهار صهرهُ ففكرت في نفسي حتى دبرت الحيلة التي تخلصني وفرات من امر اغسطس وقلت لهُ ياسيدي اني لا اطيل خداعك اكثر من هذا فانا انا باغسطس بن التاجر . فقطع حديثي وصاح بي ماذا تقول وربك الست بذاك الفتى الذي اعددت لهُ ابنتي زوجةً فقلت ان لم اكنهُ فلست دونهُ وارجوك ان تسمع مقالي الى آخر كلمة فاعلم اني قدمت هذا البلد منذ ثمانية ايام ورايت فلة ابنتك فكلفت بحبها وعزمت على خطبتها منك فلما لقيتك البارحة وحدثتني بانك وعدتها لابن التاجر خاب الامل الذي عللت نفسي بهِ ولم يبق لدي الا ان اتعمد الحيلة لتحقيق بغيتي وكان اقدامي عليها على غير عادتي من طباعي ولكني قلت في نفسي اني اذا تزوجت بها بهذه الحيلة ثم عرفتك بنفسي اني ابن امير من امراء البندقية اجول متنكرًا في الاندلس عذرتني على ذلك وسررت من مصاهرتك اياي واما اليوم وقد اتاك ابن التاجر فاني ابيح بسري اليك وارجوك ان تتمهل بالامر ولا تبخس ابنتك نعمةً لا تحصل لها من غيري حتى لو امد الله في اجل اخيك وبلغهُ ان اميرًا يريدها زوجة لهُ لنكث التاجر وعدهُ وزوجها اليهِ لا محالة فانعم نظرك في هذا الامر وافعل ما يلهمك الله اليهِ . فلما وقع كلامي في اذنهِ وصدق اني امير متنكر احتفل بي اكثر من قبل وقال اني غدوت شاكرًا لك ايها الامير لما كان من تنازلك وتعطفك اليَّ من علو مقامك واما ابنتي في جاريتك ولا ابيح بان ازوجها باغسطس بعد الان الا ان اكون ضعيف العقل وسادخل عليها وابشرها بهذا الفوز العظيم . قال هذا وتركني مع رفيقي فرات . فلما خلا لنا المكان هنانا بعضنا بسلامتنا من الفضيحة وشهد لي فرات بان ليس في المكارين من هو ادق حيلةً مني وعزم اليَّ باني اذا حصلت على المهر ركبت واياه واسرعنا المفرّ

ثم ما كان بعد قليل الاَّ ان جاء اغسطس ومعهُ شرطي وتاجران يصحبانهِ فقال الشرطي اني احلف باليمين العظمى واتولى حولي وقوتي دون حول الله وقوتهِ واشهد امام الملائكة والناس ان هذا الفتى هو اغسطس ابن التاجر فاجابهُ الشيخ انا اعتبر كلامك واثق بشهادة هذين التاجرين الامجدين ولكنها لا تجدي هذا الفتى نفعًا اذ قد عدلت عن تزويجهِ بابني فقال الشرطي انت تتصرف في آل بيتك كما تشاء ولا كلام لي بذلك ولكني اقول ان من يزعم ان هذا السيد ليس باغسطس فهو كاذب افاك ثم قال لهُ اغسطس ياسيدي ان كنت عدلت عن تزويجي بابنتك فخلف بلائي باعلامك اياي عن السبب الذي حملك عليهِ فقال انا لم ارَ منك شرًا ولا مكروهًا ولكني التمس العذر منك بان فضلت عليك اميرًا انقذني من القتل وابوه

من ملوك البندقية فوجم الفتى ولبث التاجران متعجبين مني عند ذكره اني من ابناء الملوك واما الشرطي فلما كانت مرتبته في الدولة تحملهُ على سوء الظن بالناس كافةً قدر ان تكون في امري حيلة فتفرسني برهة ولم يعرفني من انا ثم تامل رفيقي فعرفهُ وصاح بالشيخ ان هذا الرجل الا اشد الاشقياء في الاندلس عتوًّا وقد رايتهُ في السجن اكثر من مرة فقال لهُ ولكن كيف تجسر على هذا القول وقد اعلمتك انهُ خادم الامير البندقي فقال لهُ ان هذا الامير لست اراه باقل من خادمهِ خداعًا ومحاتلة ولذلك قد رايت ان اقودهما الى السجن فقال عبد الملك لو فرضنا هذا الخادم مكارًا لما صح نسبة الامير الى الشرفكم من امير متعال خدمتهُ الاشقياء المكرة فقال لهُ الشرطي وحق السماء ان هذا الامير الا خدعنا بالعقاب وبتولاه العذاب وعلى بابك عشرون شرطيا جاوا يحملونهُ ورفيقهُ الى السجن فلما سمعت ورفيقي ذلك خامرنا الجزع وتغيرت منا الالوان حتى ظن الشيخ بنا سوءا غير انهُ لما انس جزعنا ورأى ان ليس لنا معين سواهُ وقد ذكر معروفنا اليهِ بالامس اقبل على الشرطي يسترضيهِ عنا ويلتمس الشفاعة منهُ فنالها بعد الرجاء الطويل وانسلخنا لساعتنا عن بيت التاجر اذ لم يبق لنا ان نسوء خلتنا عليهِ بعد ذلك كلهِ وقد تركنا فتاة لخطابها ولم نظفر من مهرها الا بمئة دينار اخذتها من فرات واضفتها الى المال الذي كان معي

فلما كان بعد ذلك واينا اسير مع فرات من بلد ومن سهل الى وعر دخل علينا ونحن في بعض الفنادق نحو من خمسة عشر فارسًا وعقلوا مطاياهم وجلسوا يتحدثون ويديرون كؤوس الراح وكان بينهم رجل مقدم فيهم ولهُ عليهم نفاذ كلمة فوجه حديثهُ الينا ودار الكلام بيننا عن الاندلس فاخذ يمتدح فرات مدينة اشبيلية وانها نزهة البلاد ومعدن الظرائف فقال لهُ الرجل المتدم لله ما احسن امتداحك المدينة التي هي مسقط راسي ومنبت شعبتي فاجابهُ فرات وانا كذلك مولود بهذه المدينة وان عرفتني باسمك ذكرت لك اسماء الابطال الذين اعرفهم من آلك فقال ان اسمي عمونيل وابي رجل منشرع في اشبيلية ولي اخ اسمهُ فرات لم ارهُ منذ عشرين سنة لاني هجرت ابوي من قبل ان تميط عنهُ التمائم فلما سمع فرات ذلك كاد ان يطير من شدة الفرح وقال لهُ ياعمونيل انت اخي وابن ابي وامي ثم قام اليهِ وعانقهُ وراح يتبادل واياهُ عبارات الشوق والتلاقي الى ان قضينا من الحديث وطرًا . فلما قطعا حديثهما قال لي فرات ان اخي عمونيل قد ولاه ملكٌ من ملوك البحر رياسة علمانهِ وخولهِ وسيمضي بي اليهِ في ضحى ويتركني بعيدا عنك فان شئت ان تجيء معنا فهو يوليك مرتبةً حسنة عندهُ فقلت لهُ لا مانع من المضي معكم الى حيث تسيرون فان لم تطب لي الجزيرة فاني اعود فورا الى الاندلس فلما اقبل الغد ركبنا الى ساحل البحر فاشتريت كسوة نظيفة وابتعت عودًا اضرب عليهِ الاغاني وركبت السفينة مع الرفاق وقد طابت لنا الريح وزجت مركبنا اهنأ تزجية وبشرنا انفسنا بتيسير من الله حتى مضى جزء من اليوم واذا بزوبعة قد اقبلت علينا من صدر البحر وانقضت الصواعق على جبال الماء بعضها وراء بعض واشتدت الرياح العصف علينا حتى طرحت مركبنا الى جزيرة من جزائر الاندلس ليس فيها من الانس الا خمسة جنود قد اقاموا بقلعة مبنية على قمة الجبل منذ قديم الزمان فضينا اليهم واقمنا عندهم بضعة ايام لاجل ان نصلح ما تعطل من المركب ونرفع سواريها ونخيط شرعها ونقل حبالها . وكنا في خلال ذلك نتمشى كل يوم على شاطيء الجزيرة ونأكل من ثمارها ونجلس الى فيء اشجارها ونلهو بما ليس الى القلب اعذب منهُ فبينما نحن كذلك في بعض الايام اذ هبت علينا رائحة زكية

يحملها نسيم الصبا وقد انعشت قلوبنا فاستقبلنا ناحية هبوبها فاذا بصخور عظيمة قد نبتت في مخارقها اعشاب عطرة الريح واذا بهذه الصخور قد عقدت بابًا لمغارة فسيحة تنحدر الى جوف الارض وفيها ضياء كثير فنزلنا اليها منحدرين على درجات مدورة قد احدقت بها الزهور من جانبيها حتى كانها للناظر جدار لهذه السلم اللولبية . فلما صرنا في تلك المغارة رأينا ماء صافيًا ينساب كالفضة المذابة على رمل كانهُ الذهب الابريز وهذا الماء اصل منبعهُ من سقوف المغارة حيث لا يزال الماء يقطر منهُ دون انقطاع فيجتمع منهُ هذا الماء الجاري فشربنا منهُ فطابت لنا عذوبتهُ و رودتهُ وعزمنا على العودة اليهِ من الغد ومعنا شيء من النبيذ نبردهُ في ذلك الماء . فلما صرنا الى الرفاق اخبرناهم بعجيب ما رأينا في تلك المغارة فقال لنا امير القلعة ان تلك المغارة غير مأمونة وان النخاسين من اهل الاسلام ينزلون اليها ليملأوا الماء منها فيتخطفوا من يرونهُ فيها وقال انهم تخطفوا رجلين من جنوده قبل مجيئنا بايام فلما سمعت كلامهُ ظننت انهُ يريد المزاح بذلك حتى اذا كان الغد سرت وثلاثة من الرفاق (دون فرات ذلك الرفيق الاول) الى تلك المغارة وليس معنا شيء من السلاح الناري لنظهر لامير القلعة باننا ابطال لا نخشى الوعيد عواقبهُ

فلما اقبلنا على المغارة نزلنا الى موضع الماء وبردنا فيهِ زجاجات النبيذ وربحت اسلي الرفاق بالغناء وضربت العود فانا لكذلك اذ لمحنا على باب المغارة رجالاً عليهم الاعمة والازر والطيلسانات وغير ذلك من لباس العرب . فظننا انهم من جنود القلعة قد غيروا زيهم وارادوا الهجوم علينا ليوهمونا انهم نخاسون من اهل الاسلام فضحكنا في وجوههم لنعرفهم باننا درينا بحيلتهم ثم تركناهم ينزلون الينا دون ان ندافع عن انفسنا شيئًا منهم . فلما دنوا منا وتفرسناهم انكرنا هيئاتهم وراعنا امرهم انهم من اهل الجزائر فكانت خالتنا من الياس ما لا يعبر عنهُ بلسان ثم ان المتقدم فيهم هتف بنا سلموا انفسكم يا اكلاب والا فانتم هالكون فاريقينا على وجوهنا دون ان نبدي مقاومة فنزعوا سيوفنا وقيدونا بسلاسل الحديد وحملونا الى مركبهم واقلعوا بنا الى مدينة الجزائر من ولاية المغرب

وكان من عمل هولاء النخاسين انا لما توسطنا البحر قلبوا متاعنا وسلبونا مالنا وراحوا يهزأون بنا ويقدحون فينا ويتوركون علينا ويشربون من الغناني التي بردناها من ماء المغارة على ذكرنا استهزاء فاما ارفاقي فكانوا لا يعقلون لما اصابهم من الجهد واما انا فاني تسلحت بالصبر وصرت اساير النخاسين واستجلب مرضاتهم واتزلف اليهم حتى قيودني وطلبوا اليّ ان اضرب لهم على العود وهم يقترحون الاغاني ويتمايلون من الطرب لانهم اصحاء الذوق في الغناء . ولم ازل واياهم كذلك الى ان وصلنا الى مدينة الجزائر فقادوني قودًا الى حاكم البلاد ويعرف بسليمان باشا وامروا عليّ بحضرته وان لي موضعًا جليلاً من الغناء حتى اخذني لخاصته واقامني بستانيًا عندهُ . ثم حملوا رفاقي الى السوق وباعوهم . واما انا فاثريت وارتفعت شانًا وقدرًا

وبعد ذلك انقلبت الى مرفاء المدينة فشفت مشحونة بالاسرى بين ذكور واناث الى سوق النخاسين فذهبت لاشتري لي خادمًا فوقع نظري على فتاة تبكي بدموع احمر من الجمر فرق قلبي لبكواها ورثى لبلواها واتبعتها من الدلال . فلما وافتني راعيتها لباسي وتنهدت الصعداء ونظرت امراة من الاسرى وصاحت بها يا اماه لا تفترقي عني فقلت لها اهذه المراة امك فقالت نعم يا مولاي وارجوك ان لا تشتت شملي بها ولا شملها بي فقلت اذا كان اجتماعك بها في اسرك بلغة اسعدك وهناءك فانت مجموعة الشمل ان شاء الله

ثم مضيت الى تلك المراة وناولتها فاذا هي اختي فخفق قلبي خفقانا شديدا واضطربت لرويتها بين الاسرى والرقيق فبادرت بابتياعها وضممت بها وبابنتها الى البيت وعرفتها بنفسي . فلما عرفتني تهللت من الفرح وعانقتني ملياً وحمدت الله لوقوعها بالاسر في قبضة ابيها فاخبرتها بجملة ما توقع لي وطال كلامي معها الى ان سالتها عن اخوتي منها فاجابت انهُ ليس لها الاَّ واحدي واحتي هذه ولدا وقالت انها ولدت لها من زوج شرعي فقلت ولمَ فضلتها عليَّ بان اعطيتها ابًا شرعيًا وقد سمعتك تعيبين الزيجة الشرعية فقالت انا قلت ذلك ولم اعمل به ولا اخالك تعجب من تغير آراء النساء اذا اني رايت رجالاً كثيرين يقولون ما لا يفعلون . ثم انها ساقت اليَّ الحديث الذي لا انساهُ مدى الدهر . وهذا هو بنصه

فصل
في قصة ام دون روفائيل

قال جليلاس حدثنا دون روفائيل عن امهِ قال قالت لما هجرت وطنك منذ ثلاث عشرة سنة عشقني امير من امراء الدولة وطلب اليَّ ان ابعد عني العشاق الذين يحضرون مجلسي واصرم حبالهم فاجبتهُ الى ذلك على ان يرضيني بمال جزيل وعدني بان يجعلهُ اليَّ ورقًا وعينًا وهدايا ثمينة فاثريت من مالهِ وعطاياهُ واعملت الجهد كلهُ في ان ازيد كلفهُ بي حتى لا يسرع الى الهجران الذي تعودهُ الامراء

فبقيت مولاتهُ نحوًا من ثلاثة شهور الى ان حضرت مجلس رقص وغناء كان يحضره مع زوجهِ فجلست الى الى مقربة منها فوجهت اليَّ خادمتها فقالت ان الاميرة لا ترضى ان تجلسي واياها في مجلس واحد ولذلك تعزم اليك ان تنصرفي من هذا المكان فاجبتها بكلام سمج حدثت بهِ صاحبتها فتقلقلت الاميرة الى زوجها فاسرع الي وامرني بالخروج بصوت منخفض وقال لهُ شانكن ايتها المغنيات فانتن اذا احببتن اميرًا ظننتن انفسكن اميرات من بنات الاشراف وليس كذلك : لانا اذا احببناكن اكثر من نسائنا فقد شرفناهن عليكن جميعًا . فلما سمعت هذه الاهانة كدت ان اختنق من الغيظ والغم وانصرفت من المجلس صغيرة النفس ضيقة الصدر وما لبث اللاعبون والمغنيات ان عرفوا خبري فراحوا يهزأون بي خبثًا وشماتةً حتى كانت حالتي في ذلك اليوم عبرةً للمعتبر

ثم اني حجبت الامير عن مجلسي وحبست بابي عليهِ فتوارد الزائرون وفيهم العشاق من كل مذهب لذياع الخبر عني بين الانام لان المغنيات اللواتي يتخذهن الامراء لهم ويجلسون اليهن يشتهرن في كل مكان وتغلو اجورهن عما كانت قبل ذلك . فاخترت لنفسي بين هولاء الزائرين شابًا المانيًا لهُ مكانة عند امير معروف . ومازلت اخدعهُ واميل اليهِ وهو يسمح بالمال ويبعثهُ علي بالهبات الى ان صفر اناؤهُ وفرغ المال منهُ فاعرضت عنهُ ومِلت الى غيره من العشاق فانكر عليَّ ذلك ودخل علي في الملعب وفاجأني بضربة على راسي رايت بها الثريا خلال السقف فطلعت للحال على الملعب باكية العين متوجعةً وشكوت الى الامير ما نالني من مولاهُ فاجاب انهُ ينظر في امري بعد تمة التشخيص . فلما اجتمعت والالماني امامهُ وشكوت اليهِ الاهانة التي لحقتني منهُ اصرَّ الالماني على اني استحقها لهجراني اياهُ بعد ان انفق علي مالهُ فقال لهُ سيده يا غلام اني اطردك من مرتبتك في خدمتك لامن اجل انك اهنت المغنية ولكن من اجل انك اوقفت اللعب برهة ما كنت سيخرج فاصير الملعب مع خولي وموالي واهل بيتي فلما رايت نفسي صغيرة بعد هذا الاحتقار وعلمت اني لا اقدر على الانتقام من الالماني

Original from Library of Congress

لأتخلص من العار واعابة المغتين رايت ان ارتحل عن مدريد واهجر الغناء والملعب فاخترت لي مدينة بلنسية مقاماً لاأريد به زوالاً وذهبت اليها ومعي نحو من خمسة الاف دينار واستاجرت داراً مليحة واتخذت لي خادماً وخادمة ولم يعرفني احدٌ من الناس كما انا وقد قلت لهم اني ارملة قائد من قواد الجيش

ثم لم يطل مقامي في هذه المدينة ان علم بي سيد من شرفاء الاندلس ليس له مالٌ ولا نعمة فتزوج بي لانفق عليه من مالي وبقيت معه ست سنين ورزقني الله منه ابنتي هذه وكنت اظهر له ولغيره من الناس اني شريفة من بنات الامراء . ثم مات هذا الزوج عن دين عليه للتجار وكنت انا مقيمة في قصر له خارج المدينة فجاء صاحب الدين وهم الى اخراجي من القصر ليبيعه ويستوفي من ثمنه دينه فلم تكن لي حيلة لابقاء العقار الموروث الا ان أتيم بالعشق فؤاد هذا التاجر فلما توسمت اليه وابديت له العواطف وقع في شرك هواي واحب ان اكون زوجة له فاشترطت عليه ان يكتب القصر ملكاً لابنتي ففعل ذلك وتزوجت به وبقيت معه اربع سنين وقد اعاب الناس عليَّ زفافي على رجل من عامة الناس لظنهم اني امرة من بنات الاشراف

ثم سلط الله على زوجي هذا مرضاً اهلكه ويجلس الي سيد اخر من عظماء صقلية وباح بوجده بي ووعدني بمال جزيل وخيرات كثيرة ان تزوجت به فرضيت بذلك الى ان تنقضي مدة حزني وحداهي على ذلك التاجر . فلما تم الحول تزوجت به وقمت معه سنتين في هناء ونعيم الى ان فرق بيننا هادم اللذات ومفرق الجماعات فكتب لي قبل موته بعقار له في مملكة صقلية فركبت البحر مع ابنتي لاربح المال المكتوب لي فلقيت مركب هؤلاء النخاسين فحملوني الى هذه البلاد التي انت فيها مقيم واني لا احمد الله على ما انعم من وقوعي اليك لانخلص من ضيق الاسر وذل العار

فصل
في بقية قصة دون رفائيل

قال جلبلاس . ولما فرغ دون رفائيل من قص سيرة امه رجع الى سياق الحديث عن نفسه فقال ولما كان بعد قليل من الزمان عشقت امي تاجراً عظيماً من تجار الجزائر كان فؤادها كان يفتقر الى الهوى كما يفتقر الى الهواء فتظاهرت بالاغفال عن ذلك برهة من الدهر حتى امرني السلطان بان اركب البحر في جماعة من النخاسين الى ديار اوربا واعود اليه بالاسرى والرقيق ممن اتخطفهم خفية او اظفر بهم عنوة . فسرت من ذلك واعتزمت على اني اذا صرت في الاندلس بقيت فيه ولم ابرح عنه الى اخر العمر . فاخبرت امي بذلك فاصفر لونها وتمنعت عن المجيء معي لعشق هذا التاجر الذي اشعل قلبها فكررت عليها الطلب والضراعة فابت الا الاقامة في الجزائر هي وابنتها فقلت لها باهذه اذا كنت تعزمين على البقاء في هذه المدينة لتصيري زوجة التاجر المسلم فلما لا تدعي ابنتك تجيء معي . فانكرت عليَّ هذا الكلام وانصرفت عني الى بيت التاجر غضبة وقد ظننت ساعة في نفسي انها اذا تبصرت في كلامي رجعت الى القبول بما اشير به عليها . غير اني كنت مخطئاً ظناً بها لاغفالي عن معرفة طباعها وانها اشر الطباع . فلما كان غد اليوم دخل علي خادم من خول التاجر كنت احسن اليه بالهبات وقال لي ياسيدي ع لنفسك واحذر بطش الامير فان امك قد رضيت بسكنى هذه الديار واعتزمت على السعاية بك الى الامير بقولها انك ستهرب الى الاندلس وتقتل الرجال الذين يكونون في خدمتك وانك لا تسلم اليها ابنتها التي تحب ان تبقيها معها فلما سمعت

كلام الخادم لم اشك بان امي تفعل ذلك كاني بها قد طالما تعودت روية سفك الدماء على الملاعب حتى صارت تهرق دمي لاهون سبب واحقر غاية فعمدت الى الفرار لاتخلص من بطش الامير وركبت السفينة مع اختي وخولي وجماعة قليلة من الرجال ركبت بهم لانني عني سوء ظن وكيل البحر بي فلا يحظر عليّ الخروج واقلعت عن الجزائر في ريح رخاء ارسلها الله علينا ومعي من المال والجوهر ما تعادل قيمته ثلاثة الاف دينار . ولما توسطنا البحر وابتعدنا عن الجزائر واوثقنا هولاء الرجال تكتيفاً لنكون على ما من منهم على نفوسنا . وما لبثنا قليلاً بعد ذلك ان اقبلنا على مدينة ليفورنا من سواحل الروم فاقبل علينا المتفرجون من رجال ونساء وكان في جملتهم اب الخادم اشتريته في الجزائر من الفخاسين فلما اعلمه ابنه بي ضافني واختي وخولي في منزله واحسن مثوانا ومنقلبنا ورجاني بان ازوج اختي من ابنه فرضيت بذلك وسرت الى والي المدينة وسلمت الجماعة فاقامهم في السجون ليفدي بهم اسرى بلاده . ثم ركبت من هناك الى مدينة فلورنسة ومعي تجار بر توصية الى كبراء اهلها فرحبوا بي وظنوا اني سيد كريم وقدموني الى اميرهم فاتخذني نديما له وصرت احدثه بالعجائب التي رايتها والنوادر التي سمعتها واقول الشعر في مدحه ومدح الملوك من اجداده وآلوه حتى بلغت عنده مكانة لم يبلغها احد غيري من الندماء . فلما خلا بي مجلسه في بعض الايام قال لتعلم ايها الفتى اني اتخذتك لامر لم ارَ له فلاناً ولا فلاناً من خواص خدمي ولكن ايالك وافشاء السر في ذلك والمخالفة فتهللت فقلت ايها الامير مرني بقتل نفسي لافعل فقال اني كلفت بامراة وزيري كلفاً ليس في الامكان اشد منه وقد انجحت اليها بشوقي ولوعتي ثلاثاً وهي تعدني الجفاء اليّ والصدود . وليس مرادي ان اقتدي بالملوك الجبابرة الذين يغتالون اصحابهم لنوال مبتغاهم وتحقيق امالهم اذ كنت بحمد الله لا اركب خطراً ولا اعتسف غرراً . وانما الوجه في ذلك ان تمضي الى الوزير وتتزلف اليه وتستميل مرضاته حتى تتمكن من الجلوس الى امراته فتعلمها باني قتيل هواها واني اتلهف اليها عن كبد حرى فلما وقع اليّ امره اجبت بسرعة الامتثال وما زلت بالوزير اختلف اليه واحتفل به واساير هواه حتى بلغت منه مكانة رفيعة وصار يكلفني الى حضور مجلسه . فجلست يوماً الى امراته على حين كان في ديوان القضاء . فبلغتها سلام الامير والتمست منها ان تتعطف عليه رحمة من لديها فتولت تيهاً عن موضعي ولم تجبني الى ما اقضي به حق الرسالة . غير اني لم ايس من مراجعتها في ذلك

فلما عاودتها بعد ذلك واخبرتها بلهف الامير وكلفه بها رأيتها منشرحة الصدر لبلوغ عشقها من فؤاده ذلك المبلغ العظيم وكانت ارق حديثاً واسهل اجابةً منها في صدها بالامس ولما كنت قد تعودت السلطة على النساء والتصرف بهنّ ورأيت هذه المراة تبتسم اليّ طالما حدثتها عن الامير وقد صارت قريبة اللين لما اريد قيادها ظننت تميل اليّ ففضحت

فانصرفت من مجلسها غاضباً كدراً ومضيت الى مجلس الوزير لاسعى بها اليه وقلت له ان امراته تعشق الامير وان بينهما كلاماً ومراسلة فصدق كلامي ولم يلبث ان حبسها في موضع لم يصل اليه احد . ثم اني مضيت الى الامير واخبرته بما كان من حبس الوزير امراته بما وقع اليه من علم رسالتي اليها فتمزق من الغيظ وصار في حال من اليأس كنت بكيت لها لو لم اكن الذ في نفسي من هذا الانتقام الذي شفى نار الفؤاد

فلما كان بعد ايام قلائل قال الامير لجلاسه الامائل وانا معهم في المقام سائل ياقوم ما قولكم في رجل وجهه اميره الى مولاه في رسالة عشق فمالة

وخاتلة واشتغل لنفسه لالة فقال بعضهم الراي ان يضرب بالسياط الضرب الاليم ولا يفرش حتى يقتل ويسقى من حميم وقال آخر بل الراي عندي ان يجعل مخيطاً في زق ثم يهوى به من القلعة فيتمزق جلده كل ممزق وقال آخر بل يأمر الامير بان يعلق في زنب الخيل ليطفح عليه آناء العقاب الى اخر الكيل ثم تكلمت الجماعة بما بدا لها من الاراء والاقوال ولم يكن فهم الا من رأى الموت اقل جزاء لمخاتلة المحتال فالتفت الامير اليّ وقال ما قبلك في مكار محتال جلب عليّ بخداعه قلق البال ومرارة الانفعال فقدرت للحال انه يعني عني بهذا السوال وان خبري يكون وقع اليه من الوزير او من امراته لا محال ثم اعتزم على ان يذيقني مر النكال وشر الوبال فاصابني من الحصر ما لا يعبر عنه بمقال وانجر عرق الخوف من جسمي وسال ولم يبق لي من وسائل النجاة الا ان اطلب منه العفو بارتجال فقلت له ايها الملك المتعال وصاحب الاكرام والاجلال ان تعاقب هذا الرسول الخائن فانت صانع ما صنعه من قبلك الملوك والاقيال وان تصفح عن زلته كرماً من احسانك فانت اتٍ بما يذكر عنك من حسن النعال ويكون عفوك عن الرسول اشد عليه وانكى من القتل اذ تكون حسرته على ما فاته من رضى الملوك باقية في فؤاده الى اخر الاجيال . فقال الامير احسنت ياهذا في كلامك وانا اراني اهلاً لهذا العفو . ولا يكون حكمي عليك الا بابعادك عن داري فانصرف عني واخرج من بلادي لئلا تحل بك نقمتي . وكان في ذلك المقام اعداء لي كلموه بقتلي وان اتى لعظيم فقال صدقتم تعفو الملوك عن الجليل

من الامور بفضها
ولقد تعاقب في اليسير
وليس ذاك بجهلها
الا ليعرف فضلها
ويخاف شدة نكلها

ثم انه وكل بي حتى ارتحلت من بلاده وركبت سفينة اقلعت بي الى برشلونة من مدن الاندلس فاقمت في هذه المدينة برهة من الدهر غير طويلة ثم اقلعت عنها الى مدريد لشوق هوى بي الى مزارها فنزلت في فندق حسن من فنادقها فالفيت فيه امراة جميلة الصورة يقال لها كاميلية وهي فتاة يعرفها رفيقنا جلبلاس فتعرفت منها واشتعل قلبي بهواها مدة طويلة حتى انفقت عليها بقية المال الذي جئت به من ديار الغرب . فلما اعوزني واياها المال تنبهت قريحة الحيلة في عقولنا من سنة النوم ووقع راينا على اني اتغرب من ولكن قد قيل في حكم الاولين

النساء الموسرات لا صيب من مالهن وانها تجلس هي في دار تزورها فيه الرجال فنصيب من مالهم اجرة نعتاش منها . غير اننا لم نجمع بهذه المهنة شيئاً من المال مذكوراً . فرحنا نحتال بالناس مكراً وخداعاً فقبض علينا رجل من الشرطة فرشوناه بقدر من الدنانير فكتم امرنا حتى ارتحلنا الى مدينة موليد . فاتخذنا اجرنا فيها داراً اجمعت شملنا وقلت للناس اني واياها اخ لاخت حتى اقطع اسباب الشك من عقولهم

ثم اني رايت المعيشة يعسر تحصيلها مع كاميلية فافترقت عنها ولذت بجماعة من اهل اللهو والحيلة ومنهم سلام هذا الشهم الذي يصحبني اليوم . فاتفق انه سافر الى بلاده لمر وهو عائد الينا بمدينة برغش فجعلة خاناتي المدينة خادماً لرفيقنا جلبلاس فلما وصل واياه الى مدينة وليد حدثنا بقصته واعلمنا انه كثير المال وغر بين الرجال فانتدبنا كاميلية الى مباشرة الحيلة عليه واحتزنا منه على صندوق المال الذي هربت وسلام به في تلك الليلة دون ان نقاسم كاميلية ولا جماعتنا من اهل الحيل والمكايد ولم نزل نجد في

السير ونراوح بين الادلاج والتأويب حتى وصلنا الى مدينة طليطلة

ولما كان المال متوفرًا عندنا ولم يعرفنا احد في هذا المدينة كما نحن بل كانوا يظنون انا من اولاد الشرف والنعيم رحنا نتخذ المآدب المزخرفة وندعو اليها رجال القوم ونساءهم فلمعت بين النساء امرأة فتانة الحسن يقال لها نعمى وليس في خرائد المدينة من هي ابدع جمالاً ولا ارق حديثًا ولا اكثر ظرفًا منها فكلفت بها كلفًا شديدًا وعلمت ان بينها وبين زوجها نفرة ومباعدة لجلوسه بالرغم عنها الى الغانيات . فرغبني ذلك الى استعطافها اليَّ كلما جلست اليها والى توجيه الرسائل اليها كلما نأت عني . فوردني منها في بعض الايام كتب تنبئني بو ان زوجها يتعشى كل ليلة عند المبعي . فصرت اليها في العشي فطلت من الشباك وحدثتها الى هدء من الليل (وان الحديث لذو شجون) ثم صرت اليها في عشي اليوم الثاني ثم في العشيات بعد حتى ضاق صبري من مماطلة الوعد فلما كنت واقفًا تحت الشباك في بعض العشيات وقد عزمت على الدخول اليها رايت رجلاً يحدق لي ويرصد عليَّ ومكاني . وكان هذا الرجل زوج نعمى معشوقتي وهو لا يعرفني وانا لا اعرفه فدنوت منه وقلت له يا هذا افابلها اليوم وانت في غير ليلة واكون لك نعم الرفيق ان لي مولاة حسناء في هذا المنزل ستطل عليَّ من الشباك فقال يا فلان اني مقيم مقامك بالعشق ومحبوبتي مقيمة بجوار محبوبك ولكن من حيث انك دعوتني الى اخلاء الطريق لك فاني اجيب دعوتك وابقى في موضعي معوانًا لك في وثوب احد من اقارب مولاتك عليك

فما اكتم عليكم ايها الاخوان انى لما رايت من هذا الرجل حسن الاقبال عليَّ والتعطف اليَّ لم يخامرني ريب في صدق مقاله ولا عرفت ان الخداع كان مستترًا في خلاله فلما حدثت نعمى من الشباك واستوعدتها السلام اقبل عليَّ هذا الرجل الافاك وقال نعماك لقد حققت نوايالك ونلت مبتغاك وكنت اهنأ سعادة من سواك

مع اني كدت ان اوشك الهلاك بوقوعي في الاشراك فقلت وما في هذه الليلة الدهماء دهاك حفظك الله ورعاك فقال لقد كثر الواشون والساعون بي حتى افسدوا ما اصلحت وفضحوا ما طالما سترت

ولو ان واش باليمامة داره
وداري باعلى حضرموت اهتدى ليا

فما زال بي مكرهم ودهاؤهم حتى طير وا خبري الى اخ مولاتي فنصب شرك الحيلة لاتلافي فتلافاني الله بمنه وكرمه ومكنني من التخلص منه فقلت وما خبرك مع هذه الفتاة فحدثني باخبار غريبة ابتدعها في نفسي لكي انقاد الى اخباره عن زوجته وما كان سبيلي الى محادثتها ومجالستها كما اخبر في عن مولاته فانخدعت بحيلة وحدثته بخبري معها واطلعته على الكتاب الذي تعدني فيه بالحب فلما وقف عليه تغير لونه وانقبضت نفسه وحاول اخفاء ذلك عليَّ فلم افطن له . ثم تركني وضرب لي ميعادًا التقي فيه به من الغد

فلما كنت في منزل الجارة أحدث حديثي سمعنا على الباب ضجة وعوغاء فقالت لي نعمى قم وانج بنفسك فهذا زوجي قد جاء يكبسنا مع صديق له واخاف ان يراك في مجلس انا فيه فنهضت الى شباك يشرف على الشارع رتدليت منه وانا اسب هذا الزوج ولم اعلم انه هو ذلك المحتال الذي اطلعته على خبري فلما التقيت به في الميعاد تبسم اليَّ وقال اطرفنا بالحديث عن مولاتك وما كان من تعطفها عليك فاخبرته بالنازلة كيت وكيت فرايته يتصنع بالاستغراب ليوهمني ان لا علم له بشيء من الامر حتى صار يشب الزوج الذي دهمني كبسته ويحضني على الاخذ بثاري منه فقلت وهل يكون بينك و بينها كلام بعد هذا كله فقلت كيف لا

وقد دعتني وانا اتدلى من الشباك الى المسير اليها بعيد الغروب مع رجال يقفون على باب الدار لآمن على نفسي من غدر زوجها فقال الك رجال اصدقاء في هذا البلد فقلت لي رفيق يقال له سلام ولم ازهُ طول هذا اليوم كانه تشغله عني أمور النساء فقال بل انا اكون من رجالك مع صديق لي ونقف الليلة على الباب لنقيك غدر الزوج الشرير. فلما سمعت كلامهُ انخدعت به وشكرته على معروفهِ شكرًا جزيلاً واطلت معهُ العناق اذ انهُم يخامرني ريب بصداقتهِ وخلوص طويتهِ على الاطلاق

فلما كان بعيد الغروب اقبل علي رفيقي سلام فحدثتهُ بالخبر ومضيت بهِ الى منزل نعمى فالفيت الرجلين ينتظراني هناك فلما دخلت وصرت في دهليز الدار دخلا ورائي وقفلا الباب ليبقيا رفيقي خارجًا ثم شهر علي السيوف فوثبت عليهما وطعنت الزوج في صدرهِ فقتلتهُ وعمدت الى طعان رفيقهِ فولى من وجهي هاربًا فخرجت الى سلام فقال. ما الامر لقد رايت مولاتك هاربةً فاستخبرتها عن الخبر فلم ياتها الكلام لما اصابها من الجهد فما خبرك ومن معك من الرفاق فاعلمتهُ بالنازلة وانني قتلت زوج المراة الذي كان يدبر لي حيلة لهلاكي . فاسرع الى منزلنا للحال وحمل بعالنا من الاحمال وركبت معهُ الى اقليم اراغون في شمال الاندلس فرارًا من طلب الشرطة الذين سرحوا خيالتهم للبحث عن موضعنا في السهول والجبال

فانا لنسير في بعض الجبال الموعرة اذ قال لي سلام هلم نعطف الى كهف ناسك يتعبد الى الله في هذا الجبل «وهذا الكهف هو الموضع الذي كنا بالامس فيهِ» فمضينا اليهِ فالفينا الناسك في اخر ساعة من الدنيا واول ساعة من الاخرة . فلما رآنا بكى على ذنوبهِ وتقدم الينا بالحكم البليغة والمواعظ الزاجرة حتى اندفقت روحهُ فبكينا عليهِ ودفناهُ ولبثنا برهة في الكهف نستريح فتفق انا عقلنا لنامن من وصول الشرطة الينا ان نلبس ثيابهُ ونجلس مجلسهُ في مصلاه فاقدمنا على ذلك وكان سلام ياتي بالزاد والخمر من القرى المجاورة وكنت كلما جاءني احد يلتمس البركة تقلدت صوت الناسك في كلامي اليهِ حتى لا يفطن الى حيلتي . ولما طالت اقامتنا في هذا الكهف اعتزانا الضجر وتولتنا السامة فكنا نسير من تحت الليل الى غابات في المدينة يابسن حلل المتعبدات ليخدعن الناس بعبادتهن الظاهرة وكنا نقضي الزمان عندهن في شراب ومنادمة وما زلنا على ذلك الى انقضاء ثلاثة شهور حتى سعى بنا الناس الى احكام الدولة فكتب الينا المتعبدات بذلك وهو الكتاب الذي اخذتهُ من من سلام بحضوركم اول امس فهربنا معكم من وجهتهم وهذا اخر ما اذكرهُ لكم من قصتي

فصلٌ
في خروج جلبلاس ورفاقهُ من الغاب

قال جلبلاس ولما استتم دون رفائيل حديثهُ قال لهُ سلام رفيقهُ يا اخي ان الشمس قد مالت الى المغربان واكتست بحلة الارجوان فلنعقد مجلسًا نتشاور فيهِ بما ندبر لامرنا فالراي عندي ان نسير من تحت الليل الى ضواحي بلنسية وهناك غابات لا يصل اليها الشرطة فنتخذها فيها . فوافقهُ دون رفائيل على رايهِ الاَّ ني ودون الفونس وقد قصدت العود الى الاوطان فقال لي سلام

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمةً
ان الجلوس مع العيال قبيح

ثم ائتمَّ علي دون رفائيل وعلى رفيقي دون الفونس حتى واطئناهم على ذلك . وكان خروجنا من الغاب بعد ان ادلهم الظلام وما كدنا نسير مئة خطوة ان

لاح لنا ضوء غير بعيد فراعنا وقود نار في غاب لا ياوى اليه الانس وبقينا متحيرين في امرنا فقال دون رفائيل الا تظنون يا اخوان ان الشرطة درت بموضعنا فسرحت الخيالة في طلبنا فقال سلام لا اظن هذا وحياتكم وانما ظفي بهم جماعة من المسافرين وقد دهمهم الليل فلاذوا بهذا الغاب لاخذ الاستراحة ومع ذلك فاني امضي اليهم لاتحقق الخبر بنفسي فابقوا في هذا الموضع حتى اعود . فمضى سلام الى ناحية الضوء وهو يسير بوطء خفي ويتعابد الغصون والقضبان التي كانت تعترضه في طريقه مخافة ان يسمع القوم وطء اقدامه . فلما دنا منهم راى على العشب اربعة رجال في وسطهم شمعة موقودة وطعام ونبيذ وهناك رجل وامرأة مقيدان الى شجرة على مقربة منهم ولها بغلان وتخت وان فلما سمع حديث الرجال الاربعة عرف انهم لصوص ورآهم بعد مناولة الطعام يبرمون افتضاح المراة وهم يتشاورون في من يكون اول فاعل منهم فعاد الى الموضع الذي فيه فارفقناه واخبرنا بما سمعه ورآه فقال دون الفونس اقدر ان الرجل والمراة هما شريفان من اولاد النعيم وان وافقتموني فلنعقدن على انقاذهما من قبضة اللصوص فوافقه سلام ودون رفائيل على ذلك وبقيت انا اخر متردد في الاقدام عليه ولكن لما اعلمني سلام ان سلاح الجماعة موضوع على بعد منهم لم ار من الاقدام على مقاتلتهم خطرًا خطيرًا فمضيت معهم وسرنا اليهم بوطء خفي لناخذهم غفلة وهم غافلون . فكان من ستر الليل علينا وتشاغلهم بالمشاورة في امر المراة ان دنونا منهم ولم يفطنوا لنا فاخذنا سلاحهم ورميناهم بالنار فوقعوا قتلى في مواضعهم . فرحنا نستهدي الى موضع الرجل والمراة استهداء في الظلمات لان الشمعة كانت انطفأت في تلك الهمعة فوجدناهما في حال عظيمة من الجهد كاني بهما قد قدرا ان نكون نحن لصوصًا مثل الاولين فسكنا روعهما بالاطمئنان حتى طابت نفسهما . ثم فتشنا جيوب القتلى وحزنا على دنانيرهم وركبنا خيولهم وركب الرجل والمراة تخت روانها وقصدنا خانًا اخبرنا سلام انه يبعد نصف ساعة عن موضعنا فلم نصل اليه الا بعد مسير ساعتين من الزمان

ولما استقر بنا الجلوس في هذا الخان واستوقدت لنا الشموع والنيران تفرسنا هذا الرجل والمراة فاذاهما معين الدولة وابنته انس فتعجبنا من ذلك وداخل دون الفونس من الفرح والسرور ما ليس الى التعبير عنه من سبيل . ثم انهما اثنيا على ما اولياناهما من المعروف وراحا يحدثانا بما كان من وثوب اللصوص عليهما وقتلهم الغلمان الذين كانوا في خدمتهما الى ان مضى جزء من الوقت . فرايت ودون رفائيل ان نلهي معين الدولة بالمجاورة ليتمكن دون الفونس من الحديث مع انس معشوقته فقال لها بصوت رخيم ياسيدتي انس ومالكة فوادي اني اعد هذا اليوم اول يوم من سعادتي اذ تمكنت فيه من هذا العمل المبرور فقالت اني لك وابي من الشاكرين لما كان من صونك عرضي ومدافعتك عني وعن ابي فانا اميل اليك ولكن لمَ قتلت اخي سهوًا قالت هذا الكلام ولم تزد عليه عبارة لبلوغ شعائر الحب في قلبها فسر دون الفونس من ذلك لتيقنه بمحبة انس له

الجزء السادس

فصل

في احتيال جليلاس وارفاقه على التاجر اليهودي

قال جليلاس ولم يزل بنا معين الدولة في الشكر

لجميلنا والوعد بمجازاتنا حتى دخل محدعة للرقاد فركبنا من تحت الليل الى غاب منفرد لبثنا فيهِ النهار كلهُ لئلا يدري بنا احد ثم اقلعنا منهُ عندما خيم الظلام الى غاب آخر في ضواحي بلنسية وفي مخارقهِ نهر ظليل ينساب بين ازهار بهيجة واشجار نضيرة يخللها المرعى الخصيب . فعقلنا الخيل واطلقنا قيدها لتتمكن من تناول الكلاء ثم جلسنا لنصيب من الطعام شيئًا نسد بهِ جوعنا فاذا الزاد قليل في الجراب غير كاف لجمعنا فقال سلام ياقوم ان توجهوني الى هذا البلد القريب (واشار الى بلدٍ نراهُ راي العين) فقد اتيتكم بالشراب والطعام بعد ساعة او ساعتين فقلنا لهُ سر ولا تبطئ في العودة الينا فركب جوادهُ ومضى متوجهًا نحو ذلك البلد ثم اقبل الظهر ومضى جزء من النهار وهو لم يرجع الينا فاستطلنا عاقتهُ ولبثنا ننتظر قدومهُ من ساعة الى ساعة . فلما كان بعيد العصر رايناهُ مقبلاً يجهد الدابة ومعهُ طعام لنا في الجراب وكيس ضخم فيهِ ثياب فقلنا هذه ثياب رجال مجمع الايمان افشراه كانت لك ام سلبًا على الطرقات قال لا بل شراء بالمال قلنا قد اضعت دنانيرك في ما لا فائدة لك منهُ ولا نوال قال لا انما اشتريت لنا لباسًا نحوز بهِ من الدنانير صررًا واكياسًا فقلنا وكيف ذلك فقال لقد اوتيت من الفطنة ما لم يوتهِ احد من الآدميين وان في بعض ما دبرت لمعجزة تعجز الورى وتسر السامعين فقلنا هات ما وراءك من الاخبار فقال اشتريت من نباذ في هذا البلد عشرين رطلاً من النبيذ ومن خباز ثلاثين رغيفًا من السميد ثم اقبلت على دكان صاحب الطعام لابتاع منهُ الدجاج والبحول والدراج واعود الى هذا المقام . فالفيت عندهُ رجلاً يحدثهُ عن تاجر استدان منهُ المال فلم يدنهُ ويشير الى انهُ رديء المذهب يضيع بترك القروض دينهُ ويقول انهُ كان في الاصل يهودي المولد ثم تنصر لغايات وما رب وبقي في الباطن وهو متهود

ثم ذكر عنهُ غير ذلك مما ولد في نفسي حيلةً اباشرها عليهِ معكم . فاشتريت لباس رجال المجمع لاجل ان . . . فقال دون روفائيل كفى لقد فهمنا عنك مرامك ولله ابوك ما ادق حيلتك فامارسول المجمع فتكون انت واما واما الكاتب فاكون انا واما الشرطي فيكون جلبلاس ونحن نسير معك لمباشرة هذه الحيلة التي اتمنى ان تكون لي بنصف حيلي

ثم بتنا في تلك الليلة ونحن على هذا العزم حتى جهجه الفجر فايقظنا سلام من الرقاد وقال وهو يضحك رايت ياقوم كاني انتف من لحية صموئيل اليهودي شعرًا فما موضع للشك بعد هذا المنام بانا لا نبلغ من مشتري هذه الثياب المرام فضحكنا من ذلك واخذنا في تغيير زينا ونحن في مزاح وهزار حتى انتصف النهار فركبنا الى المدينة بعزم واقدام وجلسنا تحت اسوارها الى ان يقبل الظلام لان حيلتنا لا تصح الا من تحت الليل . ثم انا وكلنا دون النونس بملاحظة الخيل ومضينا في المدينة الى نباذ تقرب خمارتهُ من منزل التاجر حتى يسمع بقدومنا فيتولاه الجزع وتأخذه الاوهام فلما دخلنا على النباذ راعهُ قدومنا وكاد الا ياتيهِ الكلام فقال لهم وهو يوهم انهُ رسول مجمع الايمان ياهذا قد قصدناك لاستنطاق ان صدقتنا بهِ كرمت وان لم تصدقنا فانت مهان ثم التفت الى دون روفائيل وقال باشر مهمتك ايها الكاتب الحاذق وحرر كلام هذا النباذ الصادق فقل يانباذ هل هل رايت جارك صموئيل في كنائس النصرانية فقال لا اذكر ذلك اذ لم تكن لي من المراقبة عليهِ نية فقال اكتب يا انت ان التاجر لم يرَ في الكنائس قط فقال النباذ لقد وقع في فهم كلامي غلط فانا لا اقول هذا قربا وجد في بيعةٍ ما كنت فيها تلك المرة او كان في كنيسة كنت فيها ولم ارهُ فقال صه لا تنطق الا بما تجيب بهِ على السؤال والا فان تعرضت لمديح جارك او الانتصار

له فقد اتسع في تهمتك المجال ووقع في انفسنا انك تحذي من مذهبه بالمثال فصح التمثيل بك والنكال فقال ياسيدي انا لا اعرف جاري الا بالنظر ولا اوقفك عن مذهبه على حق الخبر لا في ملح ولا في قبيح ولكن ان شئت جئتك بخادمه الغلام وهو مكثار ينقل الكلام وعهدي به انه ما دخل خمارتي يومًا الا اخرس القوم وهاذ الكلام له في ذلك اليوم فقال لقد سررت من خلوص طويتك وما كان على الدين من غيرتك فجئني بغلام التاجر الان ولك الجزاء من مجمع الايمان فسار النباذ لوقته في طلبه ولم يلبث ان جاء به فقال له سلام ياغلام اني موكل من المدن المجمع الذي هو مجلى الفضائل ومقدس الشعائر بان اطلع منك على سيرة صاحبك التاجر وما يخفي وما يجاهر فقال سانبئك عن خصال صاحبي صموئيل فانه يتظاهر بدين الانجيل ويوهم انه يسلك سواء السبيل مع انه في الباطن في تضليل وله في كل ليلة مجلس عند الغواني وهو صب الى سماع الاغاني فيقول بالعفة ولا عفاف ويتظاهر بالفضائل وقد حوى مستهجن الاوصاف فقال رعاك الله ياغلام كذا فليكن الكلام ومرادي ان تجيبني بالصدق على ما اسالك عنه ليثبت في التقرير وانك بالصدق لجدير فقل هل ياكل صاحبك الخنزير فقال والله لا اذكر الا انه اكله مرة واحدة طول هذه الاعوام فقال اكتب انه ينجافى عن اكل الخنزير كما ثبت عليه بالاشهاد ثم قال للغلام اذن هو ياكل لحم الضان بدلاً منه فقال صدقت فيما يذكر عنه وقد اتفق انه اكل شاة في فطور الفصح لاخر مرة فقال اكتب انه يقيم عيد الفطر كما يقيمه يهود السامرة ثم قال للغلام اهل رايته يمازح اولادًا صغارًا فقال نعم ياسيدي وكلما مرّ به ولد ظريف مازحه على باب دكانه جهارًا فقال اكتب انه يتخطف اولاد النصارى ليذبحهم للدم وان الخبر عنه في ذلك قد اشتهر وعمّ . ثم قال له الم تره آخذًا بامور لا يطلعها على احد وتكون له اوقات بطالة كبطالتنا في يوم الاحد فقال نعم ياسيدي اني اراه يخلي في ايام من الاسبوع بخدعه ولا اعلم ما يكون من بطالته او صنعه فقال اكتب انه يصوم في يوم السبت ويتفرغ عن دنياه ويقيم الصلاة في مخدعه سرًا لمولاه . ثم قال اليك مني ياغلام سوالاً اخر عن هذا اللئيم فهلاّ حدثك قط عن اورشليم فقال نعم ياسيدي قد سمعته يحدث عن هيكل سليمان وكيف دمره الرومان واخفى عليه الزمان فقال اكتب انه يذكر الناس بدولة اليهود ويروم ان تعود كما كانت لايام داود وهذا غاية ما اريد الوقوف عليه من سيرته والخبر وفي دونه كفاية لاثبات يهوديته وانه لمن يهود خيبر

ولما فرغنا من استنطاق الغلام على ما تقدم بيانه عطفنا الى منزل التاجر ونحن في هدو وسكينة فلما فتح الباب ورآنا بزي رجال المجمع وجم برهة وهو لا يبدي من الخوف حركة فقال له سلام نحن رسل مجمع الايمان نبلغك امره بان تخرج الينا مفتاح مخدعك لنرى هل يكون فيه ما يؤيد كلام الناس عنك فيما رفعوه الينا من القصص والشكايات . فلما سمع كلامنا رجع الى الوراء كانما اتته لطمة على صدره ولم نرَ انه مرتاب بحيلتنا ولا ظان بانا لسنا من مجمع ملتنا وربما وقع في نفسه ان عدوًا وشى عليه او كان ردىء المذهب في الدين فلم يعجب من قدوم رجال المجمع اليه ففتح لنا باب المخدع ووقف منكس الراس فقال له سلام تنحَّ ياهذا عن موضعنا ودعنا نباشر مهمتنا بخلوة فخرج الى حانوته دون ممانعة ولا معارضة . فبادرنا الى تناول المال فوجدنا منه في الخزائن الحديد شيئًا كثيرًا وكله من نقود الفضة فساءنا ذلك لان الذهب كان احب الينا من الفضة واخف حملاً غير انا رضينا بالموجود وملانا منا جيوبنا وصدورنا واحذيتنا واجربتنا

وكل موضع لا تفقد منهُ حتى كدنا ننقل عن المشي

ولما كان سلام ماهرًا في الحيلة وقد خاف ان التاجر اذا جاء بعد انصرافنا وراى ما حل بهِ طرح الصوت في الاسواق فهرع الناس على اثرنا راى ان يتدارك الامر بحيلة ثانية فاخرج قفلاً من جيبهِ واغلق باب المخدع وختم عليهِ بخاتم فيهِ نقوش وكتابة ثم استدعى التاجر وقال لهُ ونحن منصرفون عنهُ ياهذا انظر ختم المجمع المعظم فاحذر من ان تمد يدك اليهِ قبل عودتي اليك من الغد بما احضر لك من اوامر المجمع والا فانت هالك شر هلاك . ثم نزلنا الى الشارع واحدًا بعد واحد واخذنا في الرسيم الدراك حتى كدنا لاتلحق الارض بارجلنا من سرعة العدو مع ان الحمل كان علينا ثقيلاً . ثم وصلنا الى موضع دون الفونس فركبنا الخيل ومضينا متوجهين نحو مدينة سغرفة

فصل
في انقطاع جلبلاس ودون الفونس عن قطع السبيل

ولم نزل نسير في الليل كعادتنا المالوفة حتى وصلنا مع الفجر الى قرية تبعد ميلين عن سغرفه وفي اطرافها غابة من الصفصاف يجري فيها الماء وها ظل ظليل يهب فيهِ نسيم يشفي سقام العليل فملنا اليها لناخذ نصيبًا من الاستراحة فقيدنا الخيل في موضع الكلاء والاعشاب وشربنا من المدام واكلنا من الطعام ما كان محمولاً في الجراب . ثم نزعنا ثياب المجمع واخذنا نعد الدراهم التي سلبناها من التاجر فبلغت عشرة الاف درهم . فجمعت مع ما لدينا من الدنانير قدرًا من المال لايجتمع عند كثير من الذين يقطعون السبل ويملأون ايديهم من نهاب الناس

وبعد ان اصبنا من القيلولة في النهار ما ازال عنا مشقة الاسفار راى سلام ودون رفائيل ان يمضيا الى سغرفة ليحملا منها الطعام ويريا في حيلة يباشرانها على احد من الانام لنصيب منها مثل ما اصبنا من التاجر المسكين . واشار الي بان انتظرها تحت الصفصاف مع دون الفونس . فوقع في نفسي انهما اذا سارا بالمال لم يرجعا الينا فقلت لهما وانا ابتسم بنبسم صناعي خليلي ان عولنا على مفارقتنا الان فلا احسب رجوعكما الينا قريبًا فقال سلام لقد رميتنا بتهمة توقع علينا العار ولست اشك انهُ وقع في نفسك عند ما علمت بذهابنا ان قلنا انا نروم ان نذهب بالمال ولا نقاسمك ورفيقك بهِ كما هربنا بمالك في مدينة وليد من دون ان نقاسم ارفقا آمنا بهِ . ولكن لتعلم ان الذين خدعناهم في تلك المدينة من الرفاق لم نكن معهم في وفاق وانفاق بل كنا في تمزق وشقاق وكان تجافينا عن جوارهم للتخلص من شرهم اكثر منهُ لاحتياز المال فارجوك ان لاتظن سوءًا بنا وان تتاكد صدقي في المقال . فقال دون رفائيل صدقت ياسلام فيما تقول ولكن لو تركنا المال بين ايدينا ثم مضينا الى المدينة لكان احفظ للمال من ان يفقد واصدق لها في انجازها الوعد . فقلت بذلك قد رضينا الان فامضيا الى حيث تشاءان فتركانا وسارا يريدان المدينة ومعهما جراب الزاد وزق الخمر

ولما ابتعدا عن الغابة قال لي دون الفونس ياخلي اني مطلعك على ما يتردد في ضميري من الوساوس فاني اسفت لمرافقة هذين المحتالين اسفًا ما عليهِ من مزيد وكلما فكرت في ذلك تكاد تتفطر مرارتي من الندم وقد اصابني من التاثير البارحة وانا واقف بالخيل ما عقدت النية معهُ على مفارقة هولاء الصعاليك فقلت ان كلامك قد وقع مني بالموافقة ولست ارى للرجل الكريم ان يرافق امثال هذين المكارين وان

كنت تراني اباشر الحيلة معها فليس ذاك بالتطوع مني وانما هو لاكراه عليه بالرغم عني فيها نعتمد على هجرها من كل بد بحيث لا نجتمع بها طول الامد من بعد غد فقال احسنت باخلي في كلامك ونحن نسير من الغد الى بلنسية ونركب منها الى البندقية في اول بلاد الفرنجة لتخدم في جندية الدولة بدلاً من ممارسة هذه المهنة الردية ويكون لنا بين الناس مقام واعتبار بما يكون معنا من المال الذي تقاسمه من هولاء الاشرار ولا اقول ان هذا المال حلال لنا استخدامه ولكن لنقسمن بانا اذا اثرينا فيما بعد عوضنا صاحبه باضعاف ما انتهبنا من خزائنه

ولم نزل في مثل هذه المذاكرة الى اخر النهار واذا بالرفيقين قد اقبلا منشرحي النفس وذكرا بانهما نصبا شراك حيلة كاحسن من حيلتهما بالامس وكانت تلوح على وجهيهما علائم الافراح وتخلج في صدريهما عواطف الانشراح فقال لهما دون الفونس انعما وشانكما في ما تجدونه لانكون معكم من بعد غد فقالا نظنكما تقولان هذا مزحاً فقلنا لا وحيوتكما وانما مرادنا الافتراق عنكما فقال بالله لا تفترقا عنا فقلنا ما الى هذا من سبيل فاخذا يستهضاننا الى البقاء معهما الى انقضاء الليل ونحن لم ننثني عن عزمنا . فلما تنفس الصبح ودعناها وداعاً لارجوع بعده واقتسمنا المال بيننا بالنصف والانصاف

فصل
في زفاف دون الفونس على معشوقته انس وفي ان جليلاس صار خولياً عنده

وكان مسيرنا آخذاً الى جهة بلنسية على ساحل الاندلس لانا قصدناها لركوب البحر منها كما تقدم الكلام في الفصل السابق . وكان من نكد الحظ ان سلط الله على رفيقي حمى شديدة كادت تقتله والعياذ بالله ومازلت اداركه بالملاطفة واسقيه مرق اللحم حتى شفيته باذن الله . وظني انه لو كان هناك طبيب يعوده لكان اتلفه لا محالة . وبعد ان عاودته العافية ورجعت اليه الصحة عدنا الى المسير ونحن نتذاكر عن سفرنا الى البندقية وما نعمل فيها اذا صرنا اليها . فانا لعلى بعض القرى معرجان اذ رأينا رجالاً ونساء من القرية يرتصون ويغنون في ساحة قصر حفيل البنيان مشيد الاركان . فملنا الى جهتهم للتفرج والنزهة واذا بدون تياذوق قد اقبل على دون الفونس وقال له لقد قدمت الينا بعد ان سرحنا خدمنا في طلبك فمرحباً بك . فترجل دون الفونس عن جواده وهو يكاد يطير من شدة الفرح واقبل عليه وقبله وطال العناق فقال له الان تجلي لك الحقيقة يابني وتعلم ابن من انت فتهنأ بسعادة لم تظفر بها قبل هذا الوقت ثم اخذه من يده وساريه الى داخل القصر فقيدت الفرسين الى بعض الاشجار وتبعتهما ومشيت الى جانبهما واول من استقبلنا من رجال القصر ابا دون الفونس واسمه دون قيصر وهو رجل دون الخمسين في العمر وله مهابة وجلالة قدر فعرفه تياذوق بابنه فترامى عليه بالتحية والقبلات وطالت تهنئته له بالسلامة حتى بكى من شدة فرحه به فقال له يا بني لقد ساءني والله ان ابعدك عني طول هذه السنين واوكل بك صديقي تياذوق لتربيتك وتاديبك ولكن جدك كان يظلمني ظلماً الجاني به بعد التزوج بامك على غير رضى منه اذ كانت دونها في القدر والنسب ان أُواريك عن ابصار الناس لئلا يعلم بزيجتي بامك فيقطع عني ميراثه . ولما توفاه الله الى رحمته في هذه الايام سرحت الرجال في طلبك لاجل ان اهنأ بك اذ ما برحت والله اشتاق الى طلعتك

والدي في هذا القصر فتاة من بنات الوزراء قد اعددتها عرسًا لك وهي . . . فقال له ابنهُ يا ابتاهُ لقد سررت بروءيتك سرورًا فعم قلبي من اللذة والهناء فلا تسلبني سعادتي بزواج لا اهنأ بهِ ولا تظلمني كما ظلمك ابوك فانهُ وان لم يرضَ بزيجتك بمن تحب فلم يكرهك على الاقل الى زيجتك بمن لا تحب . فقال صدقت يا بني والخاطر لك على كل حال فتعال وانظر هذه الفتاة فان لم تمل نفسك اليها فلست احملك على الزواج بها بالرغم عنك قال هذا وساروا ونحن نتبعهما وجاوزوا مقصورة بعد مقصورة حتى انتهى بهِ الى مقصورة راينا فيها معين الدولة وابنتهُ انسًا وجولية وبليان زوجها جلوسًا مع رجال ونساء من عيون الناس جاءوا يهنئون بليان بزفافهِ على جولية (ولذلك كان اهل القرية يرقصون ويغنون ويلعبون في ساحة القصر) وكان بليان ودون الفونس اولاد عمّ وهما لا يعرفان بعضهما فلما تعرفا ببعض تعانقا وتصافحا ودارت بينهما عبارات الشوق والتهنئة ومعين الدولة ينظر اليهما فلما تفرس دون الفونس وعرفهُ قام اليهِ وقال اهلاً بك ايها السيد الشريف وشكرًا لما كان من معروفك اليّ وانك وان كنت قتلت ابي فقد عمدت الى تزويجك بابنتي انس ليتم بك سروري واكافيك على معروفك . فشكرهُ دون الفونس شكرًا جزيلاً ولاحت على وجههِ علائم الافراح واشتركنا كلنا بالمسرات الى انقضاء ذلك اليوم

ولما كان بعد ايام تزوج دون الفونس بمعشوقتهِ وكان لزفافهما من الزينة والزخرفة والرقص والغناء والملاهي ما لا يتخذ الملوك مثالهُ في المواسم والاعياد . ثم اراد معين الدولة ان يذهب بي الى منزلهِ ليهطل عليّ من نعمهِ واحسانهِ غيثًا جودًا فابى عليّ دون الفونس الا البقاء عنده وولاني خولية بيتهِ ، فصرت كريمًا عندهُ محبوبًا منهُ متقربًا اليهِ . ثم راى ان يوجهني الى بلد التاجر لاحمل اليهِ المال الذي انتهبناه فسرت اليهِ بعد ايام من هذه الولائم والافراح

الجزء السابع

فصل

في عشق وقع بين جلبلاس وخادمة انس

قال جلبلاس وبينما كنت سائرًا الى صموئيل التاجر احمل اليهِ عشرة الاف درهم من قبل دون الفونس وقع في نفسي ان احتاز هذا المال ثم اعود الى سيدي بعد غيبة بضعة ايام واوهمهُ اني دفعتهُ اليهِ فيصدق كلامي ولا يخامرهُ ريب مني فيبقى المال بين يديّ . غير اني غالبت التجربة بالمروءة والشهامة حتى ظهرت عليها باذن الله . وعظمت منزلتي عند نفسي بذلك ظنًا بان هذا المال وقع في يد رجل ممن يصحب اللصوص حينًا من الدهر ويباشر الحيل معهم ويقطع السبيل وكثيرًا ما هم لكان احتازهُ لنفسهِ وما سأل عما وراء ذلك من الفضيحة والعار الذميم كذلك حال الاشقياء من قبلهم ومن بعد والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وبعد ان دفعت المال الى التاجر على حين لم يتوقع ذلك رجعت الى القصر فوجدت معين الدولة وابنتهُ جولية وصهرهُ بليان قد ركبوا الى طليطلة ووجدت دون الفونس هائمًا بحب زوجتهِ كاكثر من ذي قبل والفيت اباه دون فيصر مسرورًا بجمع الشمل بهما . فعمدت الى مباشرة خدمتي من الخولية وصارت تاتي اليّ الاموال وانفق منها بتصرف لا معارضة فيهِ . وكان لي على سائر الخدم من الوقار ونفاذ الكلمة ما لم اسمع بمثلهِ قط وكنت معاملاً لهم بالاحسان اليهم والشفقة عليهم ولم يتفق اني صرفت خادمًا قط

ولو اساء التصرف اليّ ولم يستمل مرضاتي اليه . وكنت امينًا في خدمتي اقيد بالصدق في سجل النفقات ولا اسرق درهمًا واحدًا من المال الذي امنت عليه

فاني لمحفوف بهذه السعادة منغمس في نعيم العيش منبسط على بساط الهناء لا هم يتردد في خاطري اذ حسدني العشق على ما انا به من تلك الغبطة واراد ان اذل له فقدران تعشقني قهرمانة انس وهي فتاة ليست بالفتية (اذ تكاد تبلغ خمسين سنة من العمر) ولكنها جميلة الصورة غضة الجسم . ولها عينان نجلاوان يفتتن بهما العشاق ولا يعاب فيها لا اصفرار كاسف في اللون كانما هو ناشئ من طول العذوبة

فمضت ايام وهذه الخادمة تريدني على نفسها وتنظر اليّ بعيون عاشقة والحاظ فاتنة وانا اتجاهل اليها واظهر كاني لم افهم عنها مرادها فكانت تظن اني لم اعشق امراة من قبل وكان يعظم سرورها من ذلك الظن . غير انها لما بلغ منها الغرام ورات ان حديث العيون لا يبلغها غايتها مع رجل غمر لم يعرف النساء رامت ان تعرفني عن مرادها بالعربي الفصيح كما يقال في الامثال . فلما جمعتني واياها الخلوة اعربت عما في نفسها بفصيح العبارة حتى لا تبقي في نفسي شيئًا من جهل ما به من الغرام . وكان من عظم دهائها انها لما اباحت اليّ بشوقها سترت وجهها بذراعها كانها ياخذها حياء النساء فعرفت من ذلك انها ذات مكر ودهاء ولم يبق عليّ الا ان ابادرها باظهار الحيل اليها لئلا تسعى علي بحيلة لدى سيدتها ان لم اجارها على غرامها فافترقت عنها الى ميعاد اخر وفي النفس انها لا تصبر الميعاد الثالث بعدهُ

فلما كان بعد ذلك دخل عليّ خادم كان يتقرب اليّ و يستميل مرضاتي لاحسن اليه وهو ممن يتجسس الاخبار و يعرف ما يدور بين الخدم من الحديث فقال لقد شاهدت بعيني امرًا عن الخادمة ارجوك ان لا تحدث به احدًا لئلا يتصل بها فتصرفني من القصر لا محالة . فتشوقت الى الوقوف على ما يريد ان يخبرني به غير اني تظاهرت بعدم المبالاة لذلك وان لا غاية لي من الوقوف على اسرار الخادمة فقلت قل و بئر السر عميقة فقال رايت الخادمة تختلي كل ليلة بحلاق القرية الجراح وهو شاب حسن الوجه يجلس اليها زمنًا غير قصير واست اعلم ان كان عشيقها او كانت عشيقته ولكن من ترددهُ عليها في كل يوم ما يقضي بان يكون هناك امرٌ من الامور

فلما سمعت كلامهُ كدت اتميز من الغيظ كانما اعشق القهرمانة عشقًا اكيدًا وصرت اجالد نفسي عن ان يبدو اضطرابي الى الخادم كي لا يفطن لما انا به حتى اني صرت اضحك امامهُ . ولكني لما خلوت في مخدعي شتمتها ولعنتها في نفسي الف لعنة وصرت افتكر في امرين فاما ان اقلع عن عشقها اقلاعًا لا رجوع بعدهُ واما ان اقاتل هذا الجراح لاطلب بثاري منهُ . فقلت ان اقلعت عن عشقها اقلاعًا بعد مزار الحلاق فكانما جبنت وخفت منهُ ولكني اقاتلهُ وانتدبهُ الى الصراع فقمت لساعتي وقعدت لهُ بالمرصاد فلم يلبث ان جاء ودخل مخدع القهرمانة سرًا . فلبثت انتظر انصرافهُ وهو قد طالت زيارتهُ . فحنقت عليهِ ونزلت من القصر وكمنت لهُ في طريق القرية وكلما طالت زيارتهُ زدت حنقًا عليهِ وعزمًا في الوثوب عليهِ . ثم انهُ اقبل بعد غروب الشمس فقصدت نحوهُ فرايتهُ قوي البنية عليهِ اثار الشجاعة وفي خصره حربة طويلة فراعني مراهُ وصرت اتردد في انتدابهِ الى القتال لخوفي من باسهِ وقوة ساعديه . ثم اني دنوت منهُ وقال لي وهو يتعجب مني رايتك ياجلبلاس تقف لي بالمرصاد واظنك تفعل هذا مزحًا فقلت لا والله ومرادي ان امتحن شجاعتك بعد ان كلمت مولاتي سرًا الا ترى هل انت من الشجاعة ما انت من الخلاعة . فضحك وقال سبحان الله لقد

خدعتك الظواهر . فظننت عند ذلك انهُ يقول هذا ليتخلص من بطشي ويخوّمن فتكي به فازددت جراءةً عليهِ وقلت لاتظن ان انكارك ينجيك مني فقال اذن لابد من الاباحة بالسر لاكفي نفسي ونفسك الشر . فاعلم اني ادخل على مولاتك عيادةً لا زيارة وفي ظهرها اكلة مفجعة لازال اعالجها بالمراهم وهي لاتبرأ منها . فهذا صدق المقال عن حقيقة الحال وان كنت لاتزال مصرًّا على القتال فاني ابرز اليك للحال . قال هذا وجرد الحربة الطويلة ووقف وقفةً تخوفت منها وهالني مراها فاغمدت حربتي عند ذلك وقلت لهُ (وانا اظهر الخوف منهُ) الان وضحت لي الحقيقة ولست احسبك عدوًّا بعد هذا بل احتسبك محبًّا وصديقًا . ثم دنوت منهُ وصافحتهُ وعدت الى القصر مسرورًا من النجاة منهُ

ومذ ذلك الحين حقرت القهرمانة في عيني وصرت اتحامى الحديث معها واتجافى عن الجلوس اليها حتى فطنت لذلك فقالت لي ايها السيد الخولي اخبرني عما طرأ عليك في هذه الايام حتى بردت بعد ان كنت تلتهب من الغرام بنار ذات ضرام فاجبتها بجواب احاول فيهِ اخفاء الحقيقة فحنقت عليّ وقالت وهي تكاد تتميز من الغيظ لقد اكسبتك بحبي لك شرفًا لم ينلهُ احد من عظماء الاسياد . ولكن الخطا عائد عليّ اذ اني فضلت صعلوكًا مثلك على من هو اهل للجميل واحق بالنعمة منك . ثم شتمتني بكلام كان ينبغي للعاقل ان يضحك منهُ ولا يعبأ بهِ غير انها لما اطالت اللوم والتثريب بمثل هذا الفجور لم يبق في صدري موضع للصبر فقلت كفى ياهذه . لئن راى احد هولاء العظماء ما في ظهرك ليرجعن ظهرًا لبطن فما كدت اتم كلامي حتى لطمتني على وجهي لطمةً انزعجت منها فهربت من وجهها ونجوت من لطمات كثيرة كانت تساقطت عليّ لولم اسرع المفر ورحمت احمد الله لخلاصي من هذه النازلة بما اكتفت القهرمانة من الاخذ بثارها بهذه اللطمة وما يكون من سكوتها عن التخبير بي الى احد لئلا يضيع شرفها و يصبح عرضها مضغةً في الافواه . ثم مضى على ذلك نحو من خمسة عشر يومًا وقد نسيت هذه النازلة اوكدتُ واذا بخادم يعلمني انها وقعت في الفراش فرق قلبي لها وظننت انها غالبت الغرام القتّال . غير ان الامر كان على خلاف ما اظن وكانت القهرمانة تترقب فرصة لتنتقم مني وتذيقني شر الوبال

فاني لجالسٌ في بعض الايام مع دون الفونس اذ رايتهُ حزين النفس اليف الكدر والغم فقلت ما سبب كدرك في هذا اليوم فقال يسوءني وايم الله ان ارى انسًا تظلمني باصحاب لي افديهم بروحي ومالي فتعجبت من ذلك فقال لاتعجب من عقول النساء . فان القهرمانة حانقة عليك لحد انك ان لم تبارح منزلنا في قولها فهي ماثلة لامحالة . وكانت انس في بادىء الامر تعمل على ان تثنيها عن عزمها لمودتها اياك . غير انها افضت الي موافقتها على ما تريد اذ كانت هي دايتها والمربية لها في صباها وظنت انها تقتلك ظلمًا ان لم تبعدك عن دارنا . ولكني خالفتها في ذلك اذ لا تسمح نفسي بالافتراق عنك و بيني و بينها كلام في هذا الشان وهذا هو السبب الذي من اجلهِ لا تراني منشرح الصدر

فقلت لهُ يا سيدي اني كنت في موقف السعادة في هذه الدار وليس لدي الا ما يوجب المسرة و ينفي الاكدار ولكن طالعي ابى الا ان اذهب على وجهي لطلب الرزق ولذلك لا مقام لي بينكم بعد هذا المرزء فقال لاتقل هذا يا جلبلاس فانما انت لدي بمقام الصديق لا بمقام الخادم ولست آذن لك بالانصراف فقلت لم تبقيني عندك بالرغم عن زوجتك فاكون سببًا للخلاف ما بينها و بينك فقال لا باس من ذلك

ولست اخالها تخالف لي رايًا بعد الختم به فقلت ليس الى بقائي من سبيل فقال لست بآذن لك بالرحيل واقسم عليك بالايمان التي لا فسحة فيها ان لا تبارح هذه الدار فانما انت فيها بركة . فلما رايته يشدد عليّ عزيمة البقاء سكت وتظاهرت بالامتثال لامره وقد ازمعت على الانصراف سرًّا من قصره . وكان بامكاني ان انتقم من الفهرمانة وارجو دون الفونس بان يطردها من منزله غير اني اخذتني الرحمة لها وادركتني الشفقة عليها فلم اخبر بحكايتها احد اذ كان دون ذلك من الفضيحة ما لا يومن معه بقاؤها في قيد الحياة اسيّ واسنًا ولما تنفس الصبح رحلت من القصر دون ان اودع دون الفونس مخافة ان ياذن لي بالرحيل . غير اني وضعت له سجل النفقات على المائدة وفيه ترصيد الحساب الى ذلك اليوم وكتبت فيه هذا الشعر وانا على غصة من فراق اهل القصر

ابدًا تحن اليكم الارواحُ
ياسادة من ذكركم نرتاحُ

فصل

ان جلبلاس صار كاتبًا لمطران غرناطة

ولما انصرفت من منزل دون الفونس ركبت جوادًا كريمًا وكان معي نحوٌ من ثلاثمائة دينار وهي قسمتي من مال التاجر فرحت اتقلب فيها مستحلاًّ لها بعد ان عوّض صاحبها بمثلها وكنت في بادىء الامر قد اممت طليطلة لازورفيها معين الدولة . غير اني لما لم تكن لي حاجة الى مالهِ في ذلك الوقت قصدت غرناطة للتفرج عليها واجلت زيارته الى يوم اكون صفر اليدين من المال

واول من رايت في غرناطة يليان صهر معين الدولة وكان متعجبًا من قدومي الى تلك المدينة فاخبرته بحكاية الفهرمانة وانها كانت السبب الذي من اجلهِ انفصلت عن خدمة ابن عمهِ فضحك من حكايتها حتى كاد يستلقي على ظهره . ثم كلمني في التحرير لانس بشاني فرجوته بان لا يحرر لها بذلك لتصميم النية على عدم الرجوع الى ذلك القصر ولكني قلت له ان كنت تنوي ايلاءي المعروف فكلم الاسياد بي لعل احدهم يرضاني خوليًا له او كاتم اسرار عنه فوعد بذلك وقد قال انهُ يعود عمة له في هذه المدينة وانهُ يبقى عندها نحو عشرين يومًا لا يزال يكلم الاسياد حتى يجد لي وظيفة عند احدهم

فلما كان بعد ايام مضيت اليهِ فبشرني بحصولي على وظيفة لا تكون لاحد من عامة الناس . وقال ان رئيس اساقفة غرناطة وهو نسيبي وصديقي يلتمس فتىً متبحرًا في العلم صحيح الذوق في الكتابة لينسج له تآليفهُ ومواعظهُ وانها لكثيرة . واشير عليك بان تمضي اليهِ من الغد فترى من احتفالهِ اليك ما يوكد لك حسن توصيتي بك . فانشرح صدري لذلك ومضيت في صباح الغد الى دار المطران . وهي دار يضيق بي المقام دون وصف بنائها المشيد وقبابها الرفيعة والانيها الثمينة وفرشها المزوق وكثرة الصور فيها والتماثيل فانما هي قصر ليس في قصور الملوك ما يضاهيهِ حسنًا وبهاء واشراقًا . ورايت في مقاصيره وارواقهِ عالمًا من القسس والرهبان وخلقًا كثيرًا من الحرس والحاشية والغلمان فوقفت تجاه مجلس المطران واستاذنت الحاجب في الدخول عليهِ فقال وهو لا يكاد ينظر الي من الكبر والخيلاء سيمضي الجاثليق المعظم الى الكنيسة وربما اذن لك برهة يسيرة قبل ذلك . فمضيت في الرواق واردت ان اتحدث مع

الخول والغلمان فلم يجبني احدهم بكلمة قط وراحوا يحدقون بي بابصارهم من راسي الى قدمي كاني بهم يستصغرون شاني ويتعجبون كبرًا لامتزاجي في جمعهم

فوقفت في زاوية من الرواق وانا منزعج من الحند شديد الحنق عليهم واذا بباب المجلس قد فتح وخرج المطران في طائفة من الحرس عليهم الملابس من الذهب والفضة . فوقع السكوت بين الجماعة ووقفوا بحشمة وأدب لايتحركون كانما هم تماثيل موضوعة . وكان هذا الجاثليق طاعنًا في السن وقدرت ان يكون عمره سبعين سنة . وكانت بينهُ وبين خالي جلبراز مماثلة في الخلقة أُريد بها قصر القامة والتجسم الى السمن وانحسار شعر مقدم الراس . . . فلما رآني اقبل عليَّ وقال لي بتعطف ودالة ما حاجتك يافتى . فقلت انا هو الفتى الذي كلمك بي يليان فقال اهلاً بك اني اتخذك لخاصتي وقد سرني مجيئك فابقَ في داري ولا تنصرف عنها . ثم مال الى القسس ممن لم حاجة اليهِ فكلمهم ونزل الى الكنيسة مستندًا على كتفي رجلين من حرسهِ . فلما سمع الذين استصغروا شأني كلامهُ اقبلوا عليَّ واحدقوا بي وحدّقوا بوجهي يعبون الحسد وتشوقوا الى معرفة المنصب الذي اتولاه عند المطران فلم اعرفهم بهِ انتقامًا مما كان من احتقارهم اياي قبل ذلك حتى يخفضوا من غلوائهم ويخلوا بعض خيلائهم

ثم ان الاسقف دعاني اليهِ بعد القداس ليحدثني سرًا في مخدعه فعلمت انهُ يريد امتحاني وسبر غوري معارفي فلما صرت اليهِ سالني في العلم والادب مسائل اجبتهُ عنها باجوبة محكمة نالت منهُ المديح بها وصار يبارك بليان من اجل انهُ خصني بخدمتهِ واهداني اليهِ . ولم ازل بحضرتهِ الى قبيل الظهر وقد زارهُ جماعة من عظماء غرناطة يتناولون الغداء معهُ . فتركتهُ وانثنيت الى موضع الخول وقد احتفلوا بي واجلسوني الى احسن موضع من سفرهم وبينهم خلق من الرهبان والشماسة . .

وكنت جالسًا الى السفرة بجانب وصيف ما زال يحتفل بي ويكرم وفادتي حتى انست بهِ دون غيره من تلك الجماعة . فلما خلوت بهِ بعد الغداء قال ايها السيد الكريم اني ملت اليك لاول ما رايتك ولذلك وددت ان اطلعك على امور تنتفع بمعرفتها فاعلم رعاك الله انك اليوم في دار يختلط فيها الابرار والاشرار وانهُ ينبغي لك انفاق الزمان الطويل لاجل اختبارهم وتجربتهم ولذلك رايت ان اكفيك مونة التجربة اذ كنت ابن مجدتها وابتدي اليك بالكلام عن عظمة الجاثليق فاقول انهُ اسقف صالح ما برح يوجه همهُ الى تثقيف عقول الرعية وارشادها الى طريق الخير بمواعظ زاجرة واقوال حكيمة يفتخر بنفسهِ من تأليفها ويعد نفسهُ من كرآء العلماء وفصحاء الخطباء . وليس فيهِ من غير ذلك الاَّ عيبان الاول انهُ شديد القساوة على جماعة القسس والرهبان ممن لايوقرّ سلطانهُ . والاخر انهُ يضيع عنهُ خلوص خدمهِ ولا يجاز بهم حق الجزآء على اتعابهم وسهرهم مع ان منهم من خدمهُ منذ عشرين سنة ولم يحسن اليهِ بشيء من غير اجرتهِ . هذا ملخص كلام الوصيف عن المطران ثم حدثني بعد ذلك عن طائفة الرهبان بما لا اذكرهُ في هذا الكتاب . . . . فتظاهرت بالفضل والقداسة ولست بفاضل ولا بقديس

فصل
في مكانة جابلاس عند المطران وما اتفق لهُ بعد ذلك

ولما كان العصر مضيتُ الى الفندق وحملت ثيابي الى دار المطران وقيدت دابتي في اصطبلهِ

ورتبت متاعي في مقصورة مليحة نصب لي فيها بامره سرير عليه فراش من الوبر . فلما اصبحت استدعاني اليه لاجل ان اسمع له عظة طويلة اوصاني باتقان كتابتها فنسخها من دون ان اوقع فيها غلطاً على الاطلاق فاعجب بي وراح يسالني عن فصاحة اقوالها وبلاغة معانيها فقلتُ هي من ابدع ما كتب العلماء ووعظ الخطباء فسر مني لذلك وقرّبني اليه . فصرت اثني عليه وامتدح المواعظ التي بفضلها في نفسه على غيرها وهو يحتفل اليّ ويبالغ في اكرامي كثيراً حتى وقع في نفسي ان ابرجوني بان انتقد له مؤلفاته وأبين له مواضع الركاكة فيها . غير اني كنت ارفع قدره وأجل عظمته عن ان انبهه عن المواضع التي يصح عليها الانتقاد من عظاته واقول ان ليس فيها الاّ ما يخرس الخطباء ويعجز الحكماء

ثم لم يمض زمن قليل بعد ذلك حتى جعلني كاتم اسراره بما اوجب لي عظم المسرة اذ ما كان يتراءى لي في المخيلة ان احصل على هذه المرتبة عنده فكيف وقد ثبتت لي بالفعل واخذت ان اباشرها بالعمل . وكان المقصود منها فيما نطق الجاثليق اليّ ان امعن النظر في كتاباته وأصلح من عظاته ما لم يفطن له من مواضع الخطاء وركاكة الانشاء . والاّ فان رك انشاءه واخطت عظاته عن بلاغتها وجب عليه الاعتزال عن الخطابة وكان لا حاجة له اليّ بعد ذلك . فصرت اقف على عظاته واصحح مواضع الزلل فيها وأجمل الانشاء بحسن السبك وبلاغة التعبير حتى بلغت منه مكانة لم يبلغها احد قبلي من ملك او من وزير وصارت الحاشية يحسدونني على مرتبتي عنده لاذلك الوصيف الذي مرّ الكلام عليه واصبحوا يستميلون مرضاتي ويذلون لي كاني بهم ليسوا من اهل الاندلس الذين توارثوا انفة النفس عن العرب . فكنت اقضي حاجاتهم وارجو المطران في شانهم وهو لا يرد لي طلباً على الاطلاق وكان بليان قد اعتزم على السفر في تلك الايام فمضيت لاودّعه واشكر جميله فقال يسرني ان أراك منشرح الصدر منبسط الامال في مرتبتك وان للمطران عليك نعماً ظاهرة فقلت اني اشكرك لذلك ياسيدي لانك لو لم تولني مثل هذه المرتبة بعد بعادي عن دون الفونس لكنت مت اسى وكآبة فقال والله لا اخال ابن عمي الاّ ضيق الصدر بعد ارتحالك عنه ولعلّ الايام التي فرقت بينكما تجمع شملكما في اسعد الاوقات . فلما سمعت كلامه خالجت فؤادي عواطف الحب لدون الفونس حتى كنت اراني اهلاً لان انفصل عن خدمة المطران مهما عظمت امالي منها لو علمتُ بانصراف الفهرمانة من ذلك القصر الذي طابت لي فيه المعيشة وصفت الافراح . فظن بليان لما أنا بوووثب عليّ وعانقني ووعدني بان يكون وجميع اهله محسنين اليّ محتفظين بي ماخدمهم الدهر وطال لهم العمر

ولما كان بعد ذلك وقع غبطة الجاثليق في داء السكتة . فاعتزت غرناطة لذلك واسرع اليه الاطباء الرهبان بالتنقد وبادروه بالادوية الشافية حتى ابراوا سقمه باذن الله فقام من الفراش وهو ضعيف الجسم والعقل معاً ولم يلبث ان رجع الى تأليف المواعظ فخطب عظة شحنها باغلاط وبث فيها الاوهام ولفظها بالكلام الركيك حتى ضج الناس في الكنيسة لسماعها وقالوا والله هذه عظة ناطها نصيب من داء السكتة . ولما كانت مرتبتي عنده تشرط عليّ تنبيهه في ذلك وقع في نفسي ان انبهه على ركاكة هذه العظة لئلا يسبقني احد الحاسدين الى ذلك فيحرمني ما يعتزم على كتابته لي في وصيته (وهي الوصية التي ظننت انه يخصني فيها باعظم مما خصني قسيس مدينة وليد في وصيته كما مر الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب) غير اني فكرت في ان اجعل الملامة عليه خفيفة ولا اعرض

بها بالوجه الصريح حتى ابث اليه المقصود وهو لا يفطن له الا قليلاً فقلت ياعظمة الجاثليق اني ارى فن محاسن عظاتك ما لايكاد يتصور في العقل على اني احسب عظتك قبل الان افضل منها في هذا اليوم افلا ترى ذلك من نفسك . فلما سمع كلامي وضح له المقصود وعلى وجهه اصفرار فقال اذن تحسب كلامي قد انحط عن بلاغته فقلت لا اقول هذا ولكنني اقول بفضل المتقدم ومعاذ الله ان تنحط عظاتك عن بلاغتها وانما اراك تعيرك البلاغة رونق اخرمع تمادي الايام فقال انت لا تريد هذا في كلامك وانما مرادك ان لا أُولف بعد اليوم عظة فقلت قد سبقني الى ذلك ورجاي ان لا ترى عليَّ في هذا التحامل الذي حملتني عليه اذ قلت ان أُمعن النظر في عظاتك واصحح منها ما لم تفطن له من الزلل وركاكة الانشاء . فقال لا لوم عليك اذ لم تضيع فروض مرتبتك ولكن اللوم يرجع عليَّ من اجل اني اتخذت لي كاتبًا اجهل من غرّ لايفرق بين الدرّ والدُّر فانما عظة اليوم هي مثال البلاغة والفصاحة وانا فيها افصح مني في غيرها من العظات . فانصرف الآن عني ومر بالخازن وقل له ان يدفع اليك اربعين دينارًا تستعين بها على معيشتك والله اسال ان يصلحك ويوفقك ويهبك قليلاً من الذوق لتفرق بين غث القول وسمينه وفصاحة الخطيب وعيه

فصل
في رجوع جلبلاس الى عشق ليلى

قال جلبلاس فانصرفت من دار المطران غاضبًا منه ومترددًا في قبض المال الذي وهبنيه. اشفق حتى عليه فرآني الوصيف فاخبرته بما كان من النازلة فاسف لذلك وبان الكدر في وجهه واشار عليَّ بان اقبض المال وان لا اخبر احدًا بالامر لئلا يناليني السوء منه فشكرت معروفه ووعدته بان امتثل امره . ثم قال لي وهو آخر ما حدثني به . ان لي نسيبًا في مدريد يخدم دون بلشاصر من عظماء الاسياد واسمه يوسف وهو ما شئت من رجل ظرفًا ورقةً وكرم اخلاق فاذا صرت الى مدريد فاذهب اليه وولادهُ فهو حقيق بمودتك . فشكرته على ذلك مرة اخرى وودعته ومررت بالخازن فقبضت المال منه ونزلت الى السوق استدل على خان انزل فيه ريثما اركب الى معين الدولة في طليطلة . فوضعت ثيابي في ذلك الخندق ثم مضيت الى صاحب الطعام لاتغدى عنده فاذا على مائدته راهب كنت رجوت المطران في حاجته فقضاها له واعلى مرتبته . فلما رآني وهو لم يدر بنكبتي وزوال نعمة المطران عني اقبل عليَّ وصافحني وشكرني شكرًا جزيلاً على معروفي اليه وجميلي عليه وعزم عليَّ ان اسير معه بعد الغداء الى موضع يتعاطى فيه الراح ليشرب بسري ويذكر احساني اليه . ومازال على المائدة يأكل ويشرب وهو لاينفك من مواصلة المديح الذي مللت من كثرته حتى رايت ان اخره بالنازلة ظنًا بانه يرحم لي ويلوم المطران على سوء عمله ويواسفهُ على تضييعه المعروف فلما سمع كلامي ورأى ان لاحاجة له اليَّ بعد عزلي عن مرتبتي غاص في بحر الافكار واتى على ما بقي من طعامه وهو لايذكرني كلمةً واحدةً ثم قام عن المائدة وودعني بنشوفة وتصنع حتى كدت اتميز من الغيظ لنكرانه المعروف . غير اني استصغرت شانه وقلت له وهو ينصرف ياهذا لاهناك الله ابدًا بذلك الخمر الذي اردت ان تشربه على ذكر حبيبك

ثم ما كاد ينصرف ان دخل القاعة سيدان جلسا بالقرب مني واخذا يتحدثان عن اللاعبين ويذكران

رواية تشخص في اكثر الايام وهما يجمعان على الاطناب في مديحها فشوقني ذلك الى حضور تشخيصها في تلك الليلة لانهُ لم يسبق لي عهد بها اذ كان حضور التشخيص غير محلل من دار الاسقفية وموقعًا بحاضره حرمًا . فذهبت الى الملعب بعد تناول العشاء ورايتهُ غاصًّا بجماهير الرجال والنساء . وكنت اسمع الرجال من حولي ينتقدون على هذه الرواية بما يناقضون بهِ بعضهم فقلت في نفسي ان كان من المؤلفين من هو جاهل ففي اهل النقد من هو اجهل منهُ بل اجهل من باقل

فلما دار التشخيص رايت بين اللاعبات ليلى الخادمة التي عشقتها في صباي ورايت الناس يصفقون لها استحسانًا لغنائها فاذهلني مرآها في غرناطة على حين تركتها عند عزة المغنية في مدريد فبادرت جاريها بالسؤال عنها فاجابني انها تدعى استير فقلت في نفسي ما اعظم مكر هذه المحتالة فما كفى انها انتقلت من الخدمة الى الملعب حتى رأت ان تغير اسمها لتغم على الناس خبرها . ثم قلت للجار اهل لاستير هذه عاشقًا في هذه المدينة فقال نعم انهُ يعشقها مركيس ذو ثروة وينفق عليها الاموال الطائلة . فتعجبت من مكرها ودهائها وما تجرأت على سؤال الجار عن غير ذلك من امورها مخافة ان اكون عليهِ ثقيلاً . غير ان خاطري بقي مشغولاً بها متذكرًا لها حتى لو سالني سائل وانا منصرف من الملعب عما شخص اللاعبون لما عرفت ان اجيبهُ اي الروايات كانوا يشخصون . وبعد ان خلوت في مخدعي وقع في نفسي ان امضي اليها من الغد وصرت افتكر فيما يبدو منها اليَّ اهل انها تحسن وفادتي وهي في العزّ والرخاء او انها تلومني على هجراني لها وانصرافي من منزل عزة دون استذانها في ذلك ولا وداعها

فاقول والصدق منجاةٌ اني سهدت في تلك الليلة دون ان تكتحل عيني اغماضًا . فلما تنفس الصبح وثبت من الفراش واخذت في تزيين نفسي وتجملي وتطيبي ساعات طويلة حتى تنتبه من الرقاد . فسرت اليها قبيل الظهر ففتحت لي خادمتها الباب فقلت قولي لمولاتك ان رجلاً يريدها لمواجهة فدخلت واستاذنت لي فقالت ليلى بصوت ناقض من هذا الرجل الذي يريدني للمواجهة دعيهِ يدخل عليَّ . فعلمت عند ذلك اني عجلت في زيارتها ظنًا بان المركيس لا يزال بحضرتها وانها نفضت بالكلام لتظهر لهُ ان ليس بينها وبين احد من الرجال موافقة ولا ميعاد غيرانهُ لم يبق لي سبيل الى الرجوع فدخلت عليها ورأيت المركيس بحضرتها كما كنت ظننت وتلك عادتهُ من الجلوس اليها في كل صباح . فلما راتني وآنست خوفي واضطرابي ارادت ان توهم المركيس اني اخوها الاب ولام فهتفت بي اهلاً بك يا اخي لقد طالت غيبتك عني فاخبرني عن الاهل والاقارب ثم وثبت عليَّ وهي تقول للمركيس اني غبت عنها نحوًا من ثلاث سنين . فلما عرفت حيلتها عليهِ اخذت ان اخبرها عن اهلها ولا اعلم والله من هم . فقالت لي لقد ساءك انك رايتني في عداد الغانيات ولكن اعلم انهُ بعد ان تروجني دون انطون وحملني من دارنا الى مدريد تصارع مع فتىً من الاسباد كان ولهًا بي فقتلهُ فهرب الى برسلونه وركب البحر منها الى البندقية ومعهُ مالهُ ومجوهراتهِ فلم يلبث ان خدم الجندية وقتل في حرب عوان نصبها الترك على البندقية فنعيت اليَّ وفاتهُ وانا لا املك درهمًا واحدًا من المال فقلتُ ان رجعت اليكم لم ارمكم الا التعزية والسلوان وان تزوجت بغيره كنت معهُ منكودة الحظ ايضًا ولكني رايت ان احفظ شرفي ولا اسيء الادب فرحت اشخص الروايات على الملعب

فلما سمعت كلامها جاءني للضحك من حيلتها مهيولاً غالبت النفس فيهِ حتى لا يبدو الى المركيس وصرت اقول ان رأيها وقع مني بالموافقة فصدق معشوقها كلامها وسالني عن السبب الذي من اجلهِ قدمت الى

غرناطة . فجاءني ان اكذب عليه ثم غلبت عليّ المروّة فاخبرته بحقيقة الامر وما كان من بلوغي تلك المرتبة عند المطران وكيف صرفني منها فضحك من ذلك وضحكت ليلى ضحكًا كثيرًا وكان الغريب في ضحكها انها كانت تظن اني ابتدعت هذه القصة الموضوعة كما لفقت هي قصتها لتغمي على المركيس امرنا واظنها لو علمت اني نقلت صحيح الحديث لما ضحكت بقدر ذلك

ولم ازل في مجلسها اتجاذب معها اذيال المذاكرة حتى مضى الظهر فاستوفزت للقيام فقالت اني لا آذن لك بالانصراف بل بت الليلة عندي وجئني من الغد بثيابك . فقال لها المركيس وقد ساءهُ ان انزل عليها ضيفًا . رابت يا مولاتي ان اتخذ اخاك خادمًا عندي واجعل له في منزلي مقصورةً مليحةً وارتب له في الشهر عشرة دنانير ويكون له عندي المزيد ان سررت منهُ حتى اعوضهُ عن الامال التي عالل نفسهُ بها وهو في مرتبته عند المطران . فشكرت فضله واحسانه وشكرته معشوقتهُ كذلك ولم يلبث ان تركنا وانصرف الى شانهِ

فلما خلا لنا المكان قالت لي والله يكاد يخنقني الضحك ان لم ينفجر الساعة من حلقي فما امكر هذه الحيلة وما اضحك هذه الحال ثم استلقت على المقعد وضحكت باشد ما قدرت عليهِ فضحكت لضحكها ولم تلبث ان قالت لي لقد باشرت هذه الحيلة لانزلك في داري كما نزل حبك في فؤادي فكان نجاحها اعظم مما املت بان اتخذك هذا المركيس خادمًا يقربك اليهِ ويبالغ في هباتك المال . على ان في نفسي اليك عتاب لانصرافك من منزل عزة دون ان تودعني وتستاذني بالانصراف فاعتذرت اليها بلطف كثير حتى لا تتنافر منا القلوب ثم جاء الغلام وندبنا الى سفرة الطعام فاكلت معها وشربت المدام وانا اقول لها يا اختي كلما دار بيننا الكلام حتى ناخذ الغلام والقهرمانة بالاوهام ولا يدروا بما بيننا من الغرام . ولما قمت معها الى قاعة الجلوس رجتني بان احدثها بوقائعي من يوم فارقتها فاجبت دعوتها الى ذلك ثم طلبت اليها ان تحدثني بوقائعها فساقت الي الحديث الاتي

فصل

في قصة ليلى معشوقة جلبلاس

قال جلبلاس حدثتني ليلى هذه المغنية . قالت لما انصرفت من منزل عزة وقد ادركها الملال من الرجال واعياها الكلال من سهر الليال رات ان تعتزل عن الدنيا فاقامت في قصر بجوار بعض القرى البهيجة اشترتهُ بمال الزنا . وكنت امضي معها في النهار الى تلك القرية ونصرف فيها يومنا ولا نعود الى القصر الا عند جنون الليل فاتفق ان رآني ابن رئيس الشرطة في تلك القرية واعجب بي وهو بديع الحسن كانهُ افرغ في قالب الجمال فكلمني فاعجبت بهِ فرام الوصل فلم اصده فاعطاني خاتمًا من الماس فدرى ابوه بسترنا فاخذني وارسلني الى دار التوبة

فلما صرت في هذا الدير اقبلت عليّ الرئيسة ونزعت خاتمي وثيابي وخلعت عليّ قميصًا تنحدر الى الارض وجعلت في وسطي زنارًا عريضًا من الجلد الاسود وعلقت فيهِ سبحة طويلة ثم تركتني ومضت لشانها فاقبل عليّ راهبةٌ من الرهبان واخذ يحضني على التوبة بالعظات والنصوص كما كانت العجوز تحضك على الصبر في سرداب اللصوص . وكان يستحمدني رئيس الشرطة على ما اراد من رجوعي الى التوبة وانا ابتغي الى الله تعالى وانا لا ازداد في هذا الرئيس الا مقتًا لهُ وحنقًا عليهِ

وكان مقامي في هذه الدار نحوًا من عشرة ايام فاتفق اني لقيت الخولي وهو رجل سقيم الجسم ضئيل اصفر اللون كاسفهُ وفي وجههِ من سمات المكر والريغان

ما لا اظن انك رايت مثله في وجه احد من حاشية المطران فدنا مني وقال ابشري يا هذه فقد اخذتني لك رحمة . فوقع كلامه من قلبي احسن موقع لأملي بالخلاص من ذلك الضيق ولكني لم ادر في اي الاوقات تكون النجاة فتصبرت وانتظرت الفرج وتذكرت قول القائل

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعًا وعند الله منها المخرجُ

فلما كان بعد ذلك أُنبئت ان هذا الخولي يعتزم على الهرب باموال سرقها من الدير وانهُ يستخدمني واسطة لتتميم مأربهِ بان يقول للرئيسة ان رئيس الشرطة قد اوعز باخراجي اليهِ فيسيرني وهي لا تعارضهُ بانصرافهِ بالصناديق والاحمال . فوقع ذلك مني بالموافقة في سائر الوجوه اذ كنت اروم التخلص من الرق كيفما كانت الحيلة لذلك . فلبست ثياب الرجال وركبت معهُ الى بلاد البرتغال حيث لا تنالنا شرطة الاندلس فلما استقرينا في اشبونة المقام ارادني هذا الخولي على نفسي فامتنعت عليهِ لقبح وجههِ ومنظره وخبث خبره ومخبره لانهُ كان

اذا وضع العمامة كان قردًا
وخنزيرًا اذا نزع العمامة

غير انهُ لما بسط اليَّ الاموال والمجوهرات التي حملها معهُ طمعت نفسي فيها فتزوجت منهُ وصرت ارى ضعفهُ رقةً واصفراره صفاءً ومرايتهُ فضيلةً وذلك هو من صفات المال بان يجعل في نفس صاحبهِ محامد لا تكون فيهِ الا بالوهم . وكانت هذه المجوهرات مسروقة من دير التوبة لاني رايت فيما اهداني منها ذلك الخاتم الذي اعطانيهِ ابن رئيس الشرطة ثم نزعتهُ رئيسة الدير من يدي لتسلمهُ اليَّ بعد توبتي وانابتي الى الله تعالى

قلت . ولم يزل هذا الخولي يبدي اليَّ التعطف الكثير حتى رايت نفسي في اتم النعمة بالزفاف عليهِ . مع ان الامر كان على خلاف الظاهر ولم يكن ميلهُ اليَّ وحبهُ اياي الا مكرًا واياهامًا . فلما رجعت في بعض الايام من الكنيسة لم ار في المنزل الا جدرانهُ ليس غير فقدرت اذ ذاك انهُ كان يدبر امرهُ من قبل ذلك حتى هرب بما في البيت باقل من ساعة وهو لم يبق لي الا ما عليَّ من الثياب وذلك الخاتم الذي اعطانيهِ ابن رئيس الشرطة وكان في يدي والحمد لله . فاسفت لفقدان المال ولكن اسفًا سريع الزوال اذ لو لم يغالبهُ السرور للتملص من يد لص افنيت ايامي معهُ عبثًا وضياعًا لكنت مت اسفًا بعد ان فرغ الاناء وقرع الغناء . ثم اني بعت الخاتم من بعض الصياغة وركبت عربةً تحملني الى الاندلس وانا اسرع الظعن لشوق هزني الى الوطن . فكان فيها امراة تقربت بالملاطفة اليها حتى مالت اليَّ واستانست بي فلما وصلنا الى اشبيلية اضافتني في دارها وتلطفت بي وراحت تاخذني الى المتنزهات والملاعب في كل يوم . فاني لفي بعض هذه الملاعب اذ لمحت بين اللاعبات فتاة كنت اراها تجيء الى منزل عزة وراك انت تجلس اليها في بعض الايام فسرت اليها فقالت ماوراءك من الاخبار فقلت كيت وكيت واقتصصت عليها الحديث فقالت لقد انقذك الله من هذا الزوج اللعين فتعالي معنا نتشخص في الملاعب ونذهب الى البلدان الكبيرة ولست اظن ان في الدنيا من هو اجزل بسطًا وانشراحًا من الغانيات فقلت اعرف هذا ولكني لا احسن التشخيص فقالت ومن اين تاكدت ذلك قلت من عزة نفسها وقد رويت لها بيتين من الشعر فلم تسر مني فقالت لقد غرتك عزّة وخافت ان تبرعيها بالتشخيص فلم تظهر لك سرورها فقلت اتظنين ذلك فقالت نعم فاني اراك رقيقة الصوت خفيفة الحركات بما لا يجعل سبيلاً الى الظن بانك لا تحسنين التشخيص . فقلت انشدك الان ابياتًا من الشعر فان استظرفتها اعلمتني بذلك ثم انشدت الابيات واجريت معها لوازم الحركات

فسرّت مني ومالت على المقعد طرباً واخذت تحضني على مرافقة الغانيات بمقال طويل حتى نشطت لذلك وكان من حسن اقبال الناس عليّ لاول ما لعبت على الملعب ما لم يسمع بمثلهِ قط تصفيق شديد وابتسام اليّ عديد وثناء ما عليهِ من مزيد . فعظمت منزلتي عند نفسي وصار يقبل عليّ العشاق من اكثر اجيال الناس فوقع في نفسي ان اختار لي احدهم سناً واجملهم صورةً غير ان الضرورة حكمت بان اختار اوفرهم ثروةً لينفق علي من مالهِ وهو سيد من كرام الاندلس وكرمائهم فاستاجر لي داراً مليحةً وكساها بالديباج والحرير واقام لي طباخاً وخادماً وخادمةً ورتب لي ثلاثمائة دينار في كل شهر حتى اثريت وارتفعت حالي وصرت احتقر الناس واستصغر شانهم ولا الفي نظري الا على الاسياد والامراء . وكذلك سائر بنات الهوى اذا تقرب منهن الاسياد واكرموهن نسين اصلهن وطنن انهن اشرف الناس واظرف الخلق

وكان من عادة هذا السيد ان يتعشى معي كل ليلة تصحبهُ جماعة من الاسياد كنت استعد لهم واحضر بعض الغانيات ونبيت كلنا في بسط وانشراح فراقت لي هذه العيشة وانفتح لها صدري بكليتهِ غير انها كانت سريعة الزوال فان عاشقي ملّ مجالستي ومال الى فتاة اجمل مني في الصورة . فلم انزعل الا يوماً واحداً بعده وشغفت بعشق شريف من آل الوزراء يقال لهُ امير القصر وهو لقب كان لاجداده في ايام ولايتهم فبلغ العشق منا اخر مبلغهُ وتناولت منهُ مالاً جزيلاً في مدة ثلاثة اشهر ولو لم يكن يغار عليّ ويتهم بالخيانة ساحتي لما كنت افترقت عنهُ ابد الدهر لانهُ كان من ابات الحسن والجمال وليس في الاسياد من هو اسمح منهُ ببذل المال

وكان صيتي في حسن التشخيص قد ملأ الاقطار وطار بهِ الذكر كل مطار فكتب اليّ اللاعبون من غرناطة ان اوافيهم اليها واخرط في سلكهم فركبت اليهم وشخصت الروايات على ملعبهم فسر الحاضرون مني وصفقت ايديهم اعجاباً وتغامزت عيونهم استغراباً . وكان هذا المركيس عاشقاً لفتاة من الغانيات يقال لها نرجس فلما راني اعجب بي وشغف بهواي فوصلت حبالهُ وجعلتهُ ينسى ذكرها ويقلع تماماً عن عشقها وهو لا يزال كلفاً بي لهذا اليوم كما تراه

فصل
في ان جلبلاس تعرّف باللاعبين وفي انهُ اتى رجلاً يعلم بالغيب

قال جلبلاس . ولما استتمت ليلى حديثها مرت بها احدى الغانيات لتمضيا معاً الى الملعب فتركتها بعد ان عرفتني اليها ووعدتها ان اوافيها الى الملعب بعد حمل ثيابي الى منزل المركيس . فمضيت الى الفندق ودفعت الاجرة الى الخانانية واستحضرت حمالاً يحمل ثيابي الى منزل المركيس فلقيت خوليهُ عند الباب فقال الست باخ استير فقلت نعم اني هو فقال اهلاً بك ان المركيس امرني ان ابالغ في اكرامك واجاوزك الى المقصورة التي اعدها الك فمشيت معهُ وقد خطر في بالي ان اسالهُ عن اي ساعة يجتمع فيها خدمة العشاء فقال انهُ لا يشترط عليهم بان يجتمعوا بمنزلهِ في ساعة معينة فقلت في نفسي والله ان خدمتي لهذا المركيس لمن اكثر خدامات السابقة راحةً وهناءً واقلها تعباً وعناءً ثم وضعت ثيابي في الخزانة وتناولت المفتاح وركبت الى ملعب المدينة حيث كان الميعاد

فلما وصلت اليهِ وعرفت الحجاب اني اخ لاستير فتحوا اليّ الابواب وبالغوا في تعظيمي وتكريمي واحتفل الحراس بي كاحتفالهم بالاسياد والامراء . حتى اذا

دخلت موضع اللاعبين وهم قد لبسوا ملابس التشخيص هنأوني بالسلامة باشارات تحاكي اشاراتهم على الملعب واقبلوا عليَّ يقبلونني من رجال ونساء حتى صبغ خدي بلون الحمرة والبياض مما تطلي به الغانيات خدودهنَّ ثم اقبل عليَّ مدير الملعب وحوزته وجماعة الغلمان وخدم الملعب ليهنأوني بالسلامة وليروا اخ استير بتشوق وتشوف كانما كلهم ولد لقيطٌ لاعهد لهم بالاخوان

فلما دار التشخيص بقي في موضع اللاعبين جماعة قليلة منهم عرفت بينهم ذلك اللاعب الذي رايته يبلل كسرات الخبز في عين الماء فعرَّفت نفسي اليه وقلت له كيف شانك وامراتك بعد ان شكوت اليَّ سوء اقبالها عليك ومعاملتها لك فقال لقد استقامت طريقها وحسنت سيرتها وطابت سريرتها وصح ان تعد في راس الغانيات وهي التي تشخص في الدور الفلاني من الرواية . فسرَّحت عليها عين المراقبة وطال تاملي فيها فاذا هي اجمل الغانيات بعد ليلى فعرفت انها هي التي كان يعشقها المركيس قبل ان يعلق ليلاهُ ثم انتهى تشخيص الرواية فصحبت ليلى الى منزلها ثم شخصت الى الخان الذي كنت نازلاً فيه لاتناول العشاء من قبل المضي الى دار المركيس

فرايت في مجلس الطعام راهبًا طاعنًا في العمر تجللهُ السكينة وهو يتعشى في زاوية المائدة فجلست في مقابلتهِ من غير قصد فسلم عليَّ فرددت عليهِ السلام ولم يلبث ان جاء في الغلام بالطعام فرايت هذا الرهبان في خلال الاكل يحدق بي بصره تحديق المستغرب لما بين يديهِ فقلت له يا ابتاهُ اتعرفني من قبل اليوم حتى انك تتاملني لتعرفني فقال لا اعرفك يا بني ولكنني استغربت ما رايت على وجهك من دلائل التوفيق فقلت اذًا انت تعرف بالغيب يا ابتاهُ وتعبرُ للرجل منامهُ ورؤياهُ فقال يا بني اني اعرف حال الرجل من النظر الى يديهِ ووجههِ ولم يتفق اني تنبأت عن امرٍ لم يصدق فيهِ التنبي على وجههِ . فلما سمعت كلامهُ ضحكت منهُ وخلت انهُ يكون فاقد العقل ضعيف البصيرة وان كان الوقار يجللهُ . غير انهُ لم يحنق عليَّ وانما تبسم وقال لست بمستغرب منك استهزاءك بهذا العلم لان العلماء اكثرهم يكذبونهُ ويقدحون فيهِ ويظنون انهُ وهمٌ موضوع وليس كذلك . وقد اتى عليَّ في دراسة هذا العلم اربعون عامًا ولا يزال همي موجهًا الى البحث عن حقيقة المعادن وعللها وتحويلها الى الذهب الابريز ولست اظن انك لا تثق بكلامي بعد ان اصنع لك الآن معجزةً (قال هذا واخرج من جيبهِ زجاجة فيها اكسير ثم قال) هذا الخمر الذي تتعاطاهُ ما اخبثهُ واعكرهُ فان وضعت فيهِ نقطةً من هذا الاكسير تحول الى اطيب السلاف طعمًا واذكاه ريحًا واصفاهُ لونًا . ثم وضع نقطةً في كاسي فصفى لون الخمر وسطعت ريحها كانما قيل فيها

فعلت في البيت اذ مزجت
مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى سارق الظلام بها
كاهتداء السفر بالعلم

فلما شربتها وجدت ريحها ريح سفرجل وطعمها طعم سلاف دنٍّ فتعجبت لذلك ولم يبقَ في نفسي شك ولا ريب بان هذا الراهب لا يعلم بالعرافة والغيب فقلت له يا ابتاه ناشدتك الله الاَّ تعلمني بصناعة تحويل المعادن الى ذهب . فقال اياك ان تتعلم هذه الصناعة لئلا يدريك بك الملوك ويطلبونك طلبًا شديدًا للمعاقبة فتضطر الى تغيير زيك من حين الى حين كما اضطررنا الى ذلك فاكون يومًا في لباس الرهبان واخر في رقع السائلين . فاي فائدة تحصل لك اذا صنعت الذهب ثم عنك ذهب . فقلت صدقت يا ابتاه ان كنت اتعلم السيمياء وانظر في المادة التي يتم بها

كون الذهب ثم لا انتفع منهُ ولا امتع بهِ فلا حاجة لي اليهِ . غير اني ارجوك ان تطلعني على طالعي وهل يشير الى السعد ام الى النحس فقال اسبل ذراعك فسبلتها اليهِ وانا واثقٌ منهُ مومنٌ بهِ ايماناً ربما يضحك منهُ كثير من القرّاء فتطلع في وجهي ثم حدق في راحتي ولبث يفتكر قليلاً الى ان قال لله ما اسرع تحولك من الحزن الى الفرح ومن الفرح الى الحزن وما اسرع تبدّل الضيق منك بالسعة والضرّاء بالسرّاء . على ان هذا التبدل والتغير قد مضيا اليوم فلا يصيبك فيما بعد بلاء ولا يتولاك حزن . وانما تكون معظماً عند سيد يبالغ في اكرامك ويجعل لك مرتبةً ثابتةً عندهُ ان شاء الله . قال هذا وودعني وانثنى

فلما تأملت كلامهُ ظننت ان السيد الذي يبالغ في اكرامي ويجعل لي عندهُ مرتبةً ثابتةً انما هو المركيس الذي يعشق مولاتي ليلى فزادني هذا الظن تاكيداً بصحة نبوته وحتى لو لم اكن اذ ذاك في وظيفة عند احد لما كنت شككت في انهُ لا تصدق نبوتهُ بعد ما رايت من معجزات الاكسير . ثم اني شخصت من الخان الى منزل المركيس وانا مسرورٌ سرور المرأة التي تصرف من عند المنجم بعد ان تنبسط لها الآمال

فصلٌ
في حصول جلبلاس على نعمة المركيس وما طرأ عليهِ بعد ذلك

وكان المركيس في ذلك الوقت لم يعد من مزار معشوقتهِ فبتّ انتظر قدومهُ الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وانا ألعب مع غلمانهِ بالورق مقامرةً . ولما رآني منتظراً قدومهُ على طول هذا السهر تعجب من مروّتي وامرني بان لا انتظرهُ غير هذه المرة فسررت من ذلك لما لا يخفى من تخلصي من مشقة السهر في الليل الطويل وقلت ياسيدي اني انتظرتك لارى هل تريدني لامر ما فقال بلى ولكني ابلغك امري من الغد فامض الان فسرت الى مخدعي وتمددت على الفراش الوثير دون ان يأتيني النعاس فرحت اتامل فيما فعلت في ذلك اليوم تباعاً لارشاد فيثاغورس الحكيم فان كان بالخير فقد حمدت مروّتي لحسن الفعال وان كان بالشر فقد لمتُ نفسي على سوء الاعمال فورد على خاطري ما كان من موافقتي ليلى على خداعها فلمت نفسي عليهِ لاسباب كثيرة ظاهرة وتخوفت ان المركيس اذا اتصل بهِ ذلك وعرف اني شريك لهُ في عشقهِ حنق عليّ وامر بان يطلس بي في السجن غير ان هذا الخوف لم يطل ترددهُ في خاطري اذ كان من نبوة ذلك المشعوذ ما ينفي وقوعهُ حتى اذا اطلت التامل في هذه النبوة اتسعت لديّ الامال وصرت احسب المال الذي يهبنيه المركيس على طول الليال فنمت وانا أراوح بين هذه الآمال العذبة وابني منها الصروح والعوالي كما يقال في الامثال

ثم اني قمت في الصباح لادخل على سيدي ليبلغني امرهُ . فما هو الاّ ان خرجت من مخدعي حتى رايتهُ مقبلاً عليّ بقميص النوم ومعهُ كيس وصورة وقد قال لي يا جلبلاس اني وعدت اختك بالمسير اليها في هذا الصباح ولكنهُ حال دون انجاز الوعد مانع لا استطيع لهُ منعاً فامض اليها وبلغها سلامي وقل لها اني آسف لذلك واني اتعشى الليلة عندها . وخذ هذا الكيس لك وفيهِ خمسون ديناراً واحمل اليها صورتي من قبلي فاخذت الكيس وشكرت خيرهُ وتناولت الرسم وهو محاط باطار من الماس وطرت بهِ الى ليلى (وانا متعجب من صدق نبوة ذلك الرجل لاكرام سيدي اياي) فلما دخلت عليها نقلت اليها كلامهُ وسلمت اليها

رسمهُ فدهشت من مرأى الجواهر على الاطار وطاب خاطرها به وكادت الا تنظر الى الصورة وقالت ان هذه الصورة أحبّ اليّ من الاصل ورسم افضل لديّ من الحقيقة

ثم اني اخبرتها بما اهداني به المركيس مع الاقرار بانها هي السبب في ذلك فانشرح صدرها وقالت بودي ان يهبك مثل ذلك في كل يوم لانك احب الناس اليّ وقد وقع عشقك في فوادي لاوّل ما رايتك ثم لم يبرح منهُ لهذا اليوم . وفي النفس ان اتزوج بك بعد ان يكثر المال بين يديّ ويكفيني لذلك ان يعشقني سيدان او ثلاثة اسياد من غير هذا المركيس . . فشكرت مودتها ووصلت الحديث معها الى ان اقبل الظهر فركبت الى المركيس لابلغهُ سلامها واذكر لهُ سرورها من هديتهِ فلم ارهُ في منزلهِ وكان من نكد الطالع ان لا اراهُ بعد ذلك ابد الدهر كما ستراهُ

وذلك بينما كنت في الملعب اذ اقبل عليّ ذلك اللاعب (الذي رايتهُ يغمس الخبز اليابس في عين الماء) وقال لي بصوت مخفض . لقد وقعت المودة بيني وبينك ولذلك جئت اخطرك بخطرٍ يلمّ بك لاقضي فرضًا وجب عليّ من حق المودة فاقول ان نرجس زوجتي لما اذلتها استير وجعلت المركيس متجافيًا عن عشقها وغير فاطن لها كادت تتميز لذلك من الغيظ وما زالت تترقب لها الفرص وتقعد لها بالمرصاد حتى تدرك ثارها منها فكان لسوء حظك انهُ اعلمها رجل من حوزة مدير الملعب بحيلتها على المركيس وانك انت لست باخيها بل كنت خليلاً لها ايام كانت تخدم عزة في مدريد والاسم لها ليلى لا استير فعمدت زوجتي الى اخبار المركيس بذلك فان كنت اخاها حقًا فابق ولا خوف عليك والا فاني اشور عليك وانصح لك بان ترتحل عن غرناطة لئلا تكون عقبى السعاية وبالاً عليك

فلما سمعت كلامهُ كاد يخلع قلبي من الخوف فشكرتهُ لانذاره ومضيت الى منزل المركيس لاتناول ثيابي وارحل عن تلك الديار دون ان اودع ليلى مخافة ان تستبقيني عندها وتاخذ في تكذيب سعاية النامين عنّا فيطلس بي المركيس في السجن ثم تخلص هي من بطشهِ بالحيلة والمكر وتكون الدائرة قد دارت عليّ لا عليها فالتمست بغّالاً يحملني الى معين الدولة في طليطلة فدلني عليهِ بعض اهل المعروف فوضعت حمولي عندهُ ثم رجعت الى الخان لاتعشى فاكلت طعامًا نزل على معدتي كالرصاص من شدة اضطرابي وانكماشي حتى كنت كلما دخل المجلس رجال اشداء الباس فظاظ المنظر كثيرًا ما ظننت انهم يسرحون في طلبي وكنت اضطرب من مرآهم وترتعد فرائصي من الخوف

ثم مضيت الى المكاري البغال آسفًا لشؤم طالعي والنحوس فنمت عنده على التبن فتوالى عليّ الكابوس وصرتُ ارى في المنام كان جماعة يضربونني بالعصي والسياط بامر المركيس او كانهم يترامون على ليلى بالضرب والشتيمة ويخدشون وجهها الظريف المعجب فطال عليّ الليل لايذهب ونيط طرفي بالكوكب الى ان نهض البغال وركب فاقلعت عن غرناطة وقد اقلعت عن عشق ليلى ووددت ان اقلع عين هذا المشعوذ المحتال الذي هزأ بي وعلل نفسي بالآمال . غير اني لما صرت في الفضاء ذهب الغم عني وعاد اليّ السرور والنشاط تباعًا فاقبلت على البغال احدثهُ ويحدثني حتى وصلت الى طليطلة فاسرعت الشخوص الى معين الدولة فقال لي احد خدمهِ انهُ ركب بالامس الى قصر دون الفونس لعيادة ابنتهِ أنس فتكدرت لذلك وافكرت في نفسي طويلاً فرايت ان الانتظار يطول بي الى عشرين او ثلاثين يومًا فاعتزمت على المسير الى مدريد لقربي منها امثلاً

بان اتولى مرتبة رفيعة عند الملك لا يشترط في صاحبها ان يكون عالما ولا فاضلاً ثم استأجرت حصاناً وركبت اليها من تحت الليل

فصل
في وصول جلبلاس الى مدريد

ولما وصلت الى قاعدة الدولة نزلت في فندق كان ينزله كثير من الرجال واحدهم قائد من قوّاد الجيش يقال له انيبال وهو رقيق الجسم على قامة مثل قامة جالوت في الطول وهو فاقد عين ويد ورجل ولا يزال يحدّث عن ثباته في الهيجاء واقدامه على الطعان والنزال كالاسود كانما يستعوض بهذا المديح عن نصفه المفقود وكان مقصده من المجيء الى حاضرة الدولة لاجل ان يلتمس من الملك ان يرتب له معاش العزلة والتقاعد بعد ان أتلف في خدمته نصفه فرفع قصصاً متعدّدة الى القواد والوزراء والاولياء ولم تكن له منها فائدة ولم ينل بها غاية. فاشرت عليه بان اسير واياه الى الوزير الاكبر لنتهي اليه الامر واسمه الدوق فرنسيس دي لرمه فوقعت مشورتي منه بالموافقة. فلما دخلنا دارهُ اقبل عليه فتىً كان يعرفه من قبل وقال له ياسيدي ما حاجتك فقال حاجتي كذا وكذا فقال حسنٌ اني اتيك في غدٍ بالجواب ثم انثنى ولم يزد (ونحن لم نعلم ما كانت مرتبته عند الوزير) فسألت رفيقي عنه فاجابني انه كان خادماً عنده ثم انفصل عنه والحق بخدمة الوزراء. فقلت له ابشر ياصاح فان كان هذا الفتى خادماً عند الوزير فقد قضى مصلحتك وحقق بغيتك واجابك الى ما تريد

فلما كان بكرة الغد وفد عليه هذا الفتى وقال له ياخليلي عقوّا اليك عن سكوتي بالامس لاني كنت في موضع تراقبني فيه العيون فاعلم اني خادم عند خلدرون وهو نائب الوزير الاكبر وهو مكلف بعشق الملاح وله في كل ليلة مجلس عند خود رداح يعاقر معها الراح في غبوق واصطباح ولا يزال يتشوق الى رؤيتها ويرتاح فلما سرت اليها في هذا الصباح برسالة من لدنه كمثل العادة في كل يوم رجوتها بان توهمه انك عمّ لها ليشفع بك عند الملك واكابر القوم فوافقتني على ذلك املاً بان تهبها شيئاً من المال وينالها حظ من الشرف بان يكون لها عمّ مثلك من افاضل الرجال. فلما وعى كلامه ملأ من التسخط الدار ولاحت على وجهه علائم الاكدار وقال والله لا يليق بي ان اوافق على هذه الحيلة الجانية ولا ان اجعل نفسي عماً لهذه الغانية فقال ان من يلتمس نعمةً من بلاط الملك لا يبالي بالطريقة التي يستخدمها لنوال مبتغاه ولقد رايت من حيل الناس لبلوغ امانيهم ما هو اعظم من هذا وان شئت فسل صاحبك جلبلاس. فقلت نعم ان النعمة تنال بطرائق مثل هذه في دور الملوك وما زلت به حتى حملته على الموافقة بحيلة الفتى وجعلته بالرغم عنه عماً لمولاة النائب. ثم اني كتبت له قصةً يحملها الفتى الى المغنية لترفعها الى معشوقها. فما برحت تكلمه بحاجته وهي توهمه انه عمها حتى وعدها بان يخاطب الوزير فيه

فلما كان بعد ايام عاد الينا هذا الفتى وبشر رفيقي بتمام المرام وقال له ان الملك سيجلس مجلسة العام ويعطي المحاويج ويرزق الجند ويرتب للمتقاعدين وانت منهم وراتب العزلة لكل عام وقد ارسلني اليك مولاة النائب لاحمل اليها هديتك اذ كانت لا تصنع المعروف الاّ بالثمن ولو مع ابيها فما ظنك وقد صنعته مع عم لها موهوم فقال اني اعطيها ثلث راتبي في كل سنة فقال لقد اكثرت ولكنها

تلتمس منك ثلثي راتبك مرة واحدة ان تدفعه لها الان فقال من اين لي المال فقال اقترضه من بعض التجار ويكون راتبك كفالة عنده فقال افعل ذلك . فلما كان الغد رزق الملك الجند فرتب له ثلاثمئة دينار في كل سنة فاعطى ابنة اخيه (الموهومة) مائتي دينار وانقلب الى بلده فرير العين منشرح الصدر

فصل
في ان جلبلاس اتى صديقه فريس في بلاط الملك

قال جلبلاس وقد كانت جرت العادة ان امضي الى دار الملك كل يوم واصرف فيها جزءا من النهار واري الوزراء والكبراء والاعيان يقبلون ثم ينصرفون دون ان آنس فيهم تلك العظمة والابهة التي تكون لهم في غير دار الملك . فاتفق في بعض الايام وانا سابر في الرواق ان لمحت صديقي فريس واقفا يكلم اميرا من اعوان الملك وهو في ذي مليح ولباس نظيف والامير صاغ اليه مقبل عليه فتعجبت من ذلك عجبا شديدا لعلمي بانه كان خادما عند رجل من مدينة وليد فلما نهى عن الامير دنوت منه لاتأمله فاذا به قد اقبل علي وعانقني وترحب بي مليا ثم قال ما خطبك في مدريد أهل انت في مرتبة عند احد الاسياد او نزلت بك النوب من يوم هربت من مدينة وليد . فقلت ان وقائعي لكثيرة وليس في دار السلطان محل لاقتصاصها عليك فقال تعال معي الى منزلي وهو قريب من موضعنا . فسرت معه فادخلني قاعة فسيحة قد قسمها الى اربع مقاصير واحدة منها للمبايعة والثانية للجلوس والثالثة للطعام والرابعة للطبخ وجعل بين كل قسم من اقسامها ستارة مرتفعة الى السقف وهناك فرش عتيق وامتعة بالية لايكون مثلها الا في سوق الدلالين فقال لي ماذا تقول في هذه الدار فقلت ايها الدار ملجمة يسرني ان اراك منشرح الصدر منها فمن اين لك هذه السعة فقال من عمل يدي فقلت وكيف ذلك فقال اني انتظمت في سلك المؤلفين وصرت انشئ الروايات فضحكت وقلت هذا من اعجب العجب لدي فمنذ متى اخذت في انشاء الروايات فقال اعلم اني بعد انصرافك من مدينة وليد فتق لي عقلي ان أؤلف رواية مضحكة الكلام هزلية الموضوع فلما شخصها اللاعبون على الملعب وقعت من قلوب الناس موقع الاستحسان فحدثتني نفسي بالخروج الى مدريد لاتخرج في الادب على كبار العلماء . فاستأذنت سيدي بانصراف فدفع لي أجرتي ووهبني عشرين دينارا غيرها . فجئت هذه المدينة وصحبت جماعة الشعراء وتعرفت باسياد من اعيان الدولة (ولا سيما امير يقال له امير المدينة) حتى طار صيتي في الضواحي والامصار وصرت من الادب بحيث ليس من مبار يعلق لي بغبار

فهذه قصتي اليك وارجوك ان تحدثني بوقائعك والك علي مزيد الفضل والمنة . فقصصت عليه حكايتي من يوم فارقته في مدينة وليد الى ذلك اليوم فتعجب لذلك ثم كلفني الى مناولة الطعام فتقدمت معه وشربت زجاجة من النبيذ واصبت كتف شاة مشوية . ثم جالسنا الخادمة والمذاكرة فاطلعني على شذرات من كلامه في المرسل والمنظوم فقلت له والله لا استحسن شيئا من كلامك في النثر ولا في النظم فقال انت واهم يا حبيبي فقلت لا وايد الله الشاعر فقال والله لا يحسن الشعر الا اذا كان عويصا ولا النثر الا اذا تعالى عن ان تفهمه العوام ولكن انصرف عني (قال هذا وهو يذكرني بكلام المطران) ومر بالخازن وقل له ان يدفع لك قدرا من المال تنفقه لحاجتك وتسديه

اعوازك والله اسال ان ينير عقلك ويعطيك من الذكاء والفطنة ما تفرق به بين بلاغة النثر وركاكته واجادة الشعر وسخافته. . . فضحكت من كلامه ودار الحديث بيننا عن الشعراء ورواياتهم الى عصر النهار ثم نزلنا الى السوق على موضع يجتمع فيه الكتاب والشعراء واللاعبون والمغنيون فجلست اليهم معه وجعلت أراقب حركاتهم واسمع احاديثهم واذا بغلام قد اقبل عليه وقال ياسيدي دون فبريس ان مولاي (امير المدينة) يدعوك الساعة اليه لحاجة له اليك فقال له السمع والطاعة ثم ودعني وسار معه وقد تعجبت كل العجب لبلوغه هذه المنزلة عند الوزراء حتى صار يلقب (بدون) كما يلقب الشرفاء من اولاد النعيم

فصل
في ملازمة جلبلاس باب امير صقلية وانقطاعه الى خدمته

ولما كان الغد مضيت الى منزله باكرًا وهتفت به من وراء الباب السلام عليك يادون فبريس ورحمة الله وبركاته فقال بسم الله فدخلت فلما استقر بي الجلوس قال اظنك فطنت بالامس الى كلام الغلام حتى دعوتني بدون فبريس فقلت اي والله ويسرني ان اراك من اهل الخطر والشرف فقال وحيوتك لم التمس هذا اللقب حبًا بالعظمة والجلالة ولكني التمسته لأجل عن طبقة العوام والتقرب من الاسياد فاصيب من مالهم ثم قال لنتكلم الان على غير هذا الموضوع فاني تعشيت بالامس عند امير المدينة وكان عنده جماعة من الاعيان ومنهم امير صقلية جاء مدريد لمصلحة له مع (الدوق دي لرمه) وزيرنا الاكبر . فلما جلسوا للحديث تذاكروا عن العلماء وعن تعظيمهم نفسهم وعما يطرأ عليهم من الكبر والخيلاء فافاضوا في ذلك فحدثتهم بقصة المواعظ فضحكوا منها ولاموا المطران لومًا كثيرًا ثم اقبلوا عليّ يسالونني عنك فاثنيت بحضرتهم على مروتك وبالغت في وصف محامدك حتى رجاني امير صقلية بان استقدمك اليه وفي نفسه ان يجعلك كاتم سره فاني انصح لك بان تسرع الى الدخول في حوزته اذ هو من الثروة على جانب عظيم تصيب لنفسك منه ما تشاء حتى تتم فيك النبوة الفائقة ولا يصيبك فيما بعد بلاء ولا يتولاك حزن وانما تكون معظمًا عند سيد جليل يبالغ في اكرامك ويجعل لك مرتبة ثابتة عنده ان شاء الله

فقلت له ايها الخل الصادق ودُّه المشكور سعيه لقد كان في النية ان اتولى مرتبة في دار الملك . ولكنك تغالي في مدح الامير وتحضني على الدخول في خدمته حتى لاسبيل الى مراجعتك في ذلك فلم نسير اليه . فسرنا لساعتنا تلك واقبلنا على دار حفيلة البنيان مشيدة الاركان فيها عدد لايحصى بالحسبان من الحفد والخدم والغلمان وهم في انظف ثياب واحسن حال . وفي صحن الدار الامير جالس وبين يديه فرد يأنس به ويرتاح اليه فسلمنا عليه فرد علينا السلام وامرنا بالجلوس وهو لم يزل يلعب مع الفرد ويضحك منه كانه لايبالي بنا ثم رفع اليّ طرفه وقال لقد رايتُ ان اتخذك لخدمتي واعين لك ثلاثمئة دينار في السنة ويكون لك عيدي المزيد ان سررت من خدمتك . ثم هتف بخوليو والقى في اذنه كلامًا وصرفه فقال لي سانبئك بعد قليل عما اوكلك به وعليك الان بان تلحق بالخولي وهو يكرمك فيما اوصيته فتبعته الى مقصورته فاكرم وفادتي وامر غلامه بان ياتي بالخياط ليفصل لي حلة مقصبة مثل حلته . ثم جاوزني بعد ذلك الى سفرة الاكل فرايت صاحب الطعام وهو الرجل الموكل بالطباخين جالسًا بين

اربعة من اصحابه يشرب الخمر على ذكرهم ورايت الطباخين جالسين جماعة من خلائهم وهم ياكلون ويشربون فعلمت لاول ما رايت ان مال الامير مسيب للنهب والتبذير مع اني علمت شيئًا وغابت عني اشياء مما ينهب الخدم ويسرقون انفاقًا بنفاق ونفاقًا لانفاق

وبعد ان شربت من الخمر واصبت من نفيس الطعام ما فيه الكفاية مضيت الى الفندق لاحمل ثيابي منه فلما رجعت رايت الامير جالسًا الى المائدة مع فريس وجماعة من الاسياد فتركتهم ونزلت الى مجلس حاشيته فتغديت معهم ثم خلوت لنفسي في المخدع الذي أُعدّ لي فاتسع لديّ مجال التفكر وصرت اتساءل عما يوكلني به الامير من مصالحه فقلت ان كان في عزمه ان يجعلني خوليه فهذا خوليه وان كان يروم ان يوكلني بامر الطباخين فهذا صاحب طعامه . فليس من المصالح التي تطوّق اليّ الا السفارة او القيادة . وهي مرتبة اتناول منها المال واكون فيها ناعم البال . ثم اتسعت لديّ الآمال فلم أُفض بالتنجيم بها لاني كنت متيقظًا من طالعي ان يغدر بي . فاني لفي هذه الافكار اذ دخل عليّ بعض الغلمان وقال ان الامير يدعوني اليه وان الاسياد قد انصرفوا من الدار . فاخرجني قدومه من عالم الهيمان الذي كنت فيه ولم البث ان وافيت الامير فوجدته متكئًا على المقعد والسعدان بين يديه يلاعبه ويلاطفه فقال اجلس بالقرب مني واصغ سمعك فان صديقك فريس قد اثنى على مروتك وشكر اليّ خلوص طويتك حتى رايت ان انتخبك لامر لم ارَ له احدًا غيرك من الخدم وذلك ان الخولي وصاحب الطعام متوافقان على السرقة والاسراف ولا يريهما يوم الا وينتهبان مالي انتهابًا ولما لم يكن من سبيل الى طردهما من خدمتي (اذ اني لو صرفتهما والتمست غيرهما لما وجدت خوليًا ولا صاحب طعام اقل مكرًا منهما ولا ارحم منهما على المال من ان ينفق) رايت ان أُقيمك مناظرًا عليهما حتى اذا نهضت باعباء هذه المناظرة نهوضًا يسرني رفعت في صقلية مقامك واكثرت من الهبات اليك . قال هذا وصرفني من مجلسه

فلما كان العشاء واجتمعت الحاشية حول مائدته اعلن لهم انه اقامني مناظرًا عليهم فنظرت الى الخولي وصاحب الطعام فرايتهما لا يباليان بذلك ظنًا منهما باني اوافقهما على السرقة والحرام مع ان الامر كان على خلاف ذلك وكنت في صباح الغد قد انبت على سائر المقاصير واحطتُ علمًا بما فيها من الفرش والآنية والتحف وغير ذلك خوفًا من ان ينتهبا منها حاجةً ثم حذرتهما من الاسراف في النفقة ووقع في نفسي ان اوكل بالمناظرة عليهما غلامًا من غلمان المطبخ دون ان يدريا بذلك وتقدمت اليه بالوعيد ان ملق وبالوعد ان صدق فجاءني بعد ذلك وقال ياسيدي ان الخولي وصاحب الطعام يسرقان الخمر واللحم ولكل واحد منهما عشيقة يوجه اليها بنصف ما يصرف في هذا الدار كانما لاميرنا ثلاث دور ينفق فيها من ماله وحيلتهما بسرقة اللحم انهما اذا اشتراه احدهما من السوق وجه بالنصف الى دارنا ووجه بالنصف الاخر الى عشيقته وعشيقة رفيقه وما كفى بسرقة هذين الرجلين حتى رايت الطباخ ايضًا يوجه بصحاف من الطعام الى عشيقة له يقرب من موضعنا دارها . فلما استتم كلامه اعطيته بضع دراهم ونشطت من الغد الى النزول وراء صاحب الطعام دون ان يدري بي لاتحقق الخبر بنفسي فرايته قد قسم اللحم الى ثلاثة كما اخبرني الغلام فعدت الى الامير واخبرته بما رايت فانتفض عرق الغضب من بين عينيه واعتزم على طردهما من داره وهو في سورة الغضب . فلما رجع الى نفسه وتروّى في الامر صرف الخولي وحده واقامني بدلاً منه فسررت لذلك اذ كانت وظيفتي من

المناظر غير لائقة بي ولا ثابتة مثل ثبات هذه واكثر ما سررت منهُ انهُ صار يحق لي ان اكسب بالخولية من فروقات المال ما لا يحسب سرقة ولا خيانة

ولما كان صاحب الطعام كثير الحيل والمكايد وقد انقطع رجاؤهُ من سرقة اللحم راى ان يزيد كميتهُ في كل يوم ليكثر الفضلة منهُ على المائدة فيوجهها من ثم الى مولاتهِ مطبوخةً فغطنت لذلك وصرت اعين لهُ الكمية التي ينبغي ان يبتاعها في كل يوم حتى لا تبقى منها فضلة . فلما اعيتهُ الحيلة في سرقة اللحم راى ان يسرق الخمر فاتفق مع غلمان المائدة بانهُ كلما زار الامير زائر وفتحوا لهُ قناني النبيذ لا يسكبوا من كل زجاجة إلا ملء كاس واحد ثم يعودوا بها اليها وهي مملوَّة الا قليلاً . فكان يجتمع عنده بهذه الحيلة اكثر من عشرين زجاجة في كل يوم . فغطنت لذلك وتقدمت الى الخدم ان لا يرفعوا القناني الا باشارة اليهم فصار يسبني ويشتمني غيبةً ويرجو ان تزول عني نعمتي . فبلغني ذلك فصرت اضيق عليهِ في الحساب وكلما ذكر لي عن شيء ابتاعهُ نزلت الى السوق لاعرف قيمتهُ حتى لا يزيد عليَّ في ثمنهِ . وكان غلام المطبخ يذكر لي انهُ (يدعو عليَّ) ويطلب من الله ان ينزل بي نقمتهُ فما كنت أُبالي بذلك لاني رايت الله اعدل من ان يجيب دعوة سارق مثل هذا . وكان من العجب العجاب انهُ لم يهجر دار الامير مع كل ما كنت اضيق بهِ عليهِ . فكان يظهر من ذلك انهُ لا يزال يبتدع للسرقة حيلاً غير هذه لا ادري بها انا ولا الغلام

ولما اتصل بسيدي ما كنت اصنع وعلم اني اقتصدت في النفقة باكثر من ستماية دينار في بحر اربعة شهور سرَّ مني وقال هذا املي من ذكاء الخولي ان يقتصد بالنفقة علي حين تبقى عيشتي على ما هي من السعة والنعيم . ثم اتفق اني لقيت فريس في بعض الايام فاخبرتهُ بشدة التدقيق والتضييق على الخدم فقال لا تفعل هذا لئلا تنفر منك قلوبهم بل وافقهم على حيلهم ليتوفر عندك المال عاجلاً وعندي ان المقول في الامثال

مثل الرزق الذي تطلبهُ
مثل الظل الذي يمشي معك
انت لا تدركهُ مستعجلاً
واذا وليت عنهُ تبعك

ليس بصحيح وانما مثل الرزق مثل الفاجرة انت لا تدركها بالتأني واذا اقتحمتها فهي لك عاجلاً . فاستغربت كلامهُ وضحكت منهُ . فلما راى اني لست بمتبع نصيحتهُ ندم لما افلت منهُ وحاول ايهامي بانهُ قصد المزح بذلك فاشتد ضحكي منهُ كما كنت من قبل وقلت لهُ والله لن اخون الامير ولو طمعت بالدنيا وما فيها

فصل
في مرض جلبلاس
وضياع مالهِ

واتفق في خلال ذلك ان حدث في الدار حادث مهم ربما ظنهُ القارىء هزءاً مع انهُ كاد ينكب بالخدم والغلمان جملةً وذلك ان السعدان بينما كان يقفز من شباك الى شباك اذ وقع الى الارض وانكسرت رجلهُ فانصل الخبر بالامير سخط وولول كالنسوان واعتزم وهو في سورة الغضب على ان ينكب بنا . غير انهُ لما ترَوَّق من غضبهِ عدل عن ذلك واقبل علينا باللوم على اهمال الملاحظة والاغفال عن التيقظ . ثم وجه الرسل في طلب الاطباء والمجبرين والجراحين فجبروا رجل القرد وعصبوها بالمناديل ثم خفوا للانصراف وتصرفهم الا طبيباً احب ان يبقيهِ بقرب القرد ليزيد اطمئنانهُ عليهِ

اما حزن الامير وكدرهُ وما كان يلوح على وجههِ من سمات الاشجان فاعظم من ان احيطهُ بالوصف وكفى بالاشارة الى ذلك انهُ افنى الليل اكثرهُ بالتفقد لهُ والاعتناء بهِ . وكان من سوء حظنا نحن معاشر الخدم ان نقف على ارجلنا اناء الليل واطراف النهار ونخمص انفسنا وقتًا لخدمة القرد فنسعى من منزل طبيب الى منزل اخر ونركض من صيدلية الى غيرها حتى اذن الله بشفائهِ ورجع الامير الى ملاعبتهِ . فعادت الينا الراحة بعد ان انهك التعب ابداننا . قلت ان من وقف على هذه القصة لم يعجب من بعدها بما ذكر المؤرخون من ان كليغولا قيصر الروم كان كلفًا بحصان عندهُ حتى انهُ ابتنى لهُ قصرًا وجعل سائسهُ قائدًا من قواد الجيش ورام ان يجعلهُ قنصلاً يحكم بين البشر فهذا قريب مما نحن بهِ لاني اقسم ان سيدي لو تمكن من جعل قرده رئيس الشرطة لفعل وما قصر . اه

وبعد ان أثر التعب في جسمي بالغني ضرب من الحمى فندتُ بهِ الوعي مدة خمسة عشر يومًا كنت فيها بين حي وميت وكلما صلحت حالي وعادت الى العافية نكستُ من دواء الاطباء الذين كادوا يقتلونني لولا رحمة الله تعالى . فلما ثاب الي الوعي نظرتُ فاذا انا في غير مخدعي واذا بجانبي عجوز موقوفة لخدمتي فقلت يا اماهُ اني اي موضع من الدنيا انا فقالت صه يابني ان الطبيب يحظر عليك التكلم . فسكتُّ (وانا اوقر كلام الطبيب ولو كنت معافى لهزأت منهُ) ثم صرت اتساءل في نفسي عما جرى لي واذا برجلين قد دخلا عليَّ وهما يرفلان بالحرير والقطيفة والتخاريم المفضية فظننتهما سيدين من اصحاب الامير قد جاءا لعيادتي اكرامًا لخاطره فرفعت القبع عن راسي اجلالاً لهما واجهدت نفسي للجلوس على الفراش فقالت لي العجوز ثم ولا تحفل بهما فانما هما طبيب وصيدلي ليس الاَّ . فتفألت وقلت لا حول ولا قوة الاَّ

ثم ان الطبيب دنا مني وجس نبضي وحدق في وجهي فتوسم فيَّ الشفاء وامر الصيدلاني بان ياخذ ورقة ويكتب فيها الدواء ثم اقبل على مراة كانت في المخدع وليث ينظر اليها وهو يتمطى عليهِ الدواء وصار يسرح لحيتهُ وينظم شعرهُ ويأتي بحركات كنت اضحك منها مع بلوغ الالم والضعف مني . فلما فرغ من هذا النص ودعني وانصرف فاقبل عليَّ الصيدلاني وفي يده زجاجة (سقاني منها بضع جرعات ولما طعم كريه فلم تقبلها معدتي فتقيأتها) فاصابت صدره وتلوثت بها ثيابهُ فتكدر لذلك وخرج وهو غاضب عليَّ فلما كان الغد عاد اليَّ بدواء الطبيب وقد لبس حلة من الكتان حرصًا على حلة الحرير من ان تتلوث كما تلوثت بالامس ففلت ياهذا لاحاجة بي الى دوائك فقد كفاني الله شرَّ أبقراط واصحابهِ . فوضع الدواء على المائدة وخرج دون ان يرد عليَّ جوابًا فاخذت الزجاجة ورميتها من الشباك بعد انصرافهِ واقبلت على العجوز استطلع منها عن سبب وجودي في ذلك المكان فلم تجب دعوتي لاحد سببين فاما انها اشفقت عن ان تزيدني سقمًا بازاحة الستر عن سرٍّ لا يسرني واما انها رامت ان تثير غضبي بامتناعها عن الكلام لتزيد نفسي وصبًا على علاتها . غير اني لم ازل بها سائلاً لها متوسلاً اليها راجيًا منها ملحًا عليها حتى اطلعتني على حقيقة الامر واخبرتني ان سيدي قد ركب الى صقلية البحر فاستزدتها ايضاحًا فقالت « ان الامير لما مرضت عندهُ خاف ان تموت في داره فاستاجر لك هذا المخدع وامر بمن يحملك اليهِ مع صندوق ثيابك ووكلني بك وامرني بان استدعي الاطباء لافتقادك . ثم لم يلبث ان جاءهُ نبأ بالمسير الى صقلية فركب اليها منذ عشرة ايام » . فلما سمعت كلامها بلغ الحزن من قلبي حتى كاد يمزق . ولقد كنت اسمع حكيمًا

يقول ايها الانسان ان بنالك بلاء عظيم فتامل في عقلك تجد انك جلبت الشقاوة لنفسك بخطاك . فتاملت في نفسي طويلاً فلم ارَ اني كنت السبب لهذه الشقاوة التي صرت اليها اليوم

ثم اني طلبت الى العجوز ان تحضر لي الصندوق وهو غاية ما بقي لي من الدنيا فراينهُ مفضوض الختام فتنهدت اسفاً لذلك فقالت لي يابنيَّ لقد حرصت على مالك من ان يسرق كما صنت عرضي عن ان يبتذل ففتحت الصندوق فلم ارَ الحالة التي امر لي بها الامير فظننت انهُ ابقاها للخولي الذي يتولى خدمتهُ بعدي او انهُ قد سرقها احد . غير اني لم ابالِ بذلك وانما تسارعت الى كيس الدراهم فوجدت فيهِ مائة دينار وقد كان فيهِ من قبل مرضي خمسمائة دينار فصحت بالعجوز ويحك يا هذه لقد سرقت الدنانير . فقالت لا تقل هذا فان نفقة المرض تجاوز كل حساب وتقدير وهذا علمٌ بما انفقت عليك في مدة مرضك . فاخذت العلم منها وكان نحواً من عشرين صفحة بما يصحُّ ان يسمى عملاً فرايت عليهِ السرقة ظاهرة للعيان ورايت المفيد من ثمن الدجاج عشرين ديناراً مع اني لم آكل لهُ ولم اذق من المرق الا قليلاً ففلت هذا حساب ان حسبناهُ صحيحاً فليس قدره الا خمسين ديناراً فابن الدنانير الباقية فقالت ياسيدي علم الله ان صاحب الطعام لم يسلم اليَّ الا مئة وخمسين ديناراً ففلت اصاحب الطعام سلم اليك الصندوق فقالت نعم وقد قال لي ان جلبلاس مريض فاذا ادركتهُ الوفاة فاحتفلي بجنازتهِ ففي الصندوق ما يفي بنفقتها . فلما سمعت كلامها كادت تتفطر مرارتي من الندم لعلمي بان صاحب الطعام قد حاز مالي ليعوض نفسهُ عن السرقة التي ختمت ابواب حيلها عليهِ

غير اني لما رايت الندم لا يرجع لي المال لا من العجوز ولا من صاحب الطعام المحتال تسلحت بالصبر بعد ان ضاقت عليَّ الحال واسرعت الى ابعاد العجوز لان رؤيتها كانت تثير شجني وتذكي حزني فيظهر انها سارت فوراً الى الصيدلي وخوفتهُ هربي من المدينة دون ان ادفع لهُ ثمن ادويتهِ لاني عرفت ذلك من قدومهِ عليَّ بعد انصرافها وهو يخنق صدرهُ من الركض ويتنهد دراكاً . فلما جلس اخرج العلم بما باعنيه وانا فاقد الوعي من الادوية التي لم افهم اسمائها مع اني كنت طبيباً كما علمت فلما وقفت عليهِ رايت الكذب والزور محشواً في خلال السطور فدفعت اليهِ نصف ما يطلبهُ مني بعد الغصص وعصب الريق فلم يرضَ بذلك ابتداءً وصار يقوم ويقعد . غير انهُ لما خاف ان يدع هذا النصف ثم يعود من الغد ليطلب الكل فلا يجدني في المدينة فرضي بما دفعت اليهِ وهو يبلغ ما يساوي ادويتهُ اضعافاً . ثم ما كاد ينصرف ان دخل الطبيب بعدهُ وفي يده علمٌ بعياداتهِ فدفعت اليهِ نصف ما يطلبهُ مني فلم يتردد في القبول كانما هو قد اكثر الفيد حتى يصل من الدفع الى ما يستحق لهُ بل الى اكثر منهُ فلما استقر بهِ الجلوس اخذ يثني على نفسهِ ويسهب شفائي الى دوائهِ حتى كادت تزهق روحي منهُ . وكنت بعد انصرافهِ قد ظننت باني خلصت من وزراء عز رائيل مع ان الامر كان على خلاف ذلك فما هو الا ان خرج حتى وفد حجام لم يسبق لي بهِ عهدٌ ولم تثبتهُ لديَّ معرفةٌ ففلت انا لله . هولاء رجال عز رائيل لم يتمكنوا من قبض روحي فعمدوا الى سلب مالي فلا حول ولا قوة الا بالله فلما جلس قال لقد فصدتك مرتين وطهرت دمك المفسود فلم تلبث العافية ان رجعت اليك باذن الله فاعطيتهُ ديناراً ثم صرفتهُ ونظرت في الكيس فاذا بهِ قد فرغ من المال فاسفت لذلك وكدت اتمزق من اليأس الذي كان لحسن حظي سريع الزوال وذلك لما خلوت لنفسي وتذكرت الشدائد التي نزلت بي وانهُ كلما المَّ بي بلاء خرجت

منة الى اليسر والسعة رايت ان حالتي من العسر سيعقبها اليسر الذي يطيب لي بعد مرارة الشقاء اذ بعد طول السهر يطيب الاغفاء و بعد العناء تلذ الدعة والهناء

الجزء الثامن

فصل
في دخول جلبلاس في حوزة الوزير

ولما طالت عليّ غيبة صاحبي فبريس حملت نفسي اليه لاشكو اليه ضيق ذات يدي وغدر امير صقلية بي وقد قيل

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة
يواسيك او يسلوك او يتوجع

فلم اجده في منزله وانما سمعت من الجيران انه مضى بتجول في الاندلس في خدمة (امير المدينة) فانقبضت لذلك ومضيت في السوق وانا مدمن التامل متردد التفكر فورد على خاطري ذكر وصيف المطران وفطنت لوعده اياه باني اذا صرت الى مدريد زرت نسيبه يوسف ذلك الفتى الذي ذكر عنه انه ظريف المعشر فوقع في نفسي ان ازوره في ذلك اليوم وما كان الا ان سالت الناس عن موضعه حتى سرت اليه فاستاذنت الحاجب في الدخول عليه فاذن لي فلما دخلت سلمت عليه وعرفت بنفسي اليه فرد عليّ السلام ولكنه لم يحتفل بي ولا احسن التحية اليّ فجمدت حيرة من سوء اقباله عليّ واستغربت كلام الوصيف عنه بانه كريم الخلق ظريف المعشر. فخفقت للانصراف من مجلسه وفي النفس ان لا اعود اليه من بعد فاني لمستوفز للقيام اذ رايته قد ذكر شيئًا في نفسه ونشط للحديث وقال وهو مملوء فرحًا وسرورًا عفوًا ياسيدي على ما صدر اليك عني لاني الان فطنت لك وذكرت انك اوصاني بك عمي فيما كتب اليّ منذ اربعة اشهر ثم وثب عليّ وعانقني عناق الاخوان وقال لقد جاءني من عمي ان اكرم وفادتك اذ كنت خير الشبان فيما كتب اليّ واصدقهم مودةً واطيبهم سريرةً واحذقهم فهمًا وذكاء فلك مني صداقتي ولي منك صداقتك ان ازللت بها الي . فلما رايت ذلك منه اقبلت عليه بجميل الكلام وشكرت رقته ومعروفه وانبسطت معه بالحديث حتى وقعت المودة بيننا فاطلعته على حالتي من العسر وكيف حل بي البلاء فرق لشكواي اليه ووعدني بان يسعى في تدبير مصلحة اتناول منها المال . ثم انه رجاني بان اجيء اليه كل يوم لاتناول معه الطعام فلم اتردد في قبول دعوته اذ كنت افتقر بعد هذا المرض الى اكل الدجاج والمرق والمقويات مما لا طاقة لي على مشتراه من السوق . فكنت اجيء اليه وآنس منه حسن المعاملة والتعطف الكثير . وكان يظهر لي انه كان ينفق عليّ من مال سيده دون بشاصر لاني رايته في انفاق ووفاق مع الخولي واقول (وحق المودة على جانب) ان من هذا الاتفاق لغنيّ عن تطويل الكلام في هذا الموضوع

فلما جئت اليه في بعض الايام بشرني بنوال المرام وقال لتعلم ان للدوق دي لرمة الوزير الاكبر ناظرين احدهما نائب سياسي يقال له خلدرون والاخر خولي على الارزاق يقال له الناظر ولكلاهما حاشية كثيرة الحرس والحفد والغلمان والاعوان والكتاب . فكان من سعد الطالع ان الناظر صرف اليوم صيرفيه وهو الرجل الموكل بضياع الوزير وجباية الاموال منها فمضيت اليه ورجوته بان يوليك مكانه فاجابني الى ذلك وقد اشرت اليه بانني امضي بك اليوم اليه . فقلت ياسيدي لك عليّ امرة مطاعة وقد علاني من معروفك ما يثقلني حملانه . ثم لم تلبث ان سرنا الى

الناظر فاكرمني وطوق اليّ امر الصيرفية والجباية . فركبت من الغد الى ضياع الوزير ومعي نفرٌ من الغلمان يخدمونني . وكان من الشروط المفروضة عليّ ان اقدم للناظر عملاً بما يصل اليّ وما انفقه من المال في كل شهر وكان هو يدقق النظر في ذلك العمل كانما لم يغن ثناء يوسف على مروتي وعفتي شيئًا عنده . على ان تدقيق الحساب لم يكن منكيًا عليّ اذ كنت مصيبًا على التشبث بالامانة ولو لم أكافئ عنها بالخير من امير صقلية كما مرّ قبيل هذا

فلما كنت في دار الوزير في بعض الايام جاءنا نباء يشير الى وقوع الحريق في دار له في بعض ضياعه فركبت الى تلك الدار لانظر في الامر واخذت ادقق في البحث حتى توصلت الى معرفة الحقيقة فكتبتها في تقرير كبير وقت انشائه ولغته وقدمته الى الناظر فلما وقف عليه طرحه بين يدي الوزير فقرأه فاستغرب فصاحته ودقق النظر فيه مع بلوغ الغرض منه وكان من ارتياحه الى فصاحة كلامه وبلاغة انشائه ان سأل الناظر عن منشئه فذكر لي الناظر اليه واثنى على همتي ومروءتي حتى اذا كان بعد ستة اشهر من ذلك الوقت فطن الوزير لي من جراء حادث لولاه ما كنت حصلت على مرتبتي في الدولة وهذا هو تفصيل ذلك الحادث

كان في الحضرة في تلك الايام عجوز اتى عليها خمس وسبعون سنة من العمر ولم يكن لها نسب معروف بين الناس فمن قائل انها بنت وزير ومن قائل انها بنت عوّاد ومن ذاهب في النسب الى غير ذلك على انه كان لها مجلس ما برح منذ صباها الى ذلك اليوم مجمعًا للاسياد ومحطًا لرحال العظماء يتقاطرون من كل وجه الى منادمتها ومجالستها وكان الغريب من امرها ان السنين لم تمحُ جمالها بل كأن الايام كانت تعيرها كثيرا من محاسن الدلال والكمال . فاتفق ان كان يحضر مجلسها كاتب الوزير وهو شاب جميل الصورة طلق المحيا ما بين خمس وست وعشرين من العمر يقال له دون فلير فمال اليها قلبه وبلغ الغرام منه مبلغًا لم يرَ في العاشقين الا قليلا . . . غير انها تدلّلت عليه لغاية لم يدرك لها سرًا الى انقضاء امد طويل حتى رأت في بعض الايام ان تذكر له سببًا يثنيها عن مجالسته ومنادمته فقالت له يا بنيّ لقد اتى عليّ في هذا اليوم خمسٌ وسبعون عامًا وتروم بعد انقضاء هذا الامد ان الى دعوة العشاق فارجع عن غيك واقلع عن هذا العشق الذي يعيبني ويعيبك واياك ان تعود الى الحاحك فيما بعد فلما سمع كلامها وهو بعيد عن الرشد لبلوغ الغرام منه قال لله ما اشدك جفاء وصدودا وابعدك رحمة على العاشقين . انظنين انك تخدعيني بهذه الحيلة وتوهميني ان كلامك لحق . لا وحياتك اني لا ازداد الا حبًا لك وهيامًا في محاسنك فقالت من حيث انك لا تزل مصرًا على مقاومتي ولا ترعوي في نفسك فاني آمرة حاجبي بان لا يأذن لك بالدخول عليّ بعد الان

قالت هذا وهي تظن انه يرعوي في نفسه بعد هذا الوعيد مع ان الامر كان على خلاف ذلك لان العشق قد يفعل بالعاشق الولهان ما تفعل الخمرة بالسكران فلما جلس اليها بعد ذلك اعاد اليها الطلب فصدته ودفعته بحد الغضب وقالت قف ايها الجسور واكبح عنان غوايتك واعلم باني امك وانك ابني فلما وعى كلامها ادركته الذهول برهة ثم فكر فيه فظنه حيلة منها فقال استتبعلين مثل هذه الحيلة لتصرمي حبالي وانا اتميل هواك مغرم بك فقالت لا يا بنيّ وانما تحوجني الى اباحة سر كنت اود ان لا تعلم به . فاليك . اني واليت اباك منذ سبع وعشرين سنة وكان واليًا على سفوفية ثم جئت انت بعد هذا الولاء . فاحتفظت بك الى ان نشأت ثم سلمتك الى

مؤدب تخرج عليه في الفقه والمنطق لتكون اهلا لمنصب رفيع في الدولة كما كان منصب ابيك من قبلك . فلما كبرت واريت عن عرفك هذا السر ودعوتك الى مجلسي لالطف خلقك واسترق طباعك واعلمك المؤانسة التي لاتكتسب الا من النساء حتى تكون محبوبا من الامراء والملوك ومعظما في عيون الناس فهذا هو السر . فان رجعت عن غيك فاني لك امٌّ شفيقة وان غلب عليك الجهل فانصرف عني وارحني من رويتك ولا تعد الي بعد اليوم

وبينما كانت تتكلم بذلك الكلام اذ وجم دون فابر برهة وهو لايبدي حركة فظنت انه يرجع عن غيه بعد رجوع العقل اليه مع ان الامر كان على غير ما تظن وانما كان وجومه للتامل في امر لم يسمع بمثله قط حتى اذا تمكن منه اليأس لانقطاع رجائه من بلوغ اربه تناول مدية وطعن بها صدره فوقع على الارض يختبط بدمه ومات بين ياسه وندمه . فشبهه الناس باديب ذلك البطل المذكور في الاساطير ليس الفرق بينهما الا ان اديب فقأ عينيه ندما على اقتراف الاثم مع ان دون فابر انما قتل نفسه من حيث انه لم يتمكن من اقترافه

ولما قتل هذا الشاب نفسه ولم يبق احدٌ على كتابة الوزير فطن اذذاك لي وذكر التقرير الذي وصفت فيه الحريق الذي وقع في داره فاقامني بدلا منه وارثني مقامه ومرتبته والله يرث الارض ومن عليها

فصل

في ات جلبلاس كتب لوزير الدولة

وكان الناظر هو المبشر لي بارتقائي الى هذا المنصب الرفيع فقال ياجلبلاس كاني ارى طريق السعادة قد مهدت لك وكاني بك ان تبلغها الا بامرين الاول ان تخدم الوزير بمروة يتاكد منها خلوصك والثاني ان تتزلف الى نائبه خلدرون حتى لاتمر بك ساعة الا وانت مغتنمها لاستمالة مرضاته . فان فعلت ذلك فقد بلغت من المجد اسمى درجة فقلت ياسيدي ارجوك ان تخبرني عن حال هذا النائب فقد طالما سمعت ذمّا به وقدحا فيه وتنوركا عليه وسخرا منه ولكني لا اعبأ بكلام العوام اذ لا علم لهم بكبراء الانام فقال لقد سالتني سؤالا يتعذر علي الجواب عنه الى احد غيرك ولكني من حيث اودك واروم خيرك فاخبرك بصفات النائب لتتخذ لك طريقة في السلوك معه فاعلم انه عنيدٌ متكبر شامخ بانفه لايعتبر الناس الا قليلا وانه كان في بادي امره خادما عند الوزير من قبل ان تصير اليه الوزارة فلما عهدت اليه اقامة نائبا عنه وامر بان تكون لكلمته نفاذ في سائر المملكة فصار يولي الولاة ويعزل العمال وصار اليه الامر والنهي في سائر الاعمال وقد سمعت الناس يقدحون فيه ويشيرون اليه غير اني مارايته مباليا بحديثهم اذ كان همه ان ياخذ الرشوة ممن يقضي له حاجته او يكتب له بولاية من الولايات . فهذا ملخص سيرته واجهد بان تخضع له وتستميل مرضاته اكثر مما تستميل مرضاة الوزير نفسه فقلت نعم يا سيدي هذا اهون ما يكون وعندي ان من عرف طباع سيده ثم لم يعمل بما يستميل اليه رضاه فهو اجهل الناس واحمقهم

وبعد ان استوفيت من الناظر ما يستحق لي من اجرتي سار بي الى مجلس الوزير وقد غص باهله وشرق بحفله فرايت فيه من الناس اكثر مما يكون في مجلس الملك وهناك جماعة من الاسياد يلتمسون لانفسهم مراتب السيف ومراتب القلم وجماعة من الرهبان يلتمسون المطرنة لهم وجماعة من القواد وامراء الجيش يلتمسون

رواتب التقاعد وغير ذلك وكان الوزير محسنًا وفادتهم على حين لا يجيب ملتمسهم فكانت سياسته ان يقبل القصص التي ترفع اليه بوجه طلق وان لم يوقع عليها بالقبول الا قليلاً

فلما انفض الجميع من حضرته قال له الناظر ياسيدي هذا هو جلبلاس الذي اقمته خلفًا لدون فليز فنظر اليَّ وقال لي بتعطف كثير اني كنت اهلاً لان احصل على هذه المرتبة عنده بما له لي من حسن الظن ثم دخل لي مخدعه ليخبرني ويتحقق مذهبي فسألني عن سيرتي وان اخبره اي الرجال انا وامرني بان اصدق في المقال فتحيرت بين امرين وقلت ان كذبت فقد اوبقني الكذب وان صدقت فقد اذللت نفسي بذكر الحوادث التي تغير ظنه بي ولكني اذكر الحقائق وازوق الكلام ولا اذكر عن نفسي الاَّ التلميح في الحوادث التي اسأت فيها التصرف او وافقت المكّارين على حيلهم فذكرت ذلك فغطن الوزير له وقال والله لقد كنت خديعةً ياجلبلاس فخجلت من كلامه وقلت لقد امرتني بالصدق فصدقت فقال علم الله اني يسرني صدقك في المقال ويسرني اكثر منه انك لم يفسد ضميرك من العشرة المردية مع ان قرين السوء لاضر من السم الناقع . وظني بجماعة من الادباء انهم اذا اصحبوا المكارين مثلك فسدت ضمائرهم وخبثت انفسهم وما نجوا مثلك من المهالك التي حاقت بك . ولكن لندع الان ما فات ولتعلم بانك موقوف لخدمة الملك ويكون عملك ما اعلمك به الان

قال هذا ودخل لي مكتبًا وراء مخدعه وقال وهو يشير الى سجلات موضوعة على المائدة هذه قاموس فيها انساب الاسياد تذكر في نسب كل سيد ما سبق له ولاجداده في خدمة الدولة من المليح والقبيح لنرى عندما يطلب هبةً من الملك او مرتبة من المراتب هل يكون اهلاً لها بما تقدم من حسن سلوكه وسلوك اجداده من قبله . وهذه السجلات يقرأها الملك في بعض الاوقات ويجب ان تكون بلغة قريبة الى الفهم واضحة العبارة بليغة السبك . ولي في اقاليم الدولة واطرافها رجال ورهبان يكتبون لي عن الاسياد فاذا وردت كتبهم بمكانها من ركاكة الانشاء وملل التطويل فانقل ملخصها الى هذه السجلات باوجز عبارة وابلغها وبذلك تكون قضيت فرضًا وجب عليك من خدمة الملك . قال هذا واخرج من الدرج كتابًا جاءه من بعض الرهبان وخلاصة ما فيه طعن على بعض الامراء فسلمني اياه وانصرف عني ليرى كيف اثبته في السجل فرايته سقيم الانشاء ورايت الراهب قد بالغ في الطعن على ذلك الامير بوجه غير حق فترددت في نقل كتابه الى السجل لئلا اكون مشتركًا معه في النميمة غير اني لما تذكرت وصية الوزير بالمروة والخلوص وتذكرت قول المثل الذي لا يدع على الناقل من سجل استلخصته على غصص من قلبي وصحت لغته واذا بالوزير قد عاد اليَّ وقال اني اتشوق الى الوقوف على ما نقلت لاعلم كيف يكون ماخذك في هذه المرتبة التي خُوِّلتَ اليك ثم نظر في السجل وتمعن في تلاوة ما كتبت فسر لذلك واخذ العجب منه وقال لقد ظننت بك ما وجدت فيك اكثر منه وقد حقق الخبر الخبر ويسرني ان يكون لديه كاتب بليغ مثلك . ثم ما كاد يتم كلامه ان دخل عليه ابن اخيه وقال له الكنت دسه ليمس فاعرض عني واقبل عليه وقبله وراح يحدثه بشان مسالة سأتي على خبرها فيما بعد وهي مسالة كانت مهمة اكثر من امور الدولة كلها

فانهما لتجاذبان اطراف المذاكرة اذ قرع الناقوس المشير الى انتصاف النهار والاذن لاهل الديوان بالانصراف لمناولة الغداء فتركت السجل وخرجت الى

اعظم الحوانيت التي يصنع فيها الطعام لان الخانات الصغيرة ما رايتها تليق بي على مكانتي من الوزير بعد ان قال لي اني موقوف لخدمة الملك ولذلك ما رايت الدنيا تسعني بعد ذلك حتى صدق فيّ قول الحكيم العربي « يا ابن آدم اصلك من صاصال كالفخار وفيك مالا يسعك من التيه والفخار »

فصل
في تقرب جلبلاس من الوزير

ولما دخلت الحانوت اعلمت الغلام اني كاتب الوزير ايرفع مقامي عن العوام فجاءني بالوان نفيسة من الطعام اصبت منها ما فيه الكفاية ثم دفعت له الاجرة ووهبته درهماً فوق ذلك وانصرفت مخرجاً صدري الى الامام كالرجل المنشرح الصدر لما يتوالى عليه من الانعام وقصدت فندقاً عظيماً تنزل فيه الاسياد واستاجرت فيه بضع مقاصير مفروشة بالدمقس والحرير ودفعت الاجرة عن شهر سلفاً وامرت بان تحمل اليه ثيابي ثم عدت الى الديوان واخذت في مباشرة وظيفتي الى عصر النهار وكان بجانب مكتبي مكتب آخر يجلس فيه ناسخان للوزير فتعرفت منهما وخرجت معهما من الديوان الى حانوت صاحب الطعام لاعشيهما معي واشرب المدامة على ذكرها فما هو الا ان جلسنا في ذلك الحانوت حتى دار بيننا الحديث فاخذا يشكوان اليّ سوء معاملة الوزير لهما فقال الواحد انه لم يدفع الخازن راتبه منذ خمسة شهور وقال الاخر بودي ان اضرب عشرين سوطاً ثم يؤذن لي بترك منصبي في الديوان لاني لو تركته بلا اذن الوزير لخاف بان اخبر بما نسخت من الرسائل فارسلني الى سجن الظلمات فقلت لهما ولكن من اين تنفقان على معاشكما على حين لا يدفع الخازن راتبيكما فقال لقد هدانا الله الى امراة نزلنا في فندقها واشترطنا على نفوسنا ان ندفع لها اجرتها في اخر السنة فمن اليوم الى حلول الاجل فرج ورحمة كما يقال في كلام الناس . فلما سمعت شكواهما خفضت عني الخيلاء وتلاشت عن مخيلتي تلك الامال التي عللت نفسي بها علماً بانه سيصير بي مثل ما صار بهما وصرت اندم على ضياع المال الذي انفقته في ذلك اليوم جهلاً وحمقاً حتى اني عدلت عن شرب المدامة مع هذين الناسخين اقتصاداً في النفقة وابتدرت القيام عن المائدة وحاسبت صاحب الحانوت حساباً كاد يفضي الى الخصام من اجل بارة واحدة ضمها من غير حق الى ما يطلب مني مع انه كان في نفسه ان احاسبه على الزيادة مثلما حاسبته في النهار . فلما صرت الى المقاصير التي دفعت اجرتها عن شهر سلفاً نظرت اليها بعين آسفة حزينة وندمت على ضياع مالي في استئجارها وفي نفسي ان اخرج منها عند استيفاء الايام المأجورة . ثم اني تمددت على الفراش فلم يأتني النعاس ولم يكن الذنب في ذلك على الفراش لانه كان وثيراً ليناً . فبت الليل كله متسهداً سهران وانا افكر في امري الى ان وقع في نفسي ان استميل النائب اليّ كما اوصاني الناظر كي تصلح حالي ويصل اليّ الراتب في اوقاته

فلما كان الغد قصدت مكتبه وهو بجانب مكتب الوزير فقلت للحاجب ان يقول له ان خلف دون فلير بالباب يستأذن عليه فقال له ذلك فلم ياذن لي بالدخول عليه الا بعد حين فتحققت من ذلك صدق كلام الناظر من انه لا يعتبر الناس ولما دخلت عليه كنت احشم مني في دخولي على المطران وامير صقلية والوزير نفسه لاني اذكراني انحنيت الى الارض وتوسلت اليه بكلام لا افطن اليوم له الا وتعلو وجهي حمرة الخجل حتى اذا استوعدته بتوفية حقي من الراتب

واذلال نعمته اليّ عدت الى الديوان واتممت النقل الذي امرني الوزير بايجازه . فسر الوزير مني لذلك وامرني بان انسخ سائر الكتب الموضوعة في الدرج وكان يتعطف عليّ ويحادثني كانه رجلٌ من عامة الناس فللهِ ثم لله ما احلم السيد واظلم مولاه

وكان اعتمادي بعد طول التفكر ان اخدم الدولة ثلاثة شهور اذ كان لديّ من المال ما يقوم بمعيشتي الى انقضائها اللهم ان لا انفقهُ الا في الحاجة الضرورية وان لا اكل الا في فنادق العامة وقلتُ اذا لم يأتني في بحر هذه الشهور شيءٌ من الوزير فاني استقيل من مرتبتي واسعى في طلب وظيفة اتناول منها المال . وبقيت على ذلك نحوًا من شهرين وانا استميل الناظر اليّ وهو لا يبالي بي حتى انصرفت عن تمليقهِ وعولت على التقرب من الوزير والاستفادة من محادثتهِ لي في وقت الشغل حتى قال لي ذات يوم ياجليلاس اني رايت لك من المناقب واحراز الفضائل والاحتواء على المروة وكتمانك لسر غيرك ما حملني على مكاشفتك بما في نفسي . فلما سمعت كلامهُ كاد يطير قلبي من الفرح فجثوت بين قدميهِ على الارض ولثمت يدًا اسبلها لينهضني من جثوتي وابديت اليهِ الشكر ما استطعت الى الكلام سبيلاً ثم قلت ياسيدي ان نعمتك لسوف تجعل لي بين الورى حسادًا كثيرين واضرهم لي نائبك خلدون فقال لا تظن هذا انما خلدون يتسيّر بسيرتي ويحب ما احب ويكره ما اكرهُ ولا ندحة لهُ في مقتك بعد ان يراني مرتاحًا الى مرونك مقربًا لك من بين الكتاب . ولكن اعلم اني ادبر امرًا اريد ان اطلعك عليهِ فاعلم اني نافذ الكلمة مطاع الامر منذ سنين وان لي الامر والنهي في المملكة كانما انا سلطانها على ان اليوم قد كثر عليّ الاعداء فقصدت ان اجعل الوزارة في اهل بيتي ورايت ان اصيرها من بعدي الى ابن اخي ليمس (وهو يخدم ابن الملك ويكتب لهُ) وانزعها من يد ولدي لاني علمت من اصح المصادر انهُ ثائر عليّ وواشٍ بي لدى السلطان وحتى لو لم يكن لي عدوًّا لما كنت رايتهُ اهلاً للوزارة وهو بمكانهِ من ضعف البصيرة وخمول الهمة وقلة الخبرة بامور الملك والسياسة . ولقد يذكي حزني ما ارى الملك عليهِ من الميل اليهِ بما تاخذني لهُ غيرة لاني رايت نعمة السلطان اشبه بالمرأة الحسناء . من حظي بها من الناس لم يجب ان يشاركهُ بها احد غيرهُ . ولقد كان من عملي فيما مضى من هذه الايام ان افنيت الحيل لان اجعل الملك يعرض عنهُ فلم ابلغ من تلك الحيل غايةً . فعمدت اليوم الى حيلة اخرى اقل ما فيها ان ابث العداوة والضغينة بين ابني وابن اخي حتى اذا تخاصما وضعف بالقتال حزبهما رجعا كلاهما اليّ وصار لي الامر عليهما وقد انتخبتك لهذا الامر واسطةً بان تمضي الى ابن اخي في كل يوم وتاتيني بما لديهِ من الاخبار سرًّا لا تخبر بهِ احدًا واياك . فلما وعيت كلامهُ كاد يذهب عقلي من الفرح وظننت ان اكون تحت ميزاب يهطل منهُ عليّ غيث الذهب والخيرات بعد ان صرت كاتم سر الوزير ولذلك صرت اصرف بقية المال الذي كان معي وانا لا ابالي بانفاقهِ على الاطلاق

فصلٌ

في بلوغ جليلاس ذروة المجد مع وجوده في حضيض الفقر

وكان الوزير بعد ذلك يبالغ في اكرامي امام الناس ويريد ان يعظم قدري في اعينهم فصرت ارافقهُ الى مجلس الوزراء واحمل لهُ اوراقهُ ورسائلهُ واذهب بخدمتهِ الى دار الملك في كل يوم فلما راى اهل البلاد ذلك تسارعوا الى الحفاوة بي وصاروا

يوقرونني ويكرمونني ورايت الناسخين يستميلان رضاي ويتزلفان الي حتى كانفاني الى مناولة الطعام معهما لاكون راضيًا عنهما . وكان خلدرون نفسه يحتفل بي ولا سيما امام الوزير ليظهر له انه يحب من يحبه ويقربه اليه مع انه كان في الباطن غير محب لي والله اعلم

وكان من عادة الوزير ان يمضي الى دار الملك ثلاث مرات في النهار اولها في الصباح والملك اذ ذاك في فراشه فيجثو على ركبتيه ويتكي على طرف السرير ويتذاكر معه في امور السياسة ويعلمه ما يقوله في مجلسه العام ثم ينصرف عنه ويعود اليه بعد مناولة الطعام ويحدثه بالاخبار المضحكة والاقاصيص المطربة وما يحدث في الحضرة من النوادر والطرائف فيضحك الملك منها ثم ينصرف ويعود اليه في المساء ويطلعه على ما فعل في ذلك اليوم (والقول له كما يريد) ويسأله عما يعتمد على صنعه من الغد كذلك كانت عادة الوزير في كل يوم وكنت اذا رافقته في بعض هذه الزيارات جلست انتظره في قاعة كان يدخلها جماعة من الامراء يعظمونني ويجلونني كاني صرت من عظماء الدولة

وكان الوزير في بعض الايام قد اثنى عليّ بحضرة الملك وذكر له اني بليغ الانشاء متوقد الذكاء فطلب الملك منه ان يطلعه على شيء من نظمي مما اجدت به فامرني الوزير بان احمل السجل الذي استخلصت فيه كتاب الراهب وسار بي الى مجلس الملك فلما رايت الملك جالسًا على عرشه وهو في بهاء واشراق اخذني الروع من جلالة الملك وبهجة العرش فاضطربت لذلك وكاد ألا ياتيني الكلام غير اني اجهدت نفسي في تلاوة ما كتبت والملك مقبل علي صاغ الي فلما انتهيت على اخر الكتاب اثنى عليّ وهو باسم وامر الوزير بان يحتفظ بي فخرجت من حضرته وانا اسعد الورى وفي نفسي امال كاد الا يسعها صدري لاتساعها وعظمها

ولما انصرف الوزير من حضرة الملك امرني بان امضي الى ابن اخيه واصحبني بكتاب توصية يشير به الى اني كاتم السر لما بينهما فلما قراه سار بي الى مخدعه وقال لست اشك انك لست حافظًا لسرنا بعد ان انتخبك عمي واسطة لما بيني وبينه ولذلك ارى ان اخبرك بكل شيء فقل لعمي ان ابن الملك راض عني واني جلست اليوم اليه فشكا اليّ بخل ابيه وضيق ذات يده فوعدته بان احمل اليه من الغد ثلاثة الاف دينار ثم اتبعها بغيرها بعد ذلك وهي الواسطة التي انال بها رضاه فقل هذا لعمي وعد اليّ بالجواب فلما عدت الى الوزير واخبرته بذلك امرنا نائبه بان يدفع لي ذلك المال فسرت به لساعتي الى ابن اخيه (وقد رايت ان حيلة الوزير لبلوغ غايته انما كانت بالرشوة التي لا يتكلف اليها من جيبه لانه كان يتناولها من خزائن الدولة فكانه يهب ابن الملك من مال ابيه لا من ماله .) فلما سلمت الصرة اليه قال لي وانا انصرف عنه . قف قليلاً ان ابن الملك يحب الغواني ولذلك رايت ان اكلمك فيما بعد بهذا الشان لتكون لي فيه معوانًا ونعم المعوان . . .

فلما انصرفت تاملت فيما عرض عليّ وما يحصل لي من المال والشرف بخدمة ابن الملك في لهوه فسررت لذلك واملت صلاح حالي في المستقبل غير انه لم يكن يقلقني في ذلك الوقت الا صفر يدي من المال وما كان من نزولي في فندق الصعاليك واضطراري الى بيع ثيابي قطعة بعد قطعة حتى لا اموت من الجوع . ولم اكن ارجو المساعدة من احد من الناس الا من يوسف خادم دون بلشاصر غير اني استحييت ان امضي اليه لطلب المال بعد ان اهملت زيارته حين تقدمت في حوزة الوزير بما يكون للعزة من السكرة

التي تفعل بالنفس مثل سكرة الخمر ولا تفطن للاصحاب الا بعد الاستفاقة منها . ثم ان الثاقة اشتدت بي حتى لم اعد املك بيت ليلة بل كنت اقضي اليوم كلهُ على كعكة اطلبها من خادم الديوان مع قليل من النبيذ في كاس . . . هكذا مضت الحال بي الى ايام كثيرة وانا محسود من الناس ظاهرًا ممزق النفس باطنًا حتى رايت ان اشكو فاقتي الى الوزير فاتفق لي ذلك بطريقة دقيقة كما سأذكرهُ في الفصل اللاحق

فصل
في ان جلبلاس شكا فقره الى الوزير وما اتفق لهُ بعد ذلك

وذلك ان الملك سار بوزرآئهِ واهل بيتهِ وندمائهِ وجلاسهِ واعيان دولتهِ الى قصر لهُ خارج الحضرة فاخذني الوزير في خدمتهِ واعدّ لي مقصورة ابيت فيها بجانب مقصورتهِ . فاتفق انهُ انتبه في بعض الايام مع طلوع الفجر فامرني بان احمل دواة وقرطاسًا وامضي معهُ الى حديقة القصر . فجلس تحت شجرة من الاشجار وتقدم اليّ بان اقف امامهُ وامسك القلم والقرطاس كمن يستعد للكتابة ثم اخذهو ورقة وبات ينظر اليها بتروٍ وامعان حتى يوهم من ينظر الينا من شبابيك القصر انما نشتغل بمهام الدولة . فلما فعلنا ذلك امرني بان احدثهُ بما لدي من القصص والحوادث الغريبة ففعلت ذلك وما زلت احدثهُ حتى انقض على الشجرة التي كنا تحتها غرابان اخذا ينعبان ويقيقان فقال الوزير ان هذين الغرابين ينعبان فما عساها يقولان فقلت ياسيدي قد تذكرت الان قصة قرأتها في بعض الكتب عن غرابين مثل هذين الغرابين فقال وما هي هذه القصة فقلت

كان على بلاد فارس في قديم الزمان ملك ضعيف الهمة قليل الخبرة بامور السياسة فترك امر الامة الى وزيره الاكبر ويقال لهُ المرزبان وكان وزيرًا رفيع الهمة بليغ الفطنة مؤيد البديهة مبارك الراي محبًا للخير رفيقًا بالتوسع للرعية فيما يحبون والدفع لما يكرهون وكانت ايامهُ ايام امن ودعة وهناء . وكان لهُ تحت يده كاتب يتعطف عليهِ ويرتاح في خدمتهِ اليهِ يقال لهُ زهنشير وكان يكاشفهُ عن سرّه ويفضلهُ على كتاب الديوان ويركب معهُ الى الصيد في اكثر الاحيان فانهما لفي بعض الغابات يتصيدان اذا راى الوزير غرابان على شجرة ينعبان فقال لكاتبه وددت يا زهنشير ان اعرف ماذا يتكلمان فقال يا سيدي ان لي علمًا بهذا اللسان فقال ومن اين لك هذا العلم الذي أوحي لسليمان فقال علمنيه بعض دراويش الافغان حتى صرت افهم ما يغرد الطير على الافنان وان شئت فاني اقوم الان واترجم لك عما يتناجيان فقال لهُ قم يازهنشير لقد استغربت كل الاستغراب علمك بلسان الغراب فقام الكاتب الى تحت الشجرة وصغى لحديث الغرابين ثم عاد وقال للوزير وعلى وجههِ الاستغراب اتصدق ياسيدي انهما يتحدثان عنا فقال اني اعجب من هذا وما عساهما يقولان فقال زهنشير يقول احد هذين الغرابين لرفيقهِ . انظر يا اخي هذا الوزير المشكور السعي المرقوع المنزلة الموفق العزيمة الذي نشر على المملكة جناحي عدلهِ كما ينشر النسر جناحيهِ على عشهِ . فهو جالس تحت الشجرة الفلانية يتصيد مع كاتبهِ في هذه الغابة الملهى والغزلان ولست احسب هذا الكاتب الا في غبطة ودعة اذ انهُ يخدم وزيرًا يتعطف عليهِ ويجزل من الخير بين يديهِ فقال الغراب الاخر خفض عنك يا اخي ما تقول ولا تخل هذا الكاتب

نعيم البال فانهُ وان كان الوزير يميل اليهِ و يعده بسرعة التقدم في مراتب الدولة فاني لاحسبهُ يموت جوعًا قبل انجاز الوعد لانهُ يسكن موضعًا قذرًا ولا يملك بيت ليلة والوزير غافل عما هو فيهِ من الفقر والفاقة

فلما سمع الوزير كلامي فهم ما اقصد بهذه القصة فتبسم وقال ولكن ما اخبرتني بتمام القصة فهلا غضب المرزبان على زهنشير ونقم عليهِ جراءتهُ . فاضطربت من هذا الكلام وقلت لهُ ياسيدي انما ورد في نهاية الخبر ان الوزير انعم على كاتبهِ بما اصلح بهِ حالهُ فقال لقد كان ذلك الكاتب وافر الحظ لان من الوزراء من ينقم مثل هذه الجراءة على كاتبهِ . قال هذا ونهض من تحت الشجرة يريد مجلس الملك فتبعتهُ الى القصر فرايتهُ منقبض النفس فكاد يخلع قلبي من الخوف ثم دخلت مكتب الناسخين فقالا لي ما بالك ترتجف واي حادث نزل بك فقلت الامر كيت وكيت واخبرتهما بتلك القصة فبان الكدر على وجهيهما وخوفاني سوء المصير ولا سيما ان يصيبني مثل ما صار بكاتب الكردينال وقد كتب لهُ في قولها نحوًا من سنة وشهور دون ان يدفع لهُ درهما واحدًا حتى اذا مسهُ الفقر طلب منهُ قليلاً من المال يستعين بهِ على معاشهِ فقال لهُ من العدل ان ادفع لك راتبك وهذا امر للخازن بان يدفع لك ثلاثة الاف درهم فخذهُ واعلم باني لا استخدمك بعدُ في مرتبتك . فما هو الا ان صار الكاتب على باب الخازن حتى اخذتهُ الشرطة والقتهُ في سجن الظلمات

فلما سمعت هذا الخبر عظم خوفي واقبلت على نفسي الومها على ما صدر عني وقد ايقنت بالهلاك بعد اذ اوشكت الحصول على النعمة لو كنت تصبرت وما تجرأت على الوزير بتلك القصة المتلفة . ولم ازل على تلك الحال من اليأس حتى اقبل الوزير قبيل الظهر فرايتهُ منقبضًا مدمن التفكر ولم يكلمني ولا نظر اليَّ فعظم خوفي من ذلك و بت الليل كلهُ مضطربًا من عظم بلائي ومتوقعًا قبض الشرطة عليَّ . حتى اذا لاح الصباح استدعاني الوزير اليهِ فدخلت عليهِ مرتجفًا فقال لي خذ هذا الامر واحملهُ الى الخازن .

فلما ذكر «الامر والخازن» كاد ان يغمى عليَّ من الهول لتذكري بقصة الكردينال فوقعت بين قدميهِ باكي العين والتمست العفو ما استطعت سبيلاً الى الكلام واعتذرت بان الحاجة هي التي حملتني على جراءة استحق العقاب من جرائها فضحك الوزير مني وقال خفض عنك جزعك فاني وانكنت قد حنقت على تنبيهك اياي بعدم تقدمي لك فلم ارَ بعد التمعن الا انك معذور على ذلك . وقد كتبت لك بهذا الامر ليدفع لك الخازن ثلاثة الاف درهم . واني ارخص لك منذ اليوم بان تكلمني بحاجات الناس لاقضيها لهم فيرشونك من المال بما تتسع بهِ حالك . فلما وعيت كلامهُ كدت اطير من الفرح وجثوت على الارض لابداء الشكر واعملت الجهد لان ابعد الاضطراب المستولي عليَّ فلم استطع سبيلاً الى ذلك لاني كنت في ذلك الحين كالرجل الذي يحكم عليهِ بالقتل ثم يسمع عفو الملك عنهُ بعد ان يعلوهُ الجلاد بالسيف وهو يظن انهُ في اخر دقيقة من هذه الدنيا .

وكان الوزير يظن ان اضطرابي انما نشأ عن كوني سببت لهُ الكدر والانقباض (مع ان خوفي كان من التنكيل بي) فقال لي سر روعك عنك فاني عنك راضٍ وانما اظهرت لك الانقباض لارى هل يؤثر ذلك في نفسك مع اني منك اليوم اشدّ سرورًا مني من قبل

فصل

في ثروة جلبلاس وفي قضائه لحاجات الناس

قال جلبلاس وبعد ان عاد الملك الى الحضرة

قبضت من الخازن ثلاثة الاف درهم فكاد يذهب عقلي من شدة الفرح وما لبثت ان رجعت الى التدبير والاسراف وقد تركت فندق الصعاليك لان يبيت فيهِ من لم يتعلم لسان الغربان مثلي واستأجرت المقاصير المنروشة بالحرير التي استاجرتها لاول دخولي في خدمة الوزير وفصلت عند الخياط حلة بهية من الخزّ واشتريت بضع عشر قميص وجوارب وغير ذلك واتخذت لي وصيفًا يقال لهُ سبيون ممن انتخبهم لي صاحب الفندق اذ كانت عادة الاسياد ان يوكلوهُ بانتخاب الوصفاء لهم فكانت الوصفاء يترددون عليهِ ويجتمعون عندهُ في كل آن . وكان من قبل ان يجيئني بسبيون قد جاءني بوصيف كثير العبادة رائق الناسوت فلم أرضهُ لي خادمًا بعد ان تذكرت سلامًا في عبادتهِ ورواق ناسوتهِ يوم باعني من المكارين في مدينة وليد فقلت لهُ يا هذا جئني بوصيف لا يتظاهر بالرواق والسكينة لاني قد خدعت قديمًا بامثال هولاء المرائين . فجاءني من ثم بسبيون هذا الوصيف المشيطوقد رايتهُ يلتهب حدةً ولا يهدأ خفةً فارتحت اليهِ واخذت استجيبهُ عن مسائل رايت من اجوبتها انهُ آية الذكاء والدهاء فسارعت الى اخذه لخدمتي اذ كان يلزمني معاون مثل هذا بعد ان وعدني الوزير بان يقضي لي مصالح الناس ليأتي اليَّ بن يلتمس نعمة من الوزير او من الملك ويكون لديَّ مثل ما يكون كلب الصيد لدى الصياد

ولما علم سبيون اني اتفرغ لقضاء حاجات الناس مضى في طلب اهل الحاجة منهم وكانت عادتهُ من قبل ذلك ان يسعى في طلب الرجال لمرضعة ابن الملك فما هو الاَّ ان خرج حتى عاد وهو يقول يا سيدي اني وجدت شابًا من غرناطة من آل راده يقال لهُ روجرس ولبعض الناس ثارٌ عليهِ ويريد ان يلتمس نعمة الوزير ويشتريها بما يطلب منهُ من المال وكان بوده ان يقصد خلدرون النائب فاثنيتهُ عن عزمهِ واشرت اليهِ بان يجعلك واسطة لالتماس هذه النعمة وقد بينت لهُ طمع النائب وقنوعك انت بالقليل من المال . وهو يقصد بابك من الغد

فلما كان الغد وفد عليَّ هذا الفتى فاقتبلتهُ بادب يمازجهُ الكبر والخيلاء وقلت لهُ ايها السيد اني اروم ان تحدثني بخبرك صدقًا لا زيادة عليهِ ولا نقصان حتى اذا لم يكن هناك منكر كلمت الوزير بشانك وعلى الله التكلان فقال يا سيدي لك عليَّ أمرهُ مطاعة وهذا حديثي اليك كما هو

فصلٌ
في قصة دون روجرس

قال دون روجرس كان في غرناطة رجل يقال لهُ دون نسطاس من آل راده وكانت لهُ امراة بديعة الدلال اية من ايات الحسن والجمال يقال لها ايزابلا وكان كلفًا بحبها مغرمًا بها الا انهُ شديد الغيرة عليها على مكانها من العفة والحصن فكان لا يأمن عليها من اصحابهِ الاَّ من رجل من اقاربها كان يتردد الى مجلسها كل يوم ويقال لهُ هرديس فكان ياذن لهُ بالجلوس اليها والتحدث معها على حين كان مصدر الغدر والخيانة من ناحيتهِ لا من ناحية غيره

فكلف هذا الرجل بقريبتهِ والتمس منها جزية الحب وهو لا يرعى عهود المودة بينهُ وبين زوجها ولا يبالي بقرابة الدم منها . فامتنعت عليهِ وعذلتهُ عن ذلك وحلفتهُ بحق الدم والقرابة ان ينثني عن قبيح ما قصد فلم يرجع عن غيهِ ولا ارعوى في نفسهِ وانما اراد ان يناله قسرًا فدفعتهُ بحدة الغضب وتوعدتهُ بان تذكر فعلهُ لزوجها فاجفل لذلك وخاف الفضيحة

بين الناس وفتك زوجها به فرجاها بان تصفح عن جرامته وان لا تذكر ذلك لزوجها وعدًا بان يرجع عن غيه وينثني عن قبح ما قصد فاجابته الى ذلك بعد ان توقف وعفت عنه وكان لعذره من فوادها قبول واقتبال

على ان هردليس هذا الرجل كان مفطورًا على الشر والرداوة فعمد الى الانتقام من ابزابلة بوجه لم يخطر الظلمة ولا لقطاع الطريق ببال . وذلك بينما كان يمشي مع زوجها في بعض العشيات قال له وهو بوهمة انه ضيق الصدر منكمش النفس يا صاح اني لا اكتم عنك سرًا من داخلية بيتك وعيالك تقضي عليّ حقوق المودة باخبارك به ولاسيما اني رايت شرف العرض احب اليك من خيرات الدنيا باسرها . ولقد يسوءني وحياتك ان اكاشفك عن سرّ يمزق فوادك ويكون عليك انكى من وقع السهام ولكني رايت من الشهامة وخلوص المودة ان ابوح به اليك ولو كنت اصيبك على الجرح كما يقال في الكلام السائر

فلما سمع الزوج كلامه ظهر الاضطراب على وجهه وقال لقد فهمت عنك ما تقول . فلربما تشير الى خيانة قريبتك فقال لا اريد ان تسميها قريبتي فاني اجل نفسي عن ان تنتسب اليّ كما اجلك عن ان تكون لها زوجًا فقال اخبرني بما لديك لقد قتلني الاصطبار فقال لقد خانتك زوجتك وغدرت بك وافسدت عرضك وشرفك ولها عشيق تهواه سرًا وقد جلس اليها في ليلة حالكة الجلباب ولم يتيسر للرقيب ان يتاملهُ من هو وقد تاكدت ذلك بنفسي اذ لولاه لما حنقت عليها وانا بمكاني من القرابة منها والمودة لها . فما كاد يستتم كلامه حتى اظلم وجه الرجل وانتفض عرق الغضب بين عينيه فسر المكار من ذلك وطابت نفسه لبلوغ الغاية من حيلته وقال له لقد رايت على وجهك سمات الغضب وظننت انك ستنتقم من هذه الفاجرة وهو الامر الذي يقع مني بالموافقة لاني احب ان تظهر للناس بانك تفدي باعز ما لديك لحفظ شرفك وصيانة عرضك . ثم ذكر غير ذلك مما يحضهُ به على الانتقام حتى اوغر صدره فمضى دون نسطاس الى منزله وهو يكاد يحرق الهواء بضرام غضبه وفي نفسه ان يمزق زوجته بالخنجر على حين كانت تحمل في احشائها جنينًا يكاد يكون طفلاً . فلما دخل عليها وجدها قد نضت للنوم ثيابها ولم يبق عليها الا لبسة المتفضل وبين يديها قهرمانة تخدمها فلما انصرفت دنا منها وعمد الى قتلها وهو لم يبالِ بغضب الله عليه ولا بفضيحته بين الناس ولا ادركته رحمة لذلك الجنين الذي كان في رحمها فقال لها والمدية في يده مسلولة لقد عمدت الى قتلك ايتها الخائنة الفاجرة ولست امهلك الا حتى تصلي وتسجدي فاذا سجدت فقد قبضت على روحك وانتِ ساجدة حتى لا تهلك روحك كما هلك عرضي وعرضك

فلما سمعت كلامه ورات المدية في يده اذهلها الروع وخامرها الفزع فوقعت على الارض بين قدميه متوسلة متضرعة وقالت ما هذا ايها الرجل اي ذنب اتيت به واي جرم جنت يداي حتى وصلت الى هذا الحد وعمدت الى قتلي ظلمًا . فان كنت تتهمني بالخيانة فبالله خفض عنك ما لك بي من سوء الظن . فقال لقد اخبرني بخيانتك رجال اثق بكلامهم فهذا هردليس قد . . . . فلما سمعت اسم هردليس تحققت صدور الخبر منه فقطعت كلام زوجها وقالت لا يا سيدي لا تثق بمودة هردليس فهو اميل الى عداوتك منهُ الى صداقتك وان كان يذكر عني سوءًا فلا تعر كلامه جانب الثقة فقال لها صهْ يا فاجرة ان من تكذيبك لكلامه لبرهانًا اخر يثبت فجورك ويحملني على سرعة الانتقام منك . فبكت ابزابلة بدموع مرّة

وتلهفت على كبد حرّى وقالت يا سيدي اخفض عنك غضبك واذكر مودتي لك وايامًا ابرمتَ فيها العهود لانك لو قتلتني وانت ممتلئ من الغيظ والحدة ثم ظهرت لك براءتي من بعد موتي لمت اسىً ولستَ بعد ان يسبق سيفك العذل فعِ بالله لنفسك ولا تقتلني الا بعد ان يظهر لك الحق وتكون قد ابقيت الحيوة لأم ولدٍ لا ذنب لها الا انها ذات عنة وامتناع . فلما ذكرت ذلك لم يشفق عليها زوجها ولا ادركته الرحمة والعياذ بالله فرفع المدية وصاح بها قومي واستغفري الله قبل ان اقبض على روحك فقالت له مهلاً ايها الظالم الغادر . ان كان دمعي لا يسترق قلبك وان كان حبك لي قد زال وان كان حنوي اليك قد ذهب من خاطرك ذكرهُ فارحم على الاقل هذا الجنين الذي هو منك ومن دمك ولا ذنب له اليك حتى تقتله من قبل ان يولد واذكر انك ستقف امام ديان عدل يسالك عنه في يوم الحساب . فلما سمع هذا الكلام تخوف قليلاً من غضب الله ورق قلبه على تلك الحال المحزنة وكاد ان يرجع الى الصواب . غير انه خاف ان تستولي عليه الشفقة فتثنيه عن عزمه فرفع المدية بما بقي فيه من الحدة وطعنها بها فاصابها في خاصرها الأيمن فوقعت الى الارض فخرج من البيت وذهب في البلاد على وجهه وقد ظن انه قتلها ولم يدر احد من الناس بوضعه بعد ذلك

اما ايزابلة فانها لما طعنها زوجها ووقعت الى الارض أُغمي عليها برهة بقيت فيها كالميت لا تبدي حركة ولا يسمع لها صوت البتة . ثم افاقت من غمائها واستصرخت باعين يفتت الاكباد ويذيب الجماد فتسارعت اليها قهرمانتها فراتها على تلك الحال فاعولت وولولت واستصرخت الخدم والجيران فاقبلوا افواجًا الى المقصورة وجاء بعضهم بالاطباء والحجامين فلما راوها جزموا بان الجرح غير قتال ولبثوا يعالجونه بالادوية والمراهم حتى التأم بعد ذلك بايام فعادت الحيوة الى تلك المراة المسكينة وما لبثت بعد ذلك ان ولدت ذلك الطفل الذي حملته تسعة شهور وانا كنت ذلك الطفل

واقول انه لما انتشر الخبر في المدينة لم يسمع بفيمة احد من الناس على امي (وقد يندر ان ترى ذات خدرٍ تنجو من لسان النمامين) بل رحموا لها ورثوا لبلواها لما سبق من علمهم بظلم ابي لها وغيرته عليها على ان هردليس كان مسرورًا من هذا الانتقام وان لم تبلغ الحيلة فيه المرام وقد قرر في نفسه ان امي قد ادركت حيلته عليها فانقطع عن زيارتها وبات يعيش في غضب الله الى سنين عديدة كانت تعلّمني فيها امي الفروسية وهي لا تعرفني الخبر حتى اتى عليّ ثمان عشرة سنة من العمر فاخبرتني بما كان من امر هردليس وهي تذرف دموعًا احمر من الجمر وتأن انينًا يفتت الصخر فلما رايتها كذلك كاد يخلع قلبي من الكمد فمضيت لساعتي الى منزل هردليس واخرجته الى موضع منفرد في الفضاء واشهرت عليه القتال مستعينًا بالله سبحانه وتعالى فظهرت عليه وطعنته بالرمح وانغمست فيه الجراح حتى لم يتحرك

فلما اندفق دمه وايقن ان الهلاك منه قريب نظر اليّ وهو في غاية الاستغراق من سكرات الموت وقال لقد جزيتني يا روجرس حق الجزاء على الاثم الذي جلبت به البوار على نفسي وان الخبر الذي اخبرت به اباك من ان لامك عشيق تهواهُ سرًّا فليس بصحيح وانما استنبطته حيلةً للانتقام منها بعد ان امتنعت عليّ . وانا الان استغفر الله والتمس العفو منها ومنك ومن ابيك . قال هذا وقضى نحبه . فلما تحققت موته لم ارَ ان اسير الى امي لابشرها به وانما تركت الشهرة تخبرها بذلك ومضيت على وجهي في البلاد حتى

وصلت الى (مالقة) وفيها مركب تتجهز للخروج الى الغزو فرآني الربان واعجب ببسالتي ونشاطي فاخذني معهُ في جملة المحاربين فسرنا الى سواحل مراكش حتى وصلنا الى جزيرة البوران ورأينا هناك مركبًا لجماعة من المراكشيين قد غزوا على مركب لاهل الاندلس فيهِ تجارة ورجال فتصبنا عليهم القتال وقهرناهم باذن الله واسرناهم ورجعنا بهم وبمن معهم من الاسرى النصارى الى الاندلس

ولما طلعنا على سواحل الاندلس واخذنا نسأل هؤلاء النصارى عن مواطنهم رأيت بينهم رجلاً حسن الهيئة يبلغ خمسين من العمر وعليهِ اثار النعمة فقلت لهُ من اين الرجل فاجاب وهو يتنهد اني من مدينة غرناطة فلما سمعت كلامهُ استحوذ عليَّ تاثير لم استطع لهُ منعًا ولا ادركت لهُ سرًّا ورابتهُ هو قد اضطرب لاضطرابي فقلت لهُ لاتخف اني من بلدك واريد ان تنتسب فقال وآسفاه لقد اذكيت حزني بهذا السوال وهيجت عليَّ ما كان ساكنًا مني . اني تركت الاوطان منذ ثماني عشرة سنةً على غصص من الفؤاد ولا يزال الناس يذكرونني هناك بالسوء واظن انك قد سمعت بمن يشتمني ويقدح بي واسمي دون انسطاس من آل راده . فلما عرفت انهُ ابي خامرني اندهال بل انفعال بل ارتياح لانني العبارة بالايضاح عنهُ فقلت لهُ في اليقظة انا لم في المنام اتكون انت دون انسطاس ابي . فلما سمع كلامي خفقت احشاؤهُ وتاملني برهةً وقال ماذا تقول أأنت ذلك الغلام الذي طعنت امهُ وهو في رحمها جنين فقلت اني هو يا ابتاهُ واني لابن ايزابلة مثال العفة والطهارة . فوثب عليَّ وعانقني وامتزجت دموعهُ بدموعي برهةً ثم رفع طرفهُ الى السماء وشكر الله على سلامة زوجتهِ وقال زدني فديتك ايضاحًا عنها وعن تصديق عفتها فقلت يا ابت اني لم اسمع قط بمن ينم بوالدتي وانما هردليس هو الذي خدعك وغدر بك بامرأتك وكان اصل الشر منهُ كذا كذا واطلعتهُ على خبره وكيف انتقمت منهُ وما اخبرني بهِ قبل ان مات

فلما وقف على هذه الاخبار بدت عواطف الانشراح على وجههِ وتعطف عليَّ وقبلني مرة بعد مرة وقال يا بني هلم نسرع الى غرناطة . فاني مشتاق الى زوجتي واحب ان ارتمي بين قدميها لالتماس العفو بعد ان تحققت عفتها وتمزق قلبي من الندم على الغدر بها ظلمًا . فاطلعتهُ الى ذلك واشتريت من المال الذي اصبتهُ من الغنيمة على المراكشيين بغلين يحملاني واياهُ الى غرناطة . فلما كنا في الطريق حدثني بما جرى لهُ من الوقائع والحوادث وانا مصغٍ لما اصغاه تلهاك لحديث ابيهِ عواص لما التقى بهِ بعد غيبة عشر سنين . ولما مند مسيرنا من الساحل الى داخلية البلاد نحوًا من عشرة ايام . فلما قربنا من غرناطة وقفنا وراء جبالها وانتظرنا انبلاج الشمس لندخل المدينة من تحت الليل حتى لا يعلم بنا احدٌ فكان لاجتماع ابوي حالةٌ تستبكي الحمام من الشوق وكانت امي تحمد الله ارجوعهِ اليها بالسلامة وهو مصحوب بي وكان هو يلتمس العفو منها وهي تتقرب بالملاطفة اليهِ حتى بكيت لذلك الموقف الذي جرح خاطري من شدة التاثير . وكانت امي قد سرت لعودتي ولكن كان يمازج سرورها الخوف عليَّ من آل هردليس لعلمها ان اخاهُ كانت تدس الرجال ليقتلوني . فخرجت في تلك الليلة نفسها من غرناطة وجئت التمس نعمتك لتكلم الوزير بحاجتي

قال جلبلاس فلما فرغ من حديثهِ قلت لهُ بنفس الحكام المعجبين بانفسهم اني ارى مسالتك جديرة بالعفو واعدك بان اكلم الوزير الاكبر بشانك فوقع كلامي من نفسهِ احسن موقع وشكرني شكرًا جزيلاً بكلام لم افطن منهُ الا لما فيهِ الوعد بالهدية التي كلمتُ بها سيدون . فلما خلوت بالوزير كلمتهُ بحاجتهِ وقصصت

عليهِ الخبر فامرني بان استدعيه اليهِ فلما دخل عليهِ قال لهُ لقد كلمني بك جلبلاس فلا خوف عليك وقد رايتك معذورًا على ما صنعت وكذلك الملك يصفح عنك لما اعهد فيهِ من حب الرجال الذين يذبون عن عرضهم وشرفهم ولكنهُ ينبغي لسلامتك ان اودعك السجن اياماً قلائل حتى تطمئن على نفسك من غدر آل هردلوس بعد وصول الخبر اليهم بانك قد اخذت نصيبك من المجازاة عن قتل رجلهم . ويكون من همة جلبلاس انهُ يسرع بالافراج عنك في اسرع مدة . فشكر دون روجرس الوزير ثم انطلق الى السجن وبقي فيهِ مدة حتى فرّجت عنهُ بامر الوزير فاعطاني صرة فيها مئة دينار فسررت بها سرورًا عظيماً مع انها كانت قليلة في نسبة ما باخذه خلدرون واعطيت سيبون منها عشرة دنانير لقاء مروّتهِ وهمتهِ

فصل
في حصول جلبلاس من الرشوة على ثروة عظيمة

ولما راى سيبون انهُ يستفيد من قضائي لحاجات الناس بذل الجهد وافرغ الوسع في الوقوف على من لهُ حاجةٌ يرغب فيها ومصلحة يقصد بها الوزير فاتاني من بعد ذلك بطباع الفي الحكام مطبعة من احل انهُ يطبع مدونات في لوم الفرسان والتورك عليهم والشماتة بهم فرجوت الوزير بشأنهِ فامر بان تسلم اليهِ مطبعة فاخذت منهُ الف درهم لذلك . ثم اتاني بعدهُ بتاجر من اشبونة لهُ مركب استولى عليها العدو وهي مشحونة بالبضاعة فمرّت بالعدو مركب لاهل قادس فاحتازوها منهم وراموا التصرف بها فجاء صاحبها وطلبها منهم فقالوا نحن لا يعنينا ذلك وانما غنمناها من العدو فجاء الى دار الملك وكلمني بحاجتهِ ففضيتها لهُ وارجعت اليهِ بضاعتهُ واخذت منهُ خمسمائة دينار لذلك ثم اتاني بعدهُ بتاجر اخر يروم ان يبيع في سائر الاندلس بضاعةً لا يبيعها احدًا غيرهُ فاعطيتهُ الامتياز بذلك واخذت منهُ ثلاثمئة دينار

وبلغت مسرتي في تلك الايام مبلغًا لا تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عنهُ . وكنت كلما كثر المال بين يدي تشوقت الى الحصول على اكثر منهُ حتى كانهُ قد صدق فيّ مثل العامة «مفتاح البطن لقمة» . وكانت الناس لا يعلمون الغاية من انبعاثي على قضاء المصالح وانما كانوا يثنون عليّ ويقولون اني آية المروة والهمة . ولما ان رايت من الوزير حسن الاقبال عليّ واجابتهُ دعوتي في كل ما التمس منهُ وقع في نفسي ان اطلب منهُ الولاية لامير دنع لي بها الف دينار وخمسمائة دينار . فلما فهم ذلك عني ضحك وقال اني اراك محبًا لعمل المعروف مع قريبك ولكن لتعلم ان المصالح الحقيرة التي تقضيها للناس لا اطلب مشاركتك بها ولكن امر الولايات والامارات وغير ذلك فقاسمني بما يدفع لك في تحصيلها لان عندي نفقات تستلزمها مرتبتي ولا اريد ان اخذ رشوة من الناس بل تكون انت الواسطة لذلك . فلما وعيت كلامهُ سررت في نفسي غاية السرور لاني ايقنت بدوام مرتبتي وحفظها لي اذ كنت الواسطة «لذلك» وما عدت استحيي من التنقل عليهِ بدوام المطلب لقضاء مصالح الناس فحصلت الولاية لذلك السيد وحصلت غيرها لسيد اخر بعتها منهُ بقدر ذلك من المال . ثم لم يمض زمن يسير بعد ذلك حتى ارتفعت منزلتي في الدولة ولم يبق فوق مرتبتي الا خلدرون فانهُ كان يولي الملوك التابعين ويطوق قيادة الجند الى الامرا ويرفع الرهبان الى المطرانية ثم يقاسم الوزير بما يصل

اليهِ من الرشوة لذلك . على ان الرجال الذين كانوا يتولون على هذه المناصب لم يكونوا باهل لها وانما كنت وخلدرون تولييهم لمالهم دون ان نبالي بكلام الناس ومعايرتهم فكان مثلنا بذلك مثل البخيل الذي يسمع عنهُ مذمة الناس فاذ خلا بين صناديقهِ ورأى الذهب بين يديهِ كانت لهُ السلوى عن معايرة الناس لهُ

ولما صار بين يدي عشرة الاف دينار استاجرت دارًا مليحة وفرشتها باحسن الفرش واشتريت عجلة مزينة بالرسوم والنقوش واتخذت لي غلامًا ووصيفين وجعلت سبيون خوليًا لي وكاتمًا لسري وامرتهُ بان يحضر لي طباخًا ماهرًا لاّ ندب الناس الى مائدتي كما يفعل الوزراء واشتريت دنانًا وقناني ملانها من النبيذ وصار يحضر مجلسي جماعة من الاسياد والعظماء واهل المراتب يجلسون الى مائدتي ويعاقرون الخمرة معي الى جزء من الليل وكان الوزير يسر من ذلك فيما ارآهُ منهُ لعلمي بانهُ كان يجب ان يرتفع مقامي بين الناس . وكان سبيون يندب اليهِ جماعة من اصحابهِ ويعاقرهم الخمر فلم ابال بذلك ولا لمتهُ عليهِ لاني رايتهُ حقيقًا بان يقاسمني بالمال الذي كان يأتيني بهِ والذي ظننت اني انتهي منهُ الى مئة الف دينار وازيد منها

وكان صيتي قد ملأ البلاد وذاع على السنة العامة والخاصة وصار لي مجلس يذكر في مجالس الامرا وحصلت من العظمة شيئًا لا يخطر ببال احد من غير العظماء والوزراء ولم يبقَ من لم يرَ عظمتي الا فبريس ذلك الصديق القديم فلما علمت بعودتهِ من تلك الخطرة البعيدة اردت ان ادهشهُ فكتبت اليهِ ورقة (عن لسان بعض العظماء) ان يحضر الى الدار الفلانية للعشاء . وتلك الدار هي الدار التي كنت مقيمًا فيها . فلما جاء وراءني في سعة العيش غلبت عليهِ الدهشة التي رمتها من كتابة الورقة بدون ان اذكر اسمي لهُ وقال يسرني والله ان اراك في هذه السعة والدعة واني اهنيء نفسي لما كان من توصيتي امير صقلية بك يوم قلت لك انهُ رجل كريم تصيب منهُ المال الجزيل واظنك قد غيرت طريقتك من مجافاة الخدم الى النصيحة التي تقدمت بها اليك من موافقتهم على مالهُ يرغبون واليهِ يسعون قال هذا وهو يتعظم في نفسهِ لظنهِ بانهُ هو المسبب لنعمتي فلم ادعهُ في هذا الظن كثيرًا بل اخبرتهُ بما كان من غدر امير صقلية بي معما تقدمت فيهِ من صدق الخدمة فتاثر لذلك فقلت لا تبتئس يا فبريس لاني لو بقيت عند امير صقلية لبت انتظر انجاز الوعد وما حصلت على نعمة الوزير ورضاه فلما وعى كلامي اخذ العجب منهُ وقد برهة عن الكلام ثم قال اصدق ما نقول من تقربك الى الوزير قلت نعم وليس في رجال الدولة الاّ مي وخلدرون من المقربين اليهِ فقال هنيئًا لك . . ان فيك من الفطانة والذكاء ما يؤهلك لهذه المرتبة فقلت قف عن المديح اني لك اخ مخلص الوداد كما كنت من قبل فقال كذا اروم ان اكون معك وتكون معي الى اخر الدهر . ثم تحدثت معهُ الى ان دخل عليَّ اسياد خمسٌ يزورونني فعرفتهُ اليهم وقلت لهم انهُ من اشعر الشعراء فلم يفطنوا لهُ ولا نظروا اليهِ فتكدر لذلك ولاحت على وجههِ علائم الانكماش وحاول ان يستفلت نظرهم اليهِ باحاديث ظريفة وطرائف هزلية فلم يحتفلوا بهِ ولا التفتوا اليهِ فبلغ الكدر منهُ وانصرف سرًا من بينهم فلم يفطنوا لهُ وقاموا جميعًا الى المائدة دون ان يتكلفوا السؤال عنهُ بعد انصرافهِ

فلما كان الغد عاد الي فبريس وقال لقد حنقت على هؤلاء الاسياد الذين لا يوفون العلماء قدرهم فكيف تطيق عشرتهم وهم على ما تراهم عليهِ من الغلظ والجفاء ولكن ان شئت جئتك الليلة بجماعة ارقاء قد حازوا اللطف كلهُ وكلهم آية في الفطانة والذكاء فقلت

افعل ماتريد لان ذلك علي امرة مطاعة فقال ساذهب الان اليهم لئلا يدعوهم احد قبلنا الى العشاء لان الاسياد يتسارعون الى ابتدابهم في كل يوم لما يعهدون فيهم من الرقة والظرف . ثم . ارو عاد الي في العشاء مع ستة من المؤلفين عرفهم الي وعظم في عيني قدرهم وسعة اطلاعهم في العلم كانما هم (وهو معهم) الحكماء العرب السبعة الذين ملأوا الصحف من ذكرهم او الحكماء اليونان السبعة الذين تحفظ اسماؤهم الى آخر الاجيال فاكرمت وفادتهم ووفيتهم حقهم من التعظيم حتى لا يحتقوا علي كما حنق فبريس على الاسياد

ثم دعوتهم الى المائدة فجلسوا متحدثين مسرورين ومالبثوا ان ادار وا الحديث بينهم على تعظيم نفوسهم فقال احدهم اني قلت شعرًا مثلت فيه الحكمة حتى قالت الناس اني آية الذكاء وقال آخر قد انتخب بعض المعالم عضوًا له فاخطأ اذا لم ينتدبني اليه وذكر غيره ذلك وذكروا ايامهم وكلامهم حتى كدت اختنق من الملل . ثم اخذ احدهم في سرد ابيات له يترجم بها ابيات شاعر من شعراء يونان فانتهى الى موضع فيه ركاكة فاخذته عليها جارة فنقم علي وآخذته فرد علي فوقع بينهما الخصام فانقسم الحاضرون الى حزبين وتجادلوا بالكلام فبلغوا من المناظرة الى المسافهة ودخل البلس بينهم فبلغوا من المسافهة الى الضرب والاقتتال فتضاربوا وتنازلوا حتى كادوا يقتلون بعضهم فناديت بطباخي والغلام والوصيفين وسائق العجلة وسائس الخيل لاجل ان يردعوا الواحد عن الاخر ثم اشتغلت انا وفبريس في ذلك حتى توصلنا الى تسكين جاشهم وفصل الواحد عن الآخر فما هو الا ان فعلنا ذلك حتى انصرفوا من منزلي دون ان يودعوني كانما هم ينصرفون من الحارة فقلت لفبريس ماذا تقول اهل ثغني عليهم فيما بعد وتفضلهم على العالمين فقال لا وحيوتك اني آخذت نفسي على دعوتهم الى مائدتك ولست اعود فيما بعد الى مثل ذلك

فصل
في ما اتاه جلبلاس اكرامًا
ابن الملك

ولما علم الناس اني مقرب من الوزير صاروا يستميلون رضاي ويقصدونني بالهدايا لاقضي مصالحهم فاما من كان يعجل في دفع المال فكانت حاجته منقضية لوقتها واما من كان يانس مصلحة دون مال ولا هدية فكنت اماطله ايامًا طويلة حتى يضيق صدره ويعدل صبره . وعهدي بنفسي اني رفيق القلب من قبل ان اتولى مرتبتي عند الملك فلما توليتها قسي حتى كانه قطعة من صخر . وكان يغدو الى بابي جماعة من الذين صاحبتهم في زمن الشباب ويخاطبونني في بعض اقاربهم واصدقائهم من دون ان يشتروا المعروف بالثمن فكنت اماطلهم واحاولهم بالصبر . ولقد جاءني في بعض الايام يوسف خولي بلشاصر يخاطبني في ابن عمه من غير ان يستميلني بهدية فاماطلته حتى اشترى هذه المرتبة طالب بالف درهم فطوقت اليه امرها فاقبل يوسف يعاتبني على ذلك ويذكر ما له علي من الجميل فقلت له على سبيل الخداع ان خلدرون هو كان الموظف لهذا الرجل فذهب ثم لم يرجع فقدرت انه يكون علم الحقيقة غير انني لم آسف من انقطاع زيارته لاني احببت وانا في مقامي من الدولة ان لا يزورني الخول ورجال العامة كثيرًا

ولقد تقدم الكلام اني كنت احمل صررًا من المال في كثير من الايام الى الكونت دي ليمس فاني

لمجلسه في بعض الايام اذ قال لتعلم ياجليلاس اني بلغت ما كنت ارجوه من ابن الملك من المنزلة عنده ولم يبق علي لاستمالة رضاه الا ان النمس له شيئاً يلهو به وهو طلب الزيجة فتدبر الامر بحكمتك وعد الي بالجواب فلما انصرفت من مجلسه فكرت بالامر برهة فلم يظهر لي وجه من حيلة من الحيل فعولت على سيبون في التماسها وذكرت له اني اطلبها لنفسي وتقدمت اليه ان لاتكون من العوام فسعى في طلبها حيناً حتى وقف على موضعها وذكر انها حسناء تخجل البدر بجمالها وان قهرمانتها اخبرته بانها تدعى دلال وان لها عمة جميلة الصورة ايضاً لا تسلمها الا الى امير لايحسب في انفاق المال ولا يكون ماشياً للسر فظننت ان تكون هذه الفتاة وعمتها من الغانيات فقال سيبون لاتظن هذا انما معاشها من ضيعة تغل لها قدراً من المال في كل عام ولم اعلم من الجيران انه دخل دارها احدٌ من الشبان

هذا كلام سيبون الي وقد كانت عادتي ان لا انخدع بجميل النساء غير اني لما دخلت دار هذه المرأة ورايتها وعمتها في مجلس لطيف وملبس نظيف ظننت ان تكون من بنات الخدر واعجبت بجمالها ودلالها وكلفت بها ونسيت اني جئت في خدمة ابن الملك فقالت العمة لاتطيل الكلام اكثر من هذا . قد اتصل بي انك امير مقدم في دار الملك فاذنت لك بالدخول علي واخرجت اليك ابنة اخي فان اعجبت بها فهي لك زوجة والا فلا تكون مولاة لاحد . فلما سمعت كلامها انتبهت لنفسي وفطنت لوصية الكونت التي كنت ان اغفل عنها بعد كلفي بدلال فقلت ياعمة ان دلالاً لفخر البنات ولست اراني اهلاً لان اكون لها عرساً بل اراها تصلح لابن الملك فقالت وهي تظن اني قصدت المزاح ان كنت لاتروم الزفاف عليها فلم تهزا بنا بهذا الكلام فقلت علم الله ياعمة اني النمس فتاة تصلح لمجالسة ابن الملك ولم اقف على اجمل من ابنة اخيك . فوقع كلامي من نفسها موقع الرضى والقبول غير انها تظاهرت بضد ذلك وقالت انها لاتجعل ابنة اخيها مولاة لاحد كانما هي تتخذ الصدود صناعة قد مهرت بها فقلت لا تتولي هذا بل اذكري يوماً يجلس فيه ابن الملك الى دلال ويجزل اليها العطاء بالهدايا والاموال من قبيل الخطبة . ولم ازل بها بمثل هذا الكلام وهي تتظاهر بالتنغص من ذلك لشدة دهائها ومكرها حتى اجابت دعوتي على شرطين الاول ان اعلمها في اي يوم يزورها ابن الملك والثاني انه اذا زارها لم يدخل دارها الا مع خادم او تابع من حاشيته ليس غير

فانطلقت الى الكنت دي ليمس في طفل الغداة واخبرته بما جرى من الاتفاق مع الفتاة فسر لذلك واحب ان يراها قبل ان يذكرها لابن الملك فانطلقت به اليها فاعجب بها وامرني بان اذكر ذلك للوزير واطلب منه الف دينار لنحملها الى ابن الملك فلما اخبرت الوزير بالقضية ذكرت اني انا كنت الواقف على موضع الفتاة (ولبس سيبون) كانما اطلب الفخار بذلك فقال ما كنت احسبك جسوراً بهذا المقدار وعهدي بك انك من بلغاء الكتاب فمنذ متى صرت الى مثل هذا . فقال لي الم يطلب الكنت منك مالاً فقلت نعم وهو يطلب منك الف دينار فقال خذها اليه ولا تتاخر ساعة عن ذلك

فصل
في جلوس ابن الملك الى دلال
وما وصلها به من الجوهر
والاموال

فلما حملت المال الى الكنت امرني بان احملها الى

الفتاة وان ابلغها ان ابن الملك يزورها في عشاء غد واعزم عليها ان تتزين باقصى ما تقدر عليهِ . وان اقف بعربتي من تحت الليل في ساحات القصر دون ان ادع احدًا يفطن لي حتى يأتي ابن الملك سرًا ونركب العربة معًا . فمضيت الى منزل الفتاة وبلغتها امر الكنت وعزمت عليها ان تقتبل ابن الملك بما ينبغي من الاعزاز ثم رجعت لشأني حتى اظلم الليل فوقفت بعربتي في بعض ساحات القصر واذا بالكنت قد اقبل وقال ان ابن الملك لا يقدر على الركوب الا في منتصف الليل وانهُ قد تظاهر بانحراف مزاجه حتى لا يدخل عليهِ احدٌ ولا يعلم غلمان القصر انهُ متجهز للركوب في هذه الليلة . فلبثت انتظر برهةً فلم يأت احد فظننت انهُ انصرف عن عزمهِ او لم يبلغ غايةً من حيلتهِ او يكون قد سار مع الكنت من غير طريق فعزمت على الرجوع واذا بهما قد اقبلا على خيفة وخفية فركبا العربة وركبت انا بجانب السائق لادلهُ على الطريق حتى اذا صرنا على خمسين خطوة من دار المرأة نزلنا واحدًا بعد واحدٍ فوجدنا الدار ملتمعةً بالشموع واصبنا المرائين في اجمل زيٍّ وافخر زينة فسر ابن الملك سرورًا لا مزيد عليهِ واعجب بالجاريتين عجبًا شديدًا حتى قال انهُ لو لم يجد الفتاة للمال الى عمتها اذ ان كلتاهما في قولهِ آية من آيات الجمال . ثم عمدت دلال الى عودٍ في الخزانة فاصلحتهُ وضربت عليهِ اصواتًا طرب لها ابن الملك حتى صار يقوم ويقعد وكان من وجودهِ لاسباب اللهو انهُ جلس في دارها الى طلوع الفجر

وفي غد اليوم بينما كنت احدث الوزير بالقضية اذ دخل علينا الكونت واخبرنا ان ابن الملك قد فتن بدلال وانهُ يروم ان يهديها جوهرًا تبلغ قيمتهُ ثلاثة الاف دينار ووعدني بان يفيني هذه الدنانير يوم يكثر المال بين يديهِ او يصير الملك اليهِ فقال لهُ الوزير ان المال لدي حاضر ولنا ان نوجه جليلاس في مشترى الحلى قال هذا وهو يتبسم على سبيل الاستهزاء فقال الكونت ما الخبر وما وراء هذا الابتسام فاخبرهُ على الفور بقصة كاميلية وكيف اعطيت ماسًا واخذت زجاجًا بدلهُ فضحكا من ذكر هذه القضية برهةً ثم سار الكونت الى مخزن جوهري وابتاع منهُ جوهرًا بثلاثة الاف دينار وحملهُ الى ابن الملك فاعجب بهِ ووصاني الامر بان احملهُ الى دلال فمضيت فورًا الى منزلها وكان من سرورها وسرور عمتها لمرأى الذهب والجوهر ما لا تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عنهُ حتى انهما كادتا تضيعان عقلها ولم تنتبها لما تقولان فنبهت من كلامهما انهما من العوام فرجعت الى منزلي لاسأل سيون عن القضية فاذا هو بين ستة من اصحابهِ قد جلسوا ياكلون ويشربون ويتحدثون وقد علت ضوضاؤهم وارتفعت ضجتهم فقلت لهُ ما هؤلاء الرجال أهل انهم علماء مثل اصحاب فيريس فقال لا ولكن بينهم رجل غنيٌّ يلتمس مصلحة من الوزير وقد احضرتهُ لا تناول منهُ المال بما يكون من معاضدتك لهُ فقلت لهُ لا باس من ذلك واستمر على منادمتهم فاذا انتبهت في الصباح فادخل اليَّ فان لي اليك حاجة

فلما دخل عليَّ في الغداة سالتهُ عن صدق الخبر فقال يا سيدي لدلال قصة غريبة رايت ان اطرفك بها فانها من طليطلة تيتمت عن ابويها وهي ابنة خمس عشرة سنة فتزوجها فتىً من اولاد النعيم وبات معها نحوًا من ستة اشهر ثم ترملت عنهُ فباعت عقارهُ وحازت اموالهُ وانضمت الى صديقتها التي تزعم اليوم انها عمة لها ومكثت معها اياماً طوالاً حتى وصلت الشكاية عنهما الى الشرطة فهربتا الى مدريد واستاجرتا دارين متلاصقتين بينهما سرداب سريٌّ واتخذتا لديهما قهرمانة فاذا ظهرت دلال في البيت الذي فيهِ القهرمانة قالت

انها سنها وسمت نفسها بدرًا واذا ظهرت في دار الصديقة قالت انها عمتها وسمت نفسها دلالاً فلما سمعت كلامهُ قلت قد قتلني الجزع أهل بدر هذه هي مولاة خلدرون النائب فقال نعم انها لهي وخلدرون يزورها في دار القهرمانة ولا يعلم انها تنتقل الى المنزل المجاور وقد كان ظني انك تسر من هذا الخبر فقلت كيف اسر والخوف كلهُ من خلدرون فقال لا تجزع ان اخبرت الوزير بذلك لم يبقَ عليك خوف من جهة خلدرون فاسرعت الى دار الوزير واعلمتهُ بالامر فضحك منهُ واذهب عني الخوف وهو يقول ان خلدرون يتشرف بان يترك خطيبتهُ لابن الملك فطابت نفسي لذلك وصرت ازور دلالاً لخدمة ابن الملك كما رايت قبل هذا

فصل
في ان جلبلاس نسي اهلهُ وهو في مرتبتهِ عند الوزير

قد تقدم القول سابقًا انهُ كان يروح ويغدو على بابي جماعة من اكابر الدولة واعيانها في الناس شفاعة او مساعدة او توصية وقد فاتني وصف الخيلاء الذي كان يستحوذ عليَّ لذلك او ان ما ذكرتهُ في الفصول السابقة لا يفي بحق الوصف لاني صرت لا اقبل ان استمع الكلام بل كانت ترفع اليَّ القصص كما ترفع الى الوزير نفسهُ وكنت في هذه العظمة والفخامة قد نسيت اهلي وما عدت اريد ان يحدثني عنهم احدٌ فخجلي من ذلك حتى دخل عليَّ في بعض الايام فتيٌّ من اهل وطني وعرَّف نفسهُ اليَّ وذكر انهُ كان يلعب معي في المدرسة فانقبضت لكلامهِ وما يذكرني بهِ من الامور التي كنت اجدها عيبًا وانا مقدم بين عظماء الدولة فقلت لهُ انت تذكر هذا ولكني لا اذكرهُ قل ما شانك قال لا شيء الا اني جئت هذا البلد لبيع تجارتي وقد سمعت انك مقدم في دار الملك ولك شيء كثير من المال فقصدت ان اهنئك واراك لاطمئن اهلك عنك بعد رجوعي الى القرية فلما ذكر ذلك لم ارَ بدًّا من سؤالهِ عن حال ابي وامي والخال جلباز غير اني فعلت ذلك على غير رغبة واشتياق فقال والله يحزنني ان اراك على غير المبالاة باهلك . هم يجلسون على بساط الذل وانت تتقلب على مهاد الدعة فاذكر ان اباك سائق العجلات وامك من بعض الخادمات وخالك يكاد يدركهُ الممات فما كان يضرك لو كنت ترسل اليهم كل عام قدرًا يسيرًا من المال لتصلح حالهم على حين لا ينقص شيء من مالك فلما ذكر ذلك بهذه الجراءة اجفلت منهُ ولم اجب دعوتهُ لما نالني بها من الاهانة ولو كان اخذني بالرقة لكنت اجبتهُ الى ما اراد . فقمت اليهِ ودفعتهُ الى خارج الدار مطرودًا وصرت افكر منهُ بابوي وارحم لهما واشفق على حالهما من الفاقة والاعواز حتى كدت ان ارسل لهما مبلغًا من الدنانير . ثم مضت الايام سراعًا وانقضت الاعوام تباعًا وانهمكت في مهام الدولة فنسيتهم وذهب ذكرهم عن بالي . واظن ان في العالم كثيرًا من الابناء الذين يخجلون من ذكر اباءهم وينسونهم مثل ما نسيتهم طول هذه الآماد

وقد لحظ بعض الاصدقاء وانا في اوج العلاء اني صرت متغير الطباع والخصال حريصًا على جمع المال فقال لي فبريس ذلك الصديق الانيس بالله لمَ تغيرت طباعك والفت التفكر بعد ان كنت مملوءًا نشاطًا وخفة اعكفت على طلب المال حتى فقدت لهُ راحتك وانت تعلم انهُ يتعب الخاطر ويفرق بين الاخوان فقلت لهُ انت واهم يا فبريس اني ارانيَ مثل ما كنت من قبل مع الخلان فقال انت لا ترى ذلك

اذكر كيف كانت مودتنا في الزمن الاول وكيف كنت اجيء اليك في صباح الايام فتفتح لي الباب بنفسك والنوم لا يزال على عينيك فادخل مخدعك والقلب مفتح اليك واحدثك وانت اقرب مني من الاخ الى اخيهِ . وانظر ما صرت اليهِ اليوم واذا قصدت بابك اوقفني الحاجب حتى يستاذن لي واذا دخلت عليك اصبتك في شغلك فاكرًا بما انت فيهِ واذا كلمتك لم تجبني الا باوجز عبارة واذا جلست ظهر لي كان زيارتي ثقيلة عليك . فهذا آخر العهد بيننا ولست تراني بعد اليوم . فلما اتى على كلامهُ رايت كانهُ يصيب شعائري بنثر يبهِ فانقبضت منهُ وتركتهُ ينصرف دون ان اوقفهُ . وقد ضاعت مودتنا اوانها فترت على الاقل من جرّاء نصيحة كنت خليقًا بان استوعب حكمتها واجرى على مقتضى رسمها لان شر اللئامة ان لا يعرف الرجل صديقهُ وهو في بحبوحة الدعة والرخاء

الجزء التاسع

فصل

في ان جلبلاس خطب ابنة جوهري كثير المال

قال جلبلاس وفي ذات ليلة بعد ان صرفت الاسياد الذين تعشوا عندي سالت سيبون هل توفق في ذلك اليوم الى ايجاد امرٍ ما فقال نعم وجدت فتاة اريد ان ازوجك منها وهي ابنة جوهري فقلت على سبيل الاحتقار قد اضعت عقلك اتزوجني ببنات العوام وانا مقدم بين عظماء الانام فقال لا تحسب هذا محقرة لقدرك فان تعلم ان مهرها مائة الف درهم تر انها من بنات النعم فقلت اتوكد ان مهرها يبلغ هذا القدر من المال فقال كذا بلغني من مصدر يركن اليهِ . فطمعت نفسي في هذه الدراهم وقلت لهُ اني رضيت بالزفاف عليها فمتى اقبض المال فقال مهلاً ياسيدي لابد لنا من السعي فقلت لك عليّ عشرون الفًا ان بلغت من السعي غايةً

فلما كان بعد ذلك اعلمني سيبون انهُ خاطب فيَّ الجوهري وخطب لي منهُ ابنتهُ حتى اقنعهُ على مصاهرتي بشرط ان يتفق ما ذكرلهُ عن منزلتي في الدولة فقلت لهُ هذا اهون ما يكون ولكن قل لي هل ابنتهُ جميلة الصورة فقال ليس لها من الجمال مالها من المال فقلت هذا لا اعباء بهِ لاننا نحن معاشر الكبراء تجمل وتتزين . . . قال ويعزم عليك الجوهري ان تتعشى عندهُ الليلة كما انهُ وعدني ان يتعشى في غدٍ عندك والمقصود من ذلك ان يخبرك ويمتحنك فقلت اني اراني اعظم في عينيهِ بعد هذا الامتحان وسامضي اليهِ بعد انصرافي من الديوان فلما كان ذلك الوقت مضيت الى دارهِ فاقتبلني بوجه طلق واخرج الي امرأتهُ وابنتهُ فحيتاني بالاكرام ورايت الابنة على خلاف ما وصفها لي سيبون فاما ان الحلي كان يغطي معائبها واما اني كنت انظر اليها من خلال المهر والصداق فلم افطن لعيبها على الاطلاق . ومضت تلك الليلة في احسن ما يكون وقد علاني البهر لكثرة ما رايت من آنية الفضة والذهب مبثوثة في كل موضع من البيت بما عللت النفس ان يكون لي بعضهُ بعد الاقتران بهذه الفتاة

وفي اليوم التالي دعوت الجوهري الى مناولة الطعام في منزلي ولما لم يكن عندي من الفضة ما ابهره بكثرتهِ قصدت ان ابهرهُ بغير ذلك فدعوت الى العشاء جماعة من الامراء راحوا يتحدثون بعظائم الامور ويمجدون انفسهم ويبالغون في ذكر عظمتهم وقدرهم حتى راى الجوهري نفسهُ حقيرًا بينهم ثم اتفق انهُ وقع

الحديث عن الزواج فقلت انا على سبيل الاتضاع اني ارضى بان أُمهر بمائة الف درهم فقالت الامراء هذا قليل . لو كنا بمكانك من الوزير لما رضينا بمثل هذا القدر الذي قنعت به فلما وقع كلامهم في اذن الجوهري عظم قدري في عينيه وانصرف وامري معه كاحسن ما يكون

فلما كان الغد وجهت سيبون اليه للوقوف على اعتماده في مصاهرتي فاظهر له غاية السرور وقال انه لم يبق عليه الا ان يسال عن طباعي وهل لي خصلة سيئة مثل معاقرة الخمر والمقامرة في اللعب فقال له سيبون لا تسالني عن سيدٍ أعيب ما فيه ان ليس فيه شيء من العيوب . وانت تعرفني بمكاني من الخلوص لك اني لو وجدت فيه خصلة ذميمة ما اقدمت على خطبة ابنتك له . فقال له حسن قد نويت على ان ازوجه من ابنتي وحتى لو لم يكن في مرتبته العظمى عند الوزير لما رفضت خطبته وهو على ما وصفته لي من المروءة والكرم . فعاد اليّ سيبون واخبرني بما جرى بينهما من الحديث فمضيت الى الجوهري لاشكره على ما له لي من حسن الظن ثم انطلقت به الى مجلس الوزير وقد كنت اخبرته بالقضية قبل ذلك فاحسن الوزير وفادته اكراماً لي واثنى عليه من اجل انه يصاهر رجلاً من افاضل الرجال في قوله . فسر الجوهري لذلك ووعدني بان يجوزني ابنته بعد ثمانية ايام

فصل
في ان جلبلاس ردّ لدون الفونس
معروفه

واتفق في غضون تلك الايام اني ذكرت دون الفونس سيدي القديم وقابلت جميله بجميل اخر وذلك اني علمت ان بلنسية خلوٌّ من عامل يقوم باعباء ولايتها فقطنت لدون الفونس ورايته يصلح لهذه الامارة كما انها صالحة به فكلمت الوزير بذلك فلم يتردد في القبول بل اظهر المسرة لاقراري بالمعروف القديم وقال ان آل دون الفونس من خدم الملك الاخصاء والذين معه غرضهم في السياسة فيسره ان يوليهم المناصب العالية . فتركته ومضيت عن امره الى مجلس خلدرون لآخذ منه الكتاب والامر بذلك فالفيت عنده عالماً من الاسياد يلتمسون لهم المصالح وهو غير مبالٍ لمقاماتهم ولا موفيهم حقوقهم من الاعتبار على اني رايت جماعة يهزاون منه فانقبضت منهم لاني كنت افعل بالناس في ذلك الوقت مثل ما يفعل بهم خلدرون فلما ان رآني وقد كان يتكلم مع بعض الاسياد اعرض عنه ووثب من كرسيه واقبل علي يعانقني ويكرم وفادتي فتعجبت من ذلك ولم يسعني الا ان استقبله بمثل ما استقبلني به من الاكرام واخبرته بما جئت التمس منه فوعد ان يكتب الكتاب من الغداة ثم ودعني الى الباب الخارج وصافحني مرة ثانية فانصرفت وانا متعجب من تجمله في الكلام بما ظننت انه يفعله لامرين فاما انه يشتغل سراً في ازالة نعمتي واما انه يستميلني للشفاعة عند الوزير اذا نكب به .

فلما كان الغد دخلت عليه فرايت بين يديه جماعة يكاد الا ينظر اليهم لكبريائه فجرت له موعظة زاجرة رايت ان ادونها في هذا الكتاب لتكون عبرة لمن يكون في المناصب العالية وهو يحتقر الناس

وذلك بينما كان في مجلسه اذ دخل عليه رجل عليه ثياب نظيفة لكنها ليست من الحرير وليس في وجهه ما يدل على عظم شانه فسالة عن قصة رفعها بالامس الى الوزير فلم يرفع خلدرون طرفه اليه على سبيل الاحتقار ولكنه سالة عن اسمه (والسوال عن الاسم في بعض الكلام تحقير) فقالت لتعلم اني قائد جيوش الدولة

في الثغور فلما سمع ذلك انتصب قائمًا اجلالاً له واخذ في طلب المعذرة فقال له اجلس اني لست بعاذرك وقد طال ما سمعت عنك من تحقير الناس فلتكن لك هذه موعظة قال هذا وانصرف من مجلسه غاضبًا فلما رايت ذلك غصصت بريقي وصرت اوفي الناس حقهم من الاعتبار ايًا كان لباسهم وهيئاتهم

ولما اخذت المنشور القائل بتسمية دون الفونس اميرًا على بلنسية وجهته اليه بريد خصوصي مع كتاب امضاه الوزير ووقّع عليه الملك ولم احرر كتابًا له اخبره به عن اهتمامي بتوليته الامارة لاني احببت ان اذكر له ذلك حين يجيء الى الحضرة ويتقلد السيف على محضر من الامراء والاعيان

فصل
في ما عاق جلبلاس عن زفافه

قال جلبلاس قد مضى بك اني كنت موعودًا لان ازف على ابنة الجوهري بعد ثمانية ايام . وكان ابوها قد اشترى لها جهازًا غالي الثمن وكنت احضرت لها قهرمانة ووصيفًا وغلامًا دبرهم لي سيمون الذي كان ينتظر الزفاف بفروغ الصبر ليقبض المال الذي وعدته به . فلما كان مساء ليلة يوم الزفاف تعشيت عند عمي مع اقاربه واهله وكانوا قد سروا غاية السرور لمصاهرتي فسايرت خطيبتي وجملت الكلام مع امها وانقضت السهرة بعد منتصف الليل كاحسن ما يرام وقد وعدني العم بانه يحمل اليّ المهر في صباح الغد .

فركبت عربتي وقصدت المضي الى منزلي

فلما بعدت عن دار الجوهري نحو مئة خطوة اذا برجال وفرسان قد احاطوا بعربتي وصاحوا بي قف عن امر الملك ثم اخرجوني بعنف والقوني في هودج وركب معي واحد منهم وامر السائق ان يمضي الى سغوفية حيث السجن المخوف فوقعت في جهد لا يعبر عنه باللسان وقصدت ان استعلم من الراكب معي عن الامر فاجابني بالسب والشتيمة فقلت يا هذا ربما لست طلبة الملك فقال لا انما انت جلبلاس وانت بغية الملك فصبرت حتى وصلت الى قلعة سغوفية وطلس بي في سجنها المظلم

فبت تلك الليلة على الفش اليابس وانا اقلب الافكار عن سبب نكبتي فظننت ان يكون خلدرون هو المدبر لانه نقمني بعد ان وقف على قضية مولاته غير اني ترددت في الجزم بذلك لاني رايت الوزير ارحم من ان يفعل بي شرًا ثم قلت قد يكون انه وقع ذلك على غير علم الوزير او انه اراد ان يبعدني عن الحضرة لغاية سياسية كما يكون احيانًا من الوزراء . فبقيت اتشوى على نار هذه الافكار حتى طلع الفجر ودخل عليّ الضوء من كوة صغيرة في اعلى الحائط عليها قضبان من حديد . فتحققت قباحة الموضع الذي انا فيه وذكرت النعمة التي كنت فيها بالامس فبكيت حتى بل دمعي الارض . فبينما انا كذلك اذ دخل السجان واتاني بارغفة وكوز ماء . فلما رآني بمكاني من اليأس ادركته الشفقة على غير عادة السجانين وانشأ يعزيني على مصابي ويؤملني بالفرج القريب . فارتفع صوتي بالبكاء والنحيب وبقيت يومي كله اعن من البلاء واسب الملك وارجو انقضاء ملكه لاني رايته يامر المسجونين بالخبز ليطول عمرهم فيطول عذابهم لا رحمة عليهم كما ذكر السجان

ولما دخل الليل سمعت الباب قد انفتح ودخل رجل بيده شمعة موقودة ترمي كبد الدجى بنور الوجل وقال أتعرفني يا جلبلاس انا هو ذلك الرجل الذي اوليتني المعروف يوم خاطبت في مطران غرناطة فقلت اذكر ذلك ولكن علمي انك سافرت الى المكسيك

قال كذا كان الاعتماد ولكن القدر جرى على خلاف المرام حتى صارت اليّ امارة هذه القلعة ومقصودي من الدخول عليك ان اسرّي عنك روعك واخفف مصابك لارد اليك جزءاً من المعروف الذي اوليتنيه وقد جاءني من الحضرة ان اجعل لك القش فراشاً والخبز الجاف طعاماً ولكني لا افعل ذلك فتعال معي لاجد لك موضعاً مليحاً قال هذا وصعد بي على سلم ضيقة الى غرفة في اعلى القلعة فيها مائدة عليها صحاف وشمعدانان بضيئان فقال ستتعشى الان معاً وتكون هذه الغرفة مخدعاً لك لتجد فيها راحة ولها مطلّ يشرف على الحقول الزاهرة فاذا تعودت السجن بعد ايام سرتك المناظرة الانيقة والمياه التي تنساب كالحيات بين خضرة النبات ولك مني كل ما تحب وعندي كتب اعيرك للقراءة فتنقضي ايام النكبة بتخفيف الهموم . فلما وعيت كلامه شكرت انسه واكرامه وقلت له انه احياني بهذا المعروف واني ان قدرت على مكافاته فيما بعد فعلت ذلك جزاء كرمه الموصوف فقال لا تايس من الدنيا ولابد ان تخلص يوماً من الاسر فقلت اراك تطمعني بالافراج عني كاني بك عارف بسبب نكبتي فقال نعم اخبرني الرجل الذي سلمك اليّ ان الملك اتصل به صحبتك لابنه مع الكتب دي ليمس الى منزل الفتاة فامر بك ان تلقى في السجن ونفى الكتب دي ليمس عن الحضرة فقلت ومن اين اتصل ذلك بالملك فقال لم يخبرني بذلك واظنه لا يعلمه نفسه

وبينما نحن في هذا الحديث اذ دخل غلمان بايديهم صحاف الطعام تفوح منها رائحة التوابل والادام حتى اذا وضعوها على المائدة اومأ اليهم بالتنحي عن موضعنا حتى لا يسمعوا حديثنا . ثم قفل الباب وجلس الى المائدة وغرف لي من الطعام وهو يظن اني سابتلع الاكل ابتلاعاً بعد طول الصوم فكنت امضغ اللقمة فتبقى في حلقي ولا استطيع بلعها لشدة ما كنت فيه من الجهد . وبعد ان فرغنا عن المائدة بقي برهة يعزيني على مصابي ويؤمناني برضا الملك عني بشناعة الوزير حتى طابت نفسي قليلاً واملت ان يكون كلامه صحيحاً لظني بان الوزير لابد ان يهتم بهذه القضية لان ابن اخيه شريك لي فيها . ولم يشغلني بعد ذلك الا التفكر باموالي ظناً بان تكون قد وقعت في ايدي خول الملك فصرت ابكي عليها حتى تحضرت جوارحي فغلبني النعاس فنمت الى الصباح واذا بغناء وضرب عود قد ايقظني من النوم فتعجبت لسماع ذلك في السجن واصغيت له فلم اعد اسمع شيئاً فظننت ان اكون واهماً واذا بالصوت قد تكرر وهو يقول

ان سنين النعيم تمر كالنسيم السريع
ولكن يوم الشقاء يرسو كالجبل الثقيل

فظننت ان يكون الخطاب موجهاً اليّ لاني كنت افنيت ايام الهناء عاجلاً وبقيت من ليل امس كمن هو في دهر من الاحزان . فتعجبت غاية العجب ووقفت اتساءل عن الامر واذا بامير القلعة قد دخل عليّ فاخبرته بذلك فقال هذا جارك قد اصابه ما اصابك من البلاء وهو من اولاد النعيم واسمه دون غستون وهو يغني في بعض الاحيان لينفي الاكدار عنه والاحزان وقد رايت ان اعرفك اليه لتتسليا في ايام النكبة فقلت عرفني اليه ولك عليّ اجزل المنة فانطلق بي اليه فلما رايته دهشت من جماله على عهدي بجمال الاسياد الذين كنت اراهم بدار الملك وكفى بذلك دليلاً على انه من آيات الحسن والبهاء فعقدت الصحبة معه وكدنا ان لا نفترق ساعة طالما كنا في السجن فاني لجالس اليه في بعض الايام اذ عمد الى العود وضرب عليه اصواتاً رقيقة وغنى ابياتاً يتظلم فيها من صدود النساء فقلت له اين النساء من صدودك وانت على ما اراك من الجمال فقال لا تعجب من امري مع محبوبتي واليك سرد الحكاية التي توقعت لي معها وهي

تنبئك عما نزل بي من البلاء

فصلٌ
في قصة دون غستون

قال جلبلاس حدثني غستون عن هذا السيد قال منذ اربع سنين جئت مدينة قرّية لازور عمة لي من اغنى الناس ولا وريث لها الا ابنة . وكان يسكن بازاء دارها سيدٌ من الاغنياء له ابنة يقال لها هيلانة كنت اراها كل يوم من الشباك وكانت بديعة الجمال فتانة المحاسن فوقع عشقها من قلبي وحاولت ان استعطفها بالاشارة فلم تنظر اليّ تيهًا واعجابًا فاعجبني ذلك منها ورحت استعلم عنها من الخلان فانبئت انهُ طلبها جماعة من الشبان لم ينتخب ابوها منهم احدًا وانما وقع رضاهُ على ان يزوجها من ابن اخيهِ فلم يمنعني ذلك من السعي في طلبها وصرت اومي اليه الى القهرمانة من الشباك وهي تجافى عن الاجابة كانها هي من اكابر الناس فرحت اطلب الوقوف على موضع احد من صديقاتها فعلمت ان عجوزًا تجلس اليها في كثير الايام فمضيت الى العجوز واطمعتها بالمال على ان تجمعني والقهرمانة في بيتها فاجابتني الى ذلك فلما كلمت القهرمانة ببلوغ العشق من فوادي ذكرت ان الحال صعبة وان ليس من سبيل الى ان تجد لي واسطة ولا ان تلين قلب مولاتها هيلانة فاعطيتها خاتمًا من الماس يساوي ثلثمائة دينار فلما حصل بين يديها كادت تطير من شدة الفرح ووعدتني بان تذكر لها اني كلف بجمالها تلفٌ بغرامها وراجعت نفسها في كلامها الاول وقالت ان الحال قد لا تكون بمكان عظيم من الصعوبة الى استمالة حبها وذكرت ان زيارة ابن عمها لا يمس نجاح مسعاي في شيء لانهُ بكثرة تردادهِ عليها قد حصل بينهما الملل والفتور كانهما يجتمعان بلا اشتياق ولا يسالان ان طال الفراق ووعدت وهو آخر كلامها انها تذكرني لها بالمديح وطيب الاحدوثة ولا سيما اني فضّلتُ ابن عمها بالكرم وحويت ما لا يحواهُ من محاسن الاوصاف

فلما رجعت الى مخدعي اخذت اضرب على العود هذه الاصوات التي سمعتها الان واشكو فيها صدود الملاح وكانت القهرمانة واقفةً الى جانب مولاتها فقالت لها على سبيل الاطلاع على ما في فوادها أ اطربك هذا الصوت فقالت نعم قد اعجبني الغناء فقالت اظنك سمعت الصوت ولم تنطوي للمعنى فقالت نعم اني ما اصغيت للكلام قالت القهرمانة يالهفي على دون غستون هذا الجار يقضي زمانهُ بالاعتمال فيما يتقرب بهِ اليك وانت لا تبالين بعذابهِ قالت من اين علمت ان دون غستون هو المغني قالت اليوم لقيتهُ في السوق فبكى واباح بوجده بمحاسنك والتمس ان لا يطول جفاؤك لهُ وانهُ يكون اسعد الناس اذا مننت عليهِ بنظرة منك . فغضبت هيلانة من كلامها لما يخفض عنها من الخيلاء وقالت عجبت لنقلك اليّ حديثهُ فان كلمك مرةً ثانيةً فوبخيهِ واعذليه وحذريهِ الرجوع الى مثل جرأتهِ وقولي لهُ ان يكلف بمن يبالي بخلاعتهِ ويصغي لمعنى ابياتهِ وان لا يطيل الوقوف الى شباكه لينظر ماذا اصنع في مخدعي فقد كفى منهُ سوء التظاهر بغير الادب

فلما اخبرتني القهرمانة بذلك آيست من بلوغ الارب وكادت تتفطر مرارتي من الحسرة . فلما رأتني كذلك غلب عليها ضحك الاستهزاء وقالت طب نفسًا اني اضمن لك الوصل على ان تكتب اليها كتابًا تودعهُ ارق العبارة حتى يملك نفسها فقد طالما قالت الشعراء

لا يؤيسنكَ من مخبأةٍ

قولٌ تغلظهُ وان جرحا
عسر النساء الى مياسرهِ
والصعب يمكن بعدما حمحما

فاطمانت نفسي عند ذلك وبادرت الى تحرير الكتاب وذكرت فيهِ مبلغ عشقي لها وقلت اني اطيع امرها بان لا اقف الى الشباك ولكني اتبعت ذلك بالقول ان انقطاعي عن مرآها يفضي على حياتي اسى وجوًى فلما وقفت الفهرمانة على الكتاب اعجبت بهِ وقالت وهي منصرفة لله انتم يا رجال انكم ادهى باغراء النساء منهنَّ بابداء الجفاء ثم حملتهُ الى مولاتها وهي توعز اليَّ ان لا افتح الشباك الى انقضاء بضعة ايام . فلما اجتمعت بهيلانة على خلوةٍ قالت لها ياسيدتي لما رآني دون غستون سالني بتذلل هل خاطبتك فيهِ وخطبت لهُ منك المودة ووقف ينتظر الجواب كالمجرم الذي يتوقع قراءة الحكم عليهِ بالاعدام فقطعت عليهِ الكلام وابتدرتهُ باللوم وعذلتهُ واطلت في تعنيفهِ وتركتهُ في الطريق حائرًا باثرًا يكاد الاَّ يهتدي الى حالهِ فقالت هيلانة لنفسها الحمد لله الذي خلصت منهُ ثم قالت للفهرمانة اني اشكرك على ذلك لكني ما كنت احب ان تستعملي القساوة لردعهِ عن غيهِ وهو بمكانهِ من التذلل فقالت لها ياسيدتي ليس من سبيل الى صد العاشق الولهانَ الا باللوم والتعنيف وحتى اني ما رايت دون غستون قد اقلع عن عشقهِ لك مع كل ما تقدمت اليهِ بهِ من الشتيمة والاهانة لاني بعد ان انصرفت من مجلس عمتي العجوز لقيتهُ في الطريق هائمًا وهو في حال من اليأس ينفطر لها الفؤاد فحصل في نفسي تاثير شديد لذلك ولم استطع سبيلاً الى الكلام فلما رآني بذلك الاضطراب انتهز الفرصة والقى بين يدي كتابًا لا ادري ما هو ثم توارى سراعًا عن بصري قالت هذا واخرجت الكتاب وطرحتهُ بين يدي مولاتها على سبيل المزاح . فلما وقفت هيلانة عليهِ ظهر الكدر على وجهها واستولى عليها الوجوم برهةً ثم صاحت بفهرمانتها ويحك يا حمقاء ايسوغ منك ان تقبلي منهُ الكتاب حتى يكون لهُ مجال للظن باني وقفت عليهِ وتعرضي خيلائي للذل والهوان فما انت الا خائنة بين الفهرمانات فاجابت الفهرمانة ياسيدتي خفضي عنك ما تقولين ولا تظني ان قد تعرض خيلاءك للذل فاني اقول لهُ حين اراه انك اخذت كتابهُ بيد الاحتقار ومزقتهِ من قبل ان تقفي عليهِ فيزيد ذلك على حسراتهِ قالت كذا ليكن كلامك معهُ ثم اخذت الكتاب ومزقتهُ وامرتها بان لا تخاطبها فيَّ فيما بعد

فلما وقفت على ما جرى بينهما من الحديث وقد حرم عليَّ فتح الشباك وأعيتني الحيلة في استمالة هذا الغزال وقع في نفسي ان اغني تحت روشن لها تجلس فيهِ بعد العشاء فجمعت جماعة من المغنين من تحت الليل ووقفنا تحت الروشن واخذنا نضرب على العيدان ونغني ارق الاصوات واحبها الى اهل العشق واذا بابن عم هيلانة قد وثب علينا بغتةً وصار يطعن فينا بحربتهِ ذات اليمين وذات الشمال وقد كان اخبرها كان من امري مع ابنة عمهِ فهرب المغنيون وانفض جمعهم ولم يبقَ الاي في ذلك الموضع فعمدت الى حربتي ووثبت على هذا الجسور لانواقع عليهِ بالضرب والعراك فالتحم بيننا القتال وعلت ضجة السلاح فطلت هيلانة من الشباك وراعها امري مع ابن عمها فملأت الدار صياحًا فنزل ابوها مع خدمهِ للافاة الامر ففاتهم الوقت وهرب عدوي وبقيت انا مصروعًا على الارض اختبط بدمي فحملوني الى دار عمتي وأُسلمت الى حجام ماهر اخذ يداوي جراحي حتى برئت منها باذن الله . وكانت الناس قد ادركتهم لي رحمة وبكت علي هيلانة بدموع الرحمة كانما تحول صدودها الى العاطفة وجفاؤها الى اللين وسمعت من قهرمانتها انها ما برحت تشتم ابن عمها على غروره وتتأسف على شبابي

ظنًا باني لا اكون من اهل الحيوة . فلما برئت من الجراح نحل جسمي من تغلب العشق وهو داء كان عليَّ اشد من داء الجراح فرأت عمتي ان تخطب لي هيلانة من ابيها لعلمها باني اموت كمدًا ببعدها عني فلم يتردد ابوها في اجابة ملتمسها ظنًا بانهُ لا يرى ابن اخيهِ اخر الدهر حتى اذا استرضى هيلانة في ذلك ما انكرت عليهِ قبولهُ . ثم جاءت القهرمانة واخبرتني بحسن عاطفة مولاتها عليَّ فحمدت الله على هذه الجراح التي نلت بها الارب وصرت اتردد الى مجلس الحبيبة باذن ابيها وكانت منادمتي لها من اعذب ما يحلو للعشاق

ولما طالت ايام الخطبة عين الزفاف لاجل قريب يكون فيهِ عيد يحتوي اسباب المسرات ويتسابق العظماء في المضمار على ما جرت العادة في زفاف المتمولين والامراء . وكنت قبل العيد قد صنعت طعامًا في النهار ودعوت اليهِ اكابر الناس وعظمائهم وندبت اللاعبين ليشخصوا لنا بعض الالعاب فاننا لفي معمعة الرقص اذ دخل علي حاجبي وقال ان بالباب رجل لهُ الي حاجة فخرجت اليهِ فسلم الي كتابًا من لدن ابن عم الخطيبة يقول فيهِ اني ان كنت اطلب الانتقام فعليَّ ان ابرز من الغداة الى الفضاء لابارزهُ واياه على خلوة فلما قرأت كتابهُ تسعرت في احشائي نار الانتقام وحدثتني نفسي بالخروج الى مبارزتهِ في ذلك الوقت غير ان فرض الواجب من مسايرة الضيوف اخرني عن ذلك فقلت للرسول ان يبلغهُ عزمي من الخروج الى الميعاد في بكرة الغد حتى اذا لاح الفجر ركبت اكرم الخيل التي كانت عندي ومضيت الى الموضع الذي دعيت اليهِ فوجدت خصمي واقفًا لي بالانتظار وبعد المعاتبة والاخذ والرد في الكلام ترجلنا عن الخيل واخذنا في الصراع بحدة وشدة فكان الخصم اكثر مهارةً مني في فن الفروسية غير اني تمكنت منهُ ببعض الحيل واحكمت الحربة في صدرهِ فوقع قتيلاً على الارض .

فانقلبت الى الدار التي اتخذت فيها وليمة الزفاف واخبرت خادمي بالقصة (وهو خادم كنت اتحقق امانتهُ واثق بخلوصهِ) وامرتهُ بان يمضي الى منزل عمتي ويخبرها بالواقعة ويأتيني منها بمال اتمكن بهِ على الهرب فسار اليها لوقتهِ ولم يلبث ان جاءني بصرر من المال وشيء كثير من الجواهر وقال لي ان عمتي قد سرت كل السرور من ظفري على الخصم اللئيم وانها وجهت اليَّ بهذا المال لاسافر الى حيث شئت ريثما تلتمس لي العفو من الملك

وكانت هيلانة في خلال ذلك قد تمكن منها اليأس والكدر وكانت ترجو ان يصفح الملك عني حتى لا يطول بعدي عنها غير انهُ جرى لسوء حظي امر اضاع املي وخيب مسعاي من الاقتران بها وذلك انهُ قدم مدينة (قرية) في تلك الايام شاب يقال لهُ زهير وكان المقصود من قدومهِ ان يرث عمةً لهُ من اغنى الناس . فلما توطن في تلك المدينة عرف اهلها وعرف ما يدور بينهم من الاخبار ولا سيما خبر هيلانة وقد وصف لهُ جمالها واثنى بحضرتهِ على عفتها وامتناعها فتشوق الى النظر اليها فتقرب الى ابيها بالملاطفة فاوسع لهُ في مجلسهِ واخرج اليهِ ابنتهُ فلما وقع نظره عليها اعجب بها وافتتن بجمالها فخطبها منهُ فلم يتردد في اجابة مسؤلهِ فاسترضاها في ذلك فابت الا ان تقيم على عهد المودة بيني وبينها فصار ابوها والقهرمانة (التي اظن ان زهيرًا رشاها بالمال حتى تلين هيلانة لما تريد قيادها) يشيران عليها بالقبول وهي لا تزداد فيَّ الا وجدًا وهياما فرأى زهير ان يستعمل الحيلة ليبغضها فيَّ فتوافق مع ابيها على خداعها وان يقولا لها اني توطنت في برمة من مدن ايطاليا واني خطبت هناك بنت بعض الامرا لعلمهما بانها اذا صدقت ذلك الخبر وهي بمكانها من الخيلاء وشرف النفس حنقت عليَّ ورضيت بهِ زوجًا ولو كان ذلك على سبيل النكاية فيَّ وزهير كتابًا

عن لسان بعض التجار في برمة الى تاجر من القرية يقول فيه بعد ذكر التجارة «انهُ قدم بلدنا سيدٌ يقال له دون غستون وهو يزعم انهُ من اولاد الشرفاء ويزعم ان له عمة في مدينتكم كثيرة المال وانهُ هو الوريث لها وقد خطب ابنة بعض الاسياد في مدينتنا فاجابهُ ابوها الى ذلك على ان يتحقق صدق ما يقول فان كانت له عمة في مدينتكم كثيرة المال كما يقول فافيدونا عن ذلك ولكم مزيد الفضل والمنة» ثم اسلم الكتاب الى ابيها ليقرأه فاعجب بهِ وراح يباشر الحيلة على ابنتهِ بنفسهِ فقال لها اي بني كنت انصح لك ان لا تتزوجي بقاتل ابن عمك وكان يضحكني ثبالك على عهدك اليهِ فاعلمي اليوم انهُ نكث بعهده . واقرني هذا الكتاب بنفسك الذي جاء بعض تجار بلدنا لتتحققي خلوصي في النصائح التي تقدمت بها اليك . فلما قرأت الكتاب وهي غافلة عما أُريد بهِ من الحيلة سال الدمع من عينيها تاسفًا على خيانتي لها ولبثت برهةً وهي لا تتكلم ثم غلب عليها الخيلاء فرفعت صوتها باهانتي وتحقيري وقالت اني اشد الرجال لئامة اذ كنت لا احفظ الزمام ولا ارعى العهود . ثم اخذت تسنهم اباها الى تعجيل زفافها على زهير ليسبق زفافها زفافي على ابنة السيد البرمي الموهوم فتسارع ابوها الى اجابة مسئولها وتزوجت بذلك الشاب من غير ان تظن في ذلك الكتاب امرًا . غير انها بعد ايام اخذت نفسها على سرعة الاعتماد وظنت ان يكون من الكتاب زورٌ مفتعل فالفت الكدر والغم فانتبه زوجها لذلك وصار يكثر لها اسباب الملاهي والمسرات حتى لا يتمكن الياس منها

ولما كان بعد ذلك كتبت اليَّ العمة انها دبرت مسالتي مع آل القتيل فرجعت الى القرية واخبرت بما كان من زفاف هيلانة على زهير فمزق صدري من الغم وصرت في حال من الياس لا يفي اللسان بالايضاح عنها فوجهت بمن ياتيني بالقهرمانة فجاءت واطلعتني على ما كان من حيلة زهير واقرت بانها كانت تستميل هيلانة اليهِ لما قد اعطاها من المال والجواهر لكنها وعدتني بان تجري ذكري عندها حتى تستميلها اليَّ مرةً ثانيةً . فلبثت انتظر اشارتها حتى وفدت عليَّ واخبرتني بانها التمست منها ان تاذن لي بمجالستها يوم يخرج زوجها للصيد فلما كان ذلك اليوم دخلت سرًا لخدعها واردت ان ابدأ بالمعاتبة فقالت ليس هذا موقف عتاب على ما جرى بهِ القدر وليس لنا ان نذكر العهود السالفة والمودة التي كانت بيننا انما اذنت لك بالدخول عليَّ لاعزم عليك ان تهجريني وتسلوني فاني وان كنت بالزفاف عليك اهنى مني مع زهير غير ان طالعي ابى الا ان يجري عليَّ هذا الامر . فقلت اما كفاني مصابًا جسيمًا وخطبًا اليمًا حتى ارفع ذكرك من خاطري الجريح وهو اعزّ ما بقي لي من الدنيا . اتظنين ان من كلف مثلي بحبك يقدر على السلوان

فقالت ان ذكرتني لن يجدك الذكر نفعًا لاني لا اجالسك بعد اليوم ولا اقف معك هذا الموقف الذي يجرح الخاطر . فلما سمعت كلامها جثوت على الارض بين قدميها وبكيت حتى برق قلبها عليَّ فما نفعني البكاء شيئًا فغلب عليَّ الياس حتى عمدت الى قتل نفسي فجردت خنجري وعلوت بها على صدرها لاطعن نفسي بها فتمامت هيلانة على يدي لملافاة الحال واخذت تثنيني عن عزمي بكلام ما وعيت لهُ لاني كنت اجهد نفسي للتخلص من يدها حتى امكن الحربة من صدرها واذا بزهير زوجها قد اقبل من وراء الستارة (وكان قد علم بجلوسي الى امراتهِ فلم يركب الى الصيد بل تخبأ وراء الستارة ليرى ما يكون من هذا الاجتماع) وصاح بي عش ايها الفتى ولا يغلب عليك الياس فقلت انقول انت هذا وقد كان الاحرى بك ان تقتلني بيدك بعد ما رايت مني

فقال لقد سرني ما قالتهُ لك زوجتي واحب ان تنسى هذا الامر وان يعود اليك الرشد فانصرفت من منزلهِ وانا مثل السكران لهول ما مضى بي ثم عزمت بعد ذلك على السفر لاسلو عن الحبيبة فجئت مدريد ولزمت باب امير من البرتوغال وانا غافل عن سره فاذا هو جاسوس يتجسس الاخبار ويدل العدو على عورات الاندلسيين فقبض علي الدوق ده لرمه الوزير الاكبر لظنهِ باني شريك الامير البرتغالي وطلس بي في السجن وهذا هو تفصيل ما جرى لي من الحوادث فلما وقفت على اخبارهِ ادركتني الرحمة لهُ فاخذت اسايرهُ في الكلام واطمنهُ عن صلاح حالهِ في المستقبل وان الوزير اذا اتصل بهِ خبرهُ وتبررت ساحتهُ مما تهم بهِ عفى عنهُ وولاه ارفع المراتب في الدولة

فصلٌ

في رجوع الآمال الى جلبلاس وفي اشتغال سيبون بالافراج عنهُ

قل لمن يحمل غمًّا ان غمًّا لا يدومُ
مثلما يمضي السرورُ هكذا تمضي الهمومُ

وبينما كنت مع دون غستون في الحديث دخل علينا امير السجن واخبرني ان بباب القلعة رجلاً يروم مجالستي ويذكر انهُ كان المقدم بين خولي . فعرفت انهُ سيبون ورجوت صاحب القلعة ان ياذن لهُ بالدخول لعلهُ يمدني برايٍ او يوقفني على خبرٍ من الاخبار فاجاب ملتمسي الى ذلك ولم يلبث ان خرج ثم عاد بهِ بعد قليل فتعانقت معهُ عناق الاخوان وابدينا كلانا فرط ما بنا من الاشواق ثم ابتدرنهُ بالسوال عن داري وعن اموالي التي اختزنتها فاخبرني ان متاعي قد انتهبهُ رجال الملك وغلماني انفسهم وانهُ كان لحسن الحظ قد وقف على موضع صرتين فيهما دنانير فاخذهما واودعهما عند الجوهري الذي خطبت ابنتهُ ليرجعهما اليَّ بعد الافراج عني من السجن . ثم سالتهُ عن سبب النكبة التي نزلت بي فاملني بقرب الافراج عني لقولهِ ان توقيفي كان على غير علم الوزير فقلت ومن ابن لك ذلك قال لما علم خلدرون ما كان من جلوسك الى مولاتهِ اخبر بذلك ابن الوزير لينتقم منك ومن الكونت دي ليمس ومن مولاتهِ فذكر ابن الوزير ذلك للملك وبينهُ وبين الكونت من العداوة ما علمتَ فامر الملك بدلال ان ترسل الى دير التوبة ونفى الكونت عن الحضرة وامرك ان تودع في السجن فهذا كلهُ من عمل ابن الوزير او بالاحرى من تدبير خلدرون

فلما وعيت كلامهُ وعلمت ان توقيفي لم يكن بعلم الوزير املت بان تصلح حالي فيما بعد لاملي بشفاعة الوزير لي وللكونت ابن اخيهِ فكان لهذه الامال في صدري مجال واسع وقلت ان للوزير جماعة من العظماء يتغرضون معهُ . او ان الملك لا تطول مدتهُ وفيهِ هذا المرض المزمن . فاذا خلا منهُ الملك قام ابنهُ موضعهُ وقرب اليهِ الكونت دي ليمس فاذا كان ذلك امر الكونت بالافراج عني وذكرني للملك الجديد فولاني ارفع المراتب وعوضني عن همي في السجن بكثير من المال والجواهر فكنت ارتاح الى هذه الامال وكان يسرني اكثر من ذلك كلهِ ما ذكر لي سيبون عن تحبئة الصرتين حتى كان من فرط سروري من امانيهِ اني وعدتهُ بان اقاسمهُ بما فيهما من الدنانير ولو لم يرضَ بذلك فقال انت احوج مني الى ان يكون لك هذا المال ولا اطلب

منك المكافأة الا ان تلتمس لي من صاحب القلعة ان ياذن لي بالبقاء معك فاسير من وقت الى اخر الى الحضرة لارى هل يجد فيها حادث او تتغير الاحوال فيفرج عنك . فطلبت ذلك من امير السجن فاجابني اليهِ فكان وجود سيبون بقربي من اسباب التعزية كما لايخفى

ثم ان سيبون وقع راية على ان احرر للوزير كتابًا التمس بهِ شفاعتهُ فكتبتهُ بعبارة رقيقة تصدت بها استمالة قلبهِ الى الرحمة فحملهُ سيبون اليهِ فلما قرأهُ الوزير وكان بحضرتهِ بعض رجال الدولة قال لهُ وهو يريد ان يوهم جلاسهُ انهُ لا يخالف امر الملك وان امر دلال جرى على غير علمهِ ورضاهُ لقد عجبت من جراءة صاحبك فقل لهُ اني غاضب عليهِ وان اثمهُ عظيم وانهُ يستحق هذا الجزاء الذي نزل بهِ عن امر الملك . فاراد سيبون ان يستميل رحمتهُ ويرقق قلبهُ فنظر الوزير اليهِ شذرًا وحوّل عنهُ وجههُ ولم يسمع لهُ كلامًا فانقلب سيبون اليّ واخبرني بما اجرى الوزير من الكلام فانخلع قلبي من الحسرة والاسف وعاد اليّ اليأس الذي كنت فيهِ لاول ما طلس بي في السجن او انهُ عظم عليّ عن قبل لانقطاع املي من شفاعة الوزير فمرضت من تغلب اليأس عليّ ولزمت فراش الحزن والاوجاع اياماً كان يعودني فيها وزير من وزراء عزرائيل ويجتهد في سرعة ترحيلي عن هذه الدنيا حتى كدت اموت من علاجهِ فلما دنا مني الموت تلوت وصيتي على سيبون وقلت لهُ اني اهبهُ صرة من الدنانير لهُ واكلف اليهِ حمل الثانية الى والديّ راجيًا منهُ الاعتذار عن سوء تصرفي بحقهما والاضراب عن اتمام الفروض التي كانت عليّ واجبة . ثم اشتد داتي حتى قطع الطبيب املهُ من شفائي فانقطع عن عيادتي فكان ذلك لي مجلبة للشفاء باذن الله فتعافيت شيئًا بعد شيء وصرت اعاتب نفسي على الرغبة في اباطيل العالم فرغبت عنها واعتزمت على اني اذا فرّج عني مضيت الى بعض القرى البهيجة وقطعت غابر ايامي في الحفل بعيدًا عن زينة البلاط واباطيل العالم

وكان سيبون هذا الوصيف الامين يشتغل في مدريد لالتماس العفو عني فتراءى لهُ ان يستميل رضا مرضعة ابن الملك لتشفع فيّ عند امراء الدولة فاطمعها بالمال فكللت رضيعها بذلك فلم يتردد في اجابة ملتمسها وطلب من الملك ان يفرج عني مرة بعد مرة فصدرت اوامر الملك بذلك وجاءني سيبون مبشرًا بها ولم يلبث امير السجن ان دخل عليّ وقال انت حرٌّ يا سيدي وابواب القلعة قد فتحت لك ولكن عليك شرط لا تستطيع لهُ مخالفة ويحزنني ان ابلغك اياه وهو ان الملك لا يريد ان تتردد الى البلاط ولا ان تسكن في مدريد بعد اليوم فقلت كذا كانت النية ان انقطع عن الدنيا وقد كنت التمس من الملك نعمة الافراج عني فاحسن اليّ بنعمة حبسي عن التردد الى بلاطهِ

فصلٌ

في انقطاع جلبلاس عن الدنيا وزهده فيها

ولما خرجت من القلعة ودعت دون غستون وامير السجن . وركبت انا وسيبون الى مدريد لنسلم الوديعة من الجوهري وكنت احدثهُ ونحن على درر الطريق عن معاش الحفل وجمال الطبيعة وانّا اذا جلسنا على بساط الخضرة بين ماء جارٍ كالفضة وفوق

رؤوسنا طيور تغرد على الاغصان . او انا اذا نصبنا الشرك لصيد السماك وتبعنا في الغابات الملهى والغزلان كان ذلك احب شيء من الدنيا الينا . ولم نزل في مثل هذا الحديث حتى وصلنا الى مدريد فاسرعنا الى منزل الجوهري فتلقانا بوجه طلق وابان لي كدره من نزول البلاء بي واعتذر عن تزويجه ابنته من اولاد بعض التجار فلم انتبه لكلامه وانما كان همي اخذ المال منه حتى اذا سلمه اليّ شكرت معروفه وامانته ونزلت الى السوق لاشتري لي حلة نظيفة ووجهت سبيون ليشتري لنا تخت روان نركب فيه الى اراغون حيث وقع الراي على ان نشتري هناك بيتاً وحقلاً يكون فيها ماء واشجار ومتنزهات فاني لفي بعض الاسواق اذ لقيت دون تياذوق وهو الشيخ الذي تبنى دون الفونس كما مر في الفصول السابقة فلما رآني اقبل عليّ وعانقني فابديت له التحية والسلام وسالته عن دون الفونس فاخبرني انه ضيف عنده وانه جاء مدريد ليشكر الملك على انعامه من اجل انه قلده ولاية بلنسية من غير ان يلتمسها لنفسه ولا ان يلتمسها له احد . فلما وعيت كلامه (وانما كنت الكاتب له بهذه الولاية) قصدت موضعه فاصبته جالساً يلعب بالشطرنج مع امراة دون تياذوق فلما رآني غلب عليه الفرح واقبل عليّ وضمني اليه وصار يعاتبني على انقطاع اخباري عنه ويجمل الكلام و يسالني هل كانت لي مرتبة في مدريد فقلت نعم يا سيدي كانت لي مرتبة من اعظم المراتب في الدولة وكنت كاتم سر الوزير الاكبر لكني فقدت النعمة بهذا السبب واخذت اقص عليه الحوادث التي جرت لي من يوم بارحت قصره الى يوم خروجي من السجن وهو يتعجب من ذلك غاية العجب . ثم اطلعته على تصميم النية من الاعتزال عن الدنيا الى موضع يهنأ لي فيه العيش العذب ولا أخالط فيه احداً من الناس فقال من حيث انك تحاول العزلة الى موضع منفرد فاني اهبك قطعة ارض في جوار بلنسية تعرف بالرحبة وفيها قصر لطيف يجري في بستانه نهر الوادي الاصغر فانك تجد هناك ما تتشوق اليه نفسك من معاش العزلة . فلما وقع عليّ كرمه جثوت على الارض لابداء الشكر وانحدرت من عيني دموع الامتنان وقلت له اني اعتبر هذه العطية كرماً منك لا بدلاً للجميل الذي صنعته معك فلما سمع ذكر الجميل تشوق الى معرفة ما لم احدثه به فاخبرته بما كان من اشتغالي في كتابة الولاية له على بلنسية فسر مني غاية السرور وقبلني مرة ثانية ووعدني بان يجعل لي في كل سنة ثلاثة الاف درهم اقبضها منه ما دام حياً فشكرت معروفه ورفضت قبول هذا الراتب بقولي له ان لدي ما يفي بحاجتي وانا في العزلة ثم اعطاني المنشور بالضيعة فذهبت اليها ووجهت سبيون في طلب ابوي فجاء بهما ثم تزوجت بفتاة من بنات القرية وجدت لها في نفسي حباً كثيراً فرزقني الله منها اولاداً واقمت مع ابوي في الغبطة والسرور الى ان فرق بيننا هاذم اللذات ومفرق الجماعات

انتهى